

محمد الرميحي

السقوط الأرواح

العروبة بعد غزو
العراق للكويت

الناشر: مديولي الصغير



سقوط
الأوصاف

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة مديبولي الصغير

الطبعة الأولى ١٩٩٧

محمد الرميحي

سقوط الأوهام

العروبة بعد غزو العراق للكويت

الناشر : مديولى الصغير

مقدمة الكتاب

تفتح وعيى السياسى والثقافى على مشهد القومية العربية تحقق انتصاراتها فى معارك التحرير العربية، وقد تحولت من حلم لا يتجاوز الكلمات على الورق إلى أفعال وشعارات سياسية. ومثلما عشت حلاوة هذا الحلم جنيت أيضاً مرارة الفشل، ولم أكن أنا الوحيد فى ذلك، فإن جيلاً كاملاً من أترابى أبناء الخليج العربى قد شبوا على ذلك. كانت ذكريات طفولتنا هى معارك متتابة بدءاً من تأميم قناة السويس المصرية، العدوان الثلاثى، المقاومة الفلسطينية، الثورة الجزائرية، محاربة الاستعمار الفرنسى فى الشمال العربى الإفريقى، وغير ذلك من محطات الصراع مع الآخر (الاستعمار).

وبرغم كل ذلك فإن معارك التحرر من الاستعمار فى الخليج العربى لم تحظ بكثير من الاهتمام والعناية وأكاد

أقول حتى من أبناء الخليج، وبالتأكيد من الرأي العام العربي، ولكنها كانت معركة طويلة ومعقدة يجهل بعض خفاياها الكثيرون اليوم. لقد كانت معركة طويلة بمعنى أنها بدأت مع بداية الاستعمار الحديث نفسه أى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى واستمرت حتى ما بعد النصف الثانى من القرن العشرين، لقد كانت معركة شرسة منذ أن بدأ الاستعمار يجد موطئ قدم له فى هذه البحار والأراضى الهادئة والقاحلة فى آن.

لقد قدم حكام الخليج وأبناؤه التضحيات الجسام من أجل الدفاع عن أوطانهم، وقضى بعضهم نحبهم إما فى سجون السلطة البريطانية فى الهند، أو مشردا خارج وطنه وبعيداً عن أهله وعشيرته، خاصة فى وسط القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وهناك

قصص وحكايات بطولية لم يكتب عنها باستفاضة، القليل منها منشور ولكن أغلبها مازال طى أضيابير التقارير البريطانية أو فى قلوب الرجال والنساء بعد أن تحولت لشبه أساطير وحكايات شعبية.

وعندما تدفقت الثروة النفطية فى هذه البلاد العربية، ورحل الاستعمار كان الوصال العربى صافياً، ومتدفقاً تدفق ثروة الأرض وحرارة قلوب الرجال، فوقف أبناء الخليج مع إخوان لهم فى العروبة والإسلام موقفاً صافياً وصلباً فى السراء والضراء دون منة أو رجاء، لم يكن ذلك بالمشاركة فى المال والثروة فقط؛ فقد كان ذلك أهون الأمور وأيسرها، بل احتضان حقيقى لكل القضايا المصرية وعلى رأسها ميلاد المقاومة الفلسطينية، وحماية قواعد تمويلها وخطوط اتصالها، ودافعوا عن القضايا العربية التى كانت دوماً قضاياهم من على منابر المنظمات الدولية، وامتزجت فوق ذلك كله دماء جنودهم بدماء جنود

العرب على كل الجبهات العربية من حرب المقاومة في فلسطين سنة ١٩٣٦ إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . كنا جميعاً جزءاً من كل . تنبض معهم بنفس نبضات الفرح، ونتألم معهم في أى جرح يصيب الجسد العربى . لذلك لم يكن مستغرباً على جيلى أن يشب وهو يملك شعوراً عربياً صافياً كما هى منابع العروبة الصافية التى دعا إليها الآباء والمؤسسون، ولم يكن مستغرباً أن يدافع جيلى عن ويمتزج بها القضايا العربية.

وفجأة وفى الثانى من أغسطس ١٩٩٠، تحولت البندقية العربية التى كثيراً ما كنا نعتقد أننا نعدّها للدفاع عن العرب إلى صدر العرب، إلى بلد وشعب مسالم وكانت بذلك وبكل صلافة ونكران للجميل تفتال حلم جيلى من المؤمنين بكل شعارات القومية العربية والتى ساهم فى إطلاق العديد منها النظام العراقى نفسه، فالجيوش العراقية لم تجتّح الأراضى الكويتية ولم ترزع سكانها

وتحرق أبار نفطها فقط ولكنها اجتاحت وعى التضام
العربى وروّعت كل مفكرى القومية والعروبة، وأحرقت ك
أحلام الأخوة والتاريخ الواحد والمصير الواحد والهدف
الواحد أيضاً. على وجه البسيطة، ينظرون بأم أعينهم إل
أى مكان قادهم ذلك الشعور الذى أحسوا بضرورته وه
تقديم المساعدة لجيش عربى جار. وكان هذا الجيش
نفسه هو الذى جار عليهم ووجه إلى صدورهم رصاصاً،
ربما كانوا هم الذين دفعوا ثمن شرائها.

ولأن الصدمات هى التى تفتح الوعى، فقد تكفلت هذ
الصدمة بأن تنتج لدينا وعياً جديداً، وعياً يرى أن الخطأ
لم يهدد فكرة العروبة فى صبيحة يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠
فقط بل إن الخطر الحقيقى كان قد بدأ قبل ذلك التاريخ
بكثير، كان قد بدأ فى اللحظة التى تم فيها اغتيال حرا
الشعب العراقى نفسه تحت وطأة دكتاتورية صدام حسين
والطغمة الفاسدة التى حكمت العراق معه، وأن لحد

الدفاع عن فكرة العروبة الصحيحة كان يجب أن تبدأ من لحظة اغتيال حرية الشعب العراقي ذاته وأن الوعي بضرورة المحافظة على الحرية في كل وطن عربي هي صمام الأمان للمحافظة على فكرة العروبة الصحيحة، وعلى سلامة الوطن العربي كله.

وهكذا تأكد لنا أن ما قام به النظام العراقي في صبيحة الثاني من أغسطس ١٩٩٠ لم يكن أكثر من أنه أسقط الأوهام والشعارات الجوفاء التي كان يرددها هو حول فكرة العروبة فحول شعارات التحرير والاستقلال والوعد بحياة أفضل للجماهير إلى مبررات للتشبث بالسلطة بغض النظر عما يعانيه الشعب العراقي المغلوب على أمره من ضنك ومعاناة لا تتصل فقط باحتياجاته المادية بل باحتياجاته الروحية لحرية القول والمشاركة في اتخاذ القرار. إن الأفكار العربية الصحيحة لم تسقط أبداً ولكن الذي سقط هو الشعارات الجوفاء التي لا تطعم خبزاً

ولا تحقق كرامة ولا تسمح بحرية ولا تبني مجتمعاً ولا
تقيم دولة.

العروبة الحققة هي التي تحفظ الجوار وتحفظ الأهل
وتقدم الرخاء الحقيقي لشعوبها وفوق ذلك كله تحفظ
حرية القول والتفكير لأن مجتمع العبيد لا ينتج إلا عبيداً.
ومع سقوط الأوهام لابد من إعادة النظر في الشعارات
والممارسات، لذلك يجئ هذا الكتاب بمجموع مقالاته، وهي
مقالات كان دافع الكتابة فيها البحث الجاد عن مسار
جديد يؤكد الثوابت ويدين الممارسات الشاذة، مسار لا
يسقط الغايات الكلية، ولكن يحرص على الوسائل
الموضوعية، دون إفراط أو تفريط.

أ.د محمد الرميحي

الكويت - أغسطس ١٩٩٦



سقوط الأوهام!

مالنا نحن العرب تكاد تراوح فى مكاننا، بينما الآخرون يتقدمون، بل إن بعضنا يحاول أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء، ويود لو يوقف مسيرة التاريخ. تحدثنا عن نهضة عربية، منذ مطلع هذا القرن، ولكن هذه النهضة بقيت أسيرة العبارات والألفاظ المعادة والمكررة، وتابعنا الغرق فى هذا «البيات الشتوى»، وعللنا النفس بأن هذه النهضة فى حالة كمون، وهى آتية لا ريب فيها، ومع ذلك، وبخلاف غيرنا من الأمم تابعنا وبشغف شديد إدمان الحديث والسجع والابتعاد عن الفعل والعمل والمعرفة.

من حولنا عالم يشيخ ويتهاوى إلى غير رجعة، وعالم جديد يبرز بالفعل، له قواعده ونظمه، والتاريخ من حولنا يتسارع، والكتل الدولية القديمة تتشكل بصيغ جديدة، ويبرز فى الميدان الدولى لاعبون جدد، برهانات جديدة وقواعد للعبة جديدة، وبعضنا لا يزال يحفظ عن ظهر قلب قواعد اللعبة التى تكسرت.

هل يمكن أن نفيق على أن الحرب الباردة، بين ما كنا نسميهما «جبارين» على المسرح الدولى، قد انتهت، وختم فصلها الأخير عندما سقطت مؤامرات «عصابة الثمانية» فى الاتحاد السوفييتى فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس الماضى؟(*)

(*) نشر هذا المقال فى مجلة العربى - العدد ٣٩٥ أكتوبر ١٩٩١

وهل يمكن أن نستوعب أن الرهانات الجديدة هي على قوى السوق والتفاعل الحر الخلاق بين الأمم والدول، لا منطق القوة ولا مركزية التخطيط الاقتصادى؟ هل يمكن أن نعرف الآن أن أداة التنمية فى المجتمع الإنسانى وعلى المستويين المحلى والدولى هي التنظيم الاقتصادى القائم على حرية التبادل السلعى ونظام المال، لا على القوى ولا على المقدس؟! يبدو أننا حتى الآن غير قادرين على استيعاب كل هذه المتغيرات الجديدة، لأن بعضنا إما غير واع لهذه المتغيرات أو غير معترف بوجودها، وآخرين يحاولون فقط أن يخفضوا رءوسهم حتى تمر العاصفة!، والعاصفة تزمجر من حولنا بقوة ويعنف.

والنظام العربى القديم:

لنعترف أن النظام العربى القديم قد استنفد أغراضه، ربما لم يحقق أى من الأهداف التى قام لتحقيقها، ربما كانت تلك الأهداف محدودة، ولكنه نظام عفا عليه الزمن، هو نظام اللانظام. وعندما نلقى نظرة على الواقع العربى منذ ثلاثة عقود أو أربعة نجد أن غالبية هذه السنوات كانت سنوات صراع عنيف لتحقيق أوهام مستحيلة، وهذا الصراع أخذ شكل الحروب الأهلية والحروب بين دولتين عربيتين أو أكثر، هل نذكر بحريين أهليتين فى لبنان وفى السودان، هل نذكر

بحروب فى شمال القارة الأفريقية العربية مع الجيران العرب أو الجيران الأفارقة، هل نذكر بحروب اليمن شماله وجنوبه، هل نذكر بحرب العراق ضد إيران، تلك بعضها فقط، وهل نذكر بعملية اجتياح العراق للكويت التى أنفذت المسمار الأخير فى نعش النظام العربى القديم المتهاوى؟

المشكلة أن كثيرين حاولوا أن يدافعوا عن هذا النظام المتهاوى، أو اللانظام، وكأنه الأمثل والأبقى، وخلقوا أوهاما غير عقلانية ومعادية للواقع المعيش. والأوهام غير الأحلام، فنحن نستطيع أن نحلم بتحقيق شىء نافع لنا على المستوى الوطنى أو القومى أو الإسلامى، ولكننا لا نستطيع أن نعيش أبدا على الأوهام.

الأوهام تلك حَقًّا شعوبنا بها وجماهيرنا، وأرضعنا أطفالنا وطلابنا بشعاراتها حتى أصبحت قيда علينا. اليوم يضيق الخناق على واقعنا ومستقبلنا، وهذه الأوهام عديدة:

الوحدة العربية:

لعل ذلك هو الوهم الكبير، لم يكن حلما، لأن الحلم يمكن تحقيقه. والاختلاف هنا أن الوحدة العربية التى رفعنا شعارها لم يكن لها برنامج محدد ولا هدف محدد، وراوحنا بين (التوحد الكامل) و(الخصوصية الكاملة) وأضعنا الاثنين معا. وعندما نتحدث اليوم عن الوحدة العربية فإننا نسترجع

كل تلك العثرات والأخطاء، بل والخطايا التي ارتكبت باسم الوحدة العربية، فقارة كانت اتحادا بين قطرين سرعان ما انفصل، وتارة وحدة ثلاثية تنفصم قبل أن يجف مداد التوقيع على وثائقها، ثم جاءت محاولة ابتلاع الكويت وطمس هوية شعبها من النظام العراقي لتصدمنا جميعا، خاصة من عانى فترة الاحتلال من الكويتيين فى الداخل، ومن كوته نار التشريد والغربة وكابد اللجوء من غير هوية فى الخارج. هذه المحاولة للابتلاع أراد البعض أن يمررها ويفسرها ويفلسفها تحت شعار (الوحدة)، فكان علينا أن نطالب بتحديد واضح لهذا الشعار الذى رفعناه، أى وحدة، وكيف تقوم، وما هو برنامجها؟

هل الوحدة تعنى الإلغاء والابتلاع فى عصر يتجه فيه العالم لتدعيم حقوق الشعوب والأفراد واحترام رغباتها ووضع الإنسان وحقوقه فى موضع الأولوية المطلقة؟ وكيف يمكن لنا أن نؤمن بوحدة تغيب دور الناس وتحولهم إلى ديكور، وتفشل فى برامج التنمية وتخلق فى تراثنا السياسى (أدب التناقض)، فهى تدعو إلى شىء وتفعل شيئا آخر؟

إن أدب التناقض السياسى ظاهر جلى فى حياتنا العربية السياسية. ففي الوقت الذى تنص فيه كل موثيق الجامعة العربية على «احترام سيادة الدول العربية» وعلى «عدم

التدخل فى الشئون الداخلية» وعلى «عدم جواز استخدام القوة لتسوية النزاعات بين أى دولتين من دول الجامعة» يظهر أدب التناقض السياسى فى الشعارات المرفوعة والممارسات السياسية الناتجة عن تلك الشعارات. إن الأفكار تفقد علاقتها بالواقع وكذلك اللغة.

والتنمية العربية:

اعتمدت شعارات التنمية العربية، أول ما اعتمدت على هوامش الفكر الاشتراكى العالمى، واجتهد بعضهم فى محاولة لفلسفة هذا المنحى وخلصنا إلى أن نأخذ كل ما فى النظامين العالميين إبان الحرب الباردة من مساوىء، فاعتمدت (اشتراكيئنا) على الإفقار والقمع وتهميش قطاعات واسعة من المجتمع، وعلى الإرهاب السياسى، بمعنى تكميم الأقواء ومحاولات النقد، كل ذلك تحت شعار عدم منح العدو فرصة للاستفادة من خلافاتنا. وفى المحاولات القليلة التى رفضت بعض الدول العربية فكرة الشمولية الاقتصادية، لم نتبن الاقتصاد الحر بكل عناصره، إنما مزجنا هجيناً بين الفكرتين، مع الاستعاضة عن الشمولية الاقتصادية بالشمولية السياسية، فعاشت محاولات التنمية الاقتصادية فى معظم أوطاننا العربية حالات من وهم التنمية والإنتاج، وتدهور الوضع الاقتصادى العربى من سيئ إلى أسوأ، وهرب

المبادرون واختفى رأس المال المنتج، رغم كل المحاولات للنهوض، وأصبح غنانا فقط هو فيما نقوله عن أنفسنا فى الكتب والصحف من أننا نملك مصادر ثروة هائلة من الأرض والمياه والطاقة البشرية والمعادن، وفى الأماكن القليلة من أوطاننا العربية التى استطاعت أن تسخر ثروتها الطبيعية والبشرية تسخيرا معقولا لصالح التنمية الشاملة أصبحت هذه الأوطان مستهدفة بحروب، إما أهلية أو حروب اجتياح كما حدث للكويت فى صيف ١٩٩٠، واختفى التفكير الاقتصادى الجاد لنهرب إلى تفكير وفعل سياسى له علاقة مباشرة بخطاب التناقض العربى.

وحقوق الإنسان العربى:

نتيجة لكل ذلك فقد ضاعت فى خضم هذا الصراع حقوق الإنسان العربى، وأصبح العربى المسكين من أواخر شعوب الأرض التى يحق لها التمتع بمكانة إنسانية رغم ميراثنا الحضارى الضخم، والتى من ضمنها - من المنطق النظرى - دين عظيم هو الإسلام، وحضارة عظيمة. فأصبح الإنسان على أرضنا المنكوبة أرخص سلعة لدينا فى أوطاننا العربية، يُقتل فلا يسأل عنه أحد، يؤسر فتنسأه حكومته ومجتمعه، يموت من الجوع والحاجة والمرض، فلا يلتفت إليه أحد ويُحرم من العلم والعلاج.

بل إن حرمان الإنسان من حقوقه فى معظم دولنا العربية فاق ما يحرم منه الإنسان الإفريقى وفى معظم دول العالم الثالث، فهو متهم حتى تثبت براءته، فى المطارات وعلى الحدود. وفى الوقت الذى يعانى فيه الإنسان العربى كل ما يعانى به من نقص مرضى فى حقوقه العامة والإنسانية، تتصاعد أصوات «التناقض العربى» لتحديثنا فى وسائل الإعلام عن الكرامة العربية والعنفوان العربى ومقاومة الضيم، وكلها إلغاء كامل لكل الممارسات الواقعية وبناء «أوهام» على الورق عن حقوق ليس لها وجود فى الواقع، بل صار المجتمع ككل والكتل البشرية الكبيرة مندمجة فى شخص الزعيم الذى تنفخ وسائل إعلامه فى دعوى زعامة فارغة ليل نهار، بينما يعامل الإنسان فى بلاده كرقم وليس كإنسان يمكن أن يشطب فى أى وقت يقرره الزبانية.

النظام العربى والأمن القومى:

النظام العربى كما نعرفه اليوم هو على فراش الموت، والجامعة العربية جثة تحتاج إلى من يدفنها وليست مريضا يحتاج إلى علاج، فقد ولدت بعد الهزيمة العربية الأولى فى فلسطين التى ضاعت منذ ١٩٤٨ وبدأت رقعة الضياع تتسع، ونساعد نحن على اتساعها برفع أصواتنا الجهورية وضم أيدينا إلى صدورنا، نطلق الشعارات تلو الشعارات، ونفوت

الفرص تلو الفرص، ونعتقد أن العالم يخاف من الأصوات العالية والتشنجات أكثر مما يخاف من الموضوعية والعلمية. وعندما انعقد مجلس الجامعة العربية في ١٣ أبريل (نيسان) ١٩٥٠ ليصدق على معاهدة الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي لم ير أي من بنود تلك الاتفاقية النور ولا الاتفاقيات العربية الكثيرة التي كرت في مسيحيتها، ولم تستطع كل تلك المعاهدات والاتفاقات العربية - العربية توفير العناصر الأساسية اللازمة لحماية الأمن (القومي) أو التعامل مع التحديات التي واجهها العرب. أكثر من ذلك، وفي ظروف الانقسام والتربص العربي والشك المتبادل، تراجعت اعتبارات الأمن القومي إلى تأمين امتيازات لبلد على بلد آخر، وكانت فترة الثاني من أغسطس ١٩٩٠ التي هزت العرب وقسمتهم، بعد أن كانت تجربة هذه الفترة الأولى في حرب إيران، وحروب لبنان.

وأثبت النظام العربي القائم عجزه وفشله للمرة الأخيرة عندما فشل بجهده الذاتي في رفع الظلم ورد المعتدي . وتشردم العرب، وبقي نظامهم الإقليمي في مهب الريح.

النظام العالمي الجديد:

يتخلق اليوم نظام عالمي جديد له قواعد ونظم ومؤسسات وأهداف، ويصر العرب على التخلف عن هذا النظام. هذا

النظام الجديد له قوانين مازال بعضنا يرفضها بعنف، ولعل المفارقة أن نجد بعضنا يسارع إلى (تهنئة) الانقلابيين في الاتحاد السوفييتي متوهما عودة النظام القديم، لعله يعزز من مواقفه وحرويه مع طواحين الهواء. وعشية حرب تحرير الكويت وما بعدها نجد أن مجموعة من المفاهيم قد ولدت، من بينها سقوط الأيديولوجيا بأشكالها المختلفة وخاصة الشمولية واندحارها وبزوغ النظام العالمي الجديد والاعتراف بالتعددية وعصر حقوق الإنسان وانتصار الليبرالية والديمقراطية على الشمولية والقطعية، وصعود مفاهيم العلم والتقنية والاتصال.

ومن هروب منغستوهايلي مريام إلى عودة غورباتشوف إلى السلطة مروراً بملحمة تحرير الكويت، تؤكد الثوابت الجديدة نفسها، وتتشكل في الوقت نفسه التكتلات الجديدة وأبرزها التكتل الأوروبي (الوحدة الكاملة ١٩٩٢) والثقل الأمريكي ودائرتا جنوب شرق آسيا والصين، وهي عوالم تتطور بسرعة وتأخذ مكانها على المسرح الدولي. هذا النظام العالمي الجديد أكد ترابط الاجتماعى بالسياسى بالاقتصادى، فلا توجد من دون إبداع، كما يقول جاك أتالى، المستشار الموهوب للرئيس ميتران، ولا إبداع من دون ديمقراطية، الإبداع هو البديل العقلانى للعنف، ولا إبداع وديمقراطية من دون تطوير للمعارف التى تساعد البشر على حل مشكلاتهم، إنه العلم

بمعناه الواسع - لا الضيق - والعلم هو الذى ساهم مساهمة جادة فى معركة تحرير الكويت.

العلم هو الذى يحسن لنا وسائل الصحة والإنتاج ويسهل لنا المواصلات والاتصالات . والعرب بدلا من الاندفاع إلى الأمام للقبض على ناصية العلم ينكصون إلى الخلف مسترشدين بالخرافة.

أليست الخرافة أن يدعى صدام حسين أن الراعى فى البرية يستطيع أن يرى طائرة الشبح ويرميها بكف تراب؟
أليست الخرافة أن يدعى دجال مثله بنسبه إلى الرسول العظيم؟ أليست الخرافة أن نزع تحقيق التنمية دون عمل وعلم؟ أليست الخرافة أن نؤمن بأننا يمكن أن ندحر الأعداء بالتهديد والوعيد والابتزاز والإرهاب؟

تلك كلها خرافات وأوهام سقطت من عالم يتشكل اليوم حولنا معتمدا على العلم والتقنية.

العلم ليس هو الإبداع والابتكار فقط وإنما أيضا التطوير، لقد اخترعت الآلة البخارية خارج بريطانيا ولكنها طورت هناك، كما اخترعت التكنولوجيا الدقيقة خارج اليابان ولكنها طورت هناك، الاختراعات والعلم والتطوير هى (الزمن) الذى يعيش فيه النظام العالمى الجديد فى شقه المتقدم، ويبدو أننا كعرب مازلنا خارج ذاك (الزمن).

ويعمل النشاط الحر والليبرالية السياسية والمبادرة الفردية والنظام المالى المفتوح (كمسرّع) هائل لتلاحم الكتل الدولية فى إطار هذا النظام الجديد، إلى درجة أن كتلة مثل الاتحاد السوفييتى تتسارع فيها التغيرات بوتيرة غير مسبقة باتجاه تبنى تلك الأدوات، ونبقى نحن العرب، فى معظمنا خارج هذا (المسرّع). والمطلوب منا نحن العرب كما يقول المفكر العربى سعد الدين إبراهيم، الخروج من (زقاق) التاريخ إلى طريق الإنسانية السريع، ولا تحتاج مواصفات سعد الدين إبراهيم للخروج إلى طريق الإنسانية السريع أكثر مما ذكرنا من سقوط الأوهام وتبنى بدائل لها.

إن الانغلاق يؤدى إلى نبذ أى جهد لاكتشاف القوانين التى تتحكم فى الظواهر الطبيعية، وهنا يقفل علينا الطريق الفسيح إلى ساحة العلم والاجتهاد العلمى، هذا الانغلاق حثت عليه أيديولوجيات تبناها بعضنا لفترة طويلة، ويكرّس هذا الموروث الثقافى الانغلاق فى صورة إهدار لقيم العمل المنتج اليدوى والذهنى، أما النكوص إلى الماضى فهو مريع لبعضنا لأنه يفتش فيه عن حلول لمشاكل اليوم فيما مر بالآخرين أمس.

الانغلاق والنكوص ظاهرتان لازمتا تيارنا الفكرى الغالب. وفى نظرة فى العمق لتيارات فكرنا العربى المعاصر نجد أن الانغلاق والنكوص هما قطبا الاستقطاب بدلا من الانفتاح

والنظر إلى الأمام. لذلك فإننا نواجهه، ليس خطر عدم الفهم الدقيق للنظام العالمى الجديد، بل ما هو أخطر من ذلك وهو تهميش العرب وتقليل إسهاماتهم فى عالم جديد يتشكل.

وسائل الاتصال:

تواترت الاجتهادات أنه منذ حرب تحرير الكويت وحتى الاستغناء عن خدمات الحزب الشيوعى السوفييتى بعد محاولة الانقلاب فى شهر أغسطس الماضى، تواترت هذه الاجتهادات على أن وسائل الاتصال لعبت دورا أساسيا فى ربط العالم والتأثير على الأحداث. فالهاتف و(التلفاكس) والكابلات والأقمار الصناعية، هذه الوسائل التى بين أيدينا اليوم، تسمح بنقل الرسومات والمخطوطات والرسائل والصور والبرامج والمعلومات الضرورية للصناعة والإنتاج والاقتصاد والسياسة، للاستهلاك العام أو الخاص. ومازال بعض أشكال هذه الأدوات يعامل (كممنوعات) فى بعض بلداننا، ولن نستطيع أن نمارس هذا الانغلاق لفترة أطول، لقد سقطت الحدود المانعة لوسائل الاتصال هذه كما سقطت (الأسرار).

وأصبحت وسائل الاتصال جزءا أساسيا من النظام الجديد الذى ما عاد الفرد فيه كمأ مهملا، إن وسائل الإعلام مؤهلة لتوضيح المشاكل والتأثير على الجماهير، بل وإشعال الثورات وتغيير المجتمعات، إنها - إن صح التعبير - «الأيديولوجيا

الجديدة»، فكما أوحى علم الميكانيكا بالنظرية الليبرالية، وعلم الديناميكا الحرارية بالنظرية الماركسية، يقوم اليوم التحليل الاجتماعي على نظرية المعلوماتية، وهذه النظرية تقول إنه ما من شكل اجتماعي يمكن أن يوجد إلا إذا كانت هناك عناصر تتبادل (الاتصال) فيما بينها، وفيما بينها وبين العالم. ورغم وجود الاتصال منذ الخليقة إلا أن زمنه قد تقلص، مما يؤكد الأثر الدرامي على نتائج ذاك الاتصال.

التحدى:

إن التحدى الذي يواجهنا كعرب هو في مقاومة هذه الأوهام وإسقاطها، ونحن لا نبتعد عن الألف الثالثة للميلاد إلا بتسع سنوات فقط، والعالم من حولنا - معظم العالم - يستعد للعبور بمرح إلى المجتمع التجارى الديمقراطى المفتوح، بينما تكبر الهوة يوميا بيننا وبين ذاك العالم.

لقد علمنا التاريخ أن الأمم تتقدم وتقدم الجديد نتيجة رد فعل ثقافى على تحد جغرافى أو عجز مادى، وليس هناك أكبر ولا أعظم من التحدى الذى يواجهنا، فهو تحد داخلى فى التخلص من النظام المريض القديم وإسقاط كل تلك الشعارات، والتحكم بإرادة التغيير بشكل فعال وإيجابى، ومن هنا فإن (التغيير) المطلوب هو أعلى ما يجب أن نضعه على جدول أعمالنا.



الطريق إلى
السلام

أخطر النزاعات الإقليمية فى العالم هو النزاع العربى
الإسرائيلى الذى استمر حتى الآن نشيطاً ما يقارب نصف
قرن من الزمن، وكانت له جذوره التاريخية قبل ذلك بما
يساوى نصف قرن آخر.

أخطر النزاعات لأنه لم يقتصر على حروب عديدة بين
إسرائيل وجيرانها العرب فقط - على الرغم من المعاناة والألم
والخسائر البشرية والمادية التى تخلفها الحروب، وقد خلفت
بالفعل من الألم الإنسانى ما ينوء شعب واحد بحمله - بل لأن
تأثيره امتد فوق ذلك أيضاً، ليؤثر فى البنية السياسية
والاجتماعية والاقتصادية لبلدان قريبة وبعيدة من النزاع،
فسقطت دول وتلاشت أنظمة وظهرت أنظمة جديدة وتعددت
الاجتهادات وصُرُفت بلايين الدولارات، وقُتل أو استشهد
الآلاف من العرب وغيرهم فى أثناء تصاعد وتأثر هذا
الصراع، الذى اختلف فيه أهله بقدر ما اختلف عليه الغرباء.
وامتد تأثيره ليدخل كعامل من عوامل التكوين الثقافى
والاجتماعى فى العقل العربى طيلة أكثر من نصف قرن، كما
تعدى هذا التأثير ليضغط على أفكار وتوجهات ويعيد صياغة
رؤى ويسهم فى تكوين شرائح وقوى اجتماعية برزت أو
تلاشت فى عديد من المجتمعات العربية.

وعند إيجاد بداية جسر لتسوية هذا النزاع فإن مستقبل

العلاقات الدولية، سواء أكانت بين العرب وغيرهم أو بين العرب وإسرائيل، أو بين إسرائيل وغيرها من الدول، سوف يتغير تغيراً جذرياً لم يكن متوقفاً أو محتملاً حتى لسنوات قليلة ماضية، وستشهد المنطقة عصراً آخر مختلفاً عن عصر نصف القرن الماضى.

وحيث إن النقلات التاريخية لا تأتى من فراغ فإن هناك أسباباً عديدة ومداخلات كثيرة أدت إلى الوصول إلى بوابة السلام فى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى مدريد العاصمة الإسبانية التاريخية.

ومن مصادفات القدر أن تكون إسبانيا، التى شهدت أرضها منذ خمسة قرون مضت اضطهاد العرب المسلمين واليهود على حد سواء، بعد أن شهدت قمة التعاون الحضارى الإسلامى - اليهودى - المسيحى الذى استمر لعدة قرون، أن تكون من جديد ملتقى تاريخيا للعرب واليهود فى ظروف أخرى ولأسباب أخرى مختلفة.

قلنا إن هناك أسباباً ومداخلات عديدة أوصلت الأطراف المعنية بتسوية النزاع إلى مؤتمر السلام فى مدريد من بينها ما أعقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ من خطوات سياسية قادتها وقتها مصر - السادات، فقد وجدت مصر بقيادة الرئيس محمد أنور السادات أن استمرار النزاع العربى الإسرائيلى

فى الظروف والمعطيات التاريخية السائدة غير مقبول أو ممكن، ونظرت إلى النصر النسبى الذى حققته الجيوش العربية المتحالفة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ على أنه مرحلة جديدة يجب الاستفادة منها، حيث برهنت تلك الحرب على أن القوة الإسرائيلية غير مطلقة. وحيث إن العودة إلى حلقة جديدة من الصراع المسلح تعنى فيما تعنيه وضع المصادر الاقتصادية والبشرية والتنمية الشحيحة لبلدان المنطقة فى حالة حرب طويلة تستنزف البقية الباقية من احتمالات تمويل التنمية، وفى نفس الوقت لن يحقق استمرار الصراع المسلح فى المدى الزمنى المعقول أية نتائج إيجابية.

وقد انقسم العالم العربى بعد تلك الخطوات الأولى، فى طريق السلام المصرى/ الإسرائيلى، إلى قسمين : أحدهما مؤيد لتلك الخطوات عالم بدوافعها ومتفهم لتلك الدوافع، والقسم الآخر رافض لتلك الخطوات، مسبباً رفضه بأسباب كثيرة بعضها عاطفى.

إلا أن التاريخ اتخذ مجراه وجرت مياه كثيرة فى النهر العربى والدولى، فكانت للمفاوضات المصرية/ الإسرائيلية - رغم عسرها - نتائج ملموسة استطاعت مصر فى نهايتها أن تعيد شبه جزيرة سيناء إلى السيادة المصرية وتحررها من الاحتلال الإسرائيلى، ولم يكن ذاك الطريق سهلاً أو ميسوراً،

فقد كان على مصر أن تحارب باتجاهين: الأول هو ضد العناد والتسويق الإسرائيلي، وكانت قضية طابا أعلى مراحله وأشدّها صعوبة. والاتجاه الثانى مع إخوة لها من العرب لم يستطيعوا وقتها فهم المسببات الموضوعية التى جعلت مصر تتخذ تلك الخطوات.

إلا أن نموذج المفاوضات المصرية/ الإسرائيلية ونتائجه وما تمخض عنه من دروس كان أحد الدوافع التى أدت فى النهاية لجلوس العرب وإسرائيل إلى مائدة المفاوضات فى مدريد فى الشهر الماضى . وكان أحد أهم الدروس المصرية هو أن السلام يعنى إنهاء حالة الحرب والتفرغ لحل مشكلات البناء والتنمية، ولا يعنى بالضرورة قبول التأثير الإسرائيلى أو القطيعة مع العرب. ومن الأسباب الأخرى التى قادت إلى مؤتمر السلام فى مدريد ما حدث فى السنوات الخمس الأخيرة فى الاتحاد السوفييتى، فقد أدت الإصلاحات السياسية التى تمت فى الاتحاد السوفييتى وفى أقطار أوروبا الشرقية إلى انحسار الالتزام السوفييتى السابق بقضايا الشرق الأوسط، وقد تصاعد هذا الالتزام لأسباب مصلحة وأيديولوجية فى إطار الحرب الباردة منذ صفقة السلاح المصرية/ التشيكية فى وسط الخمسينيات، مروراً بصفقات السلاح المباشرة بين الاتحاد السوفييتى وأقطار عربية محيطة

بإسرائيل وانتهاءً بالدعم العسكرى والسياسى المباشر.

إلا أن ما قام به جورباتشوف فى الاتحاد السوفييتى من إصلاحات سياسية واقتصادية وما رافقه وتلاه من سقوط «النظام القديم»؛ وهو التغير الجذرى فى حكومات دول أوروبا الشرقية، وقيام ألمانيا الموحدة، ثم سقوط المحاولة الأخيرة لوقف عجلة الإصلاحات عندما فشل الانقلاب فى موسكو فى أغسطس الماضى، كل ذلك أدى إلى تأكيد التيار الزاحف فى عالمنا الجديد وهو أنه لا عودة إلى الماضى، وليس من مصلحة العالم أن ينقسم إلى قسمين متعارضين لهدف التعارض.

وقد قابل ذلك من طرف آخر زيادة فى الالتزامات السياسية للولايات المتحدة. ومن الغريب أنه لسنوات قليلة مضت كان المحللون السياسيون يعتقدون أن عهد رونالد ريجان هو بمثابة نهاية عصر، ولكن تلك النهاية كان يُنظر إليها على أنها تدهور فى قوة الولايات المتحدة. وقد تناولت الصحافة الأمريكية وعدد من الكتاب والمفكرين الأمريكيين مظاهر هذا التدهور . والإشارة هنا يمكن أن تتجه إلى كتابين أحدهما كتاب إلين بلوم «انغلاق العقل الأمريكى» والثانى لبول كيندى «صعود وسقوط القوى العظمى» ، ولكن جاءت الوقائع لتؤكد نهاية عصر وبداية عصر جديد ولكنه عصر على عكس ما هو

متوقع، عصر جاء بالولايات المتحدة الأمريكية لتقود العالم بلا
منازع ولكن بطريقة جديدة ومختلفة.
الفلسفة الجديدة:

يطيب للبعض أن يركن للمقارنة بين الحاضر والماضى
فيتحدث مثلاً عن واقع العلاقات مع الغرب مقارناً لها مع
الموقف الصليبي التاريخي بالموقف اليوم، أو بمقارنة موقف
الغرب اليوم بالموقف الاستعماري في السابق، وهي مقارنة
غير تاريخية، فالتحولات الكبرى التي حدثت في أوروبا
 وأمريكا بعد «العصر الاستعماري»، وهي تحولات هيكلية في
الداخل وفي الخارج، هذه التحولات تعود في جوهرها إلى
حركة ديمقراطية واسعة وعميقة تطورت ونضجت في النصف
الثاني من القرن العشرين، وجعلت من اتصال الغرب في
مرحلتنا التاريخية مع الشرق الأوسط ليس اتصالاً استعمارياً
بل اتصالاً تنويرياً يعتمد على قاعدة حقوق الإنسان
والديمقراطية وتوازن المصالح. وبالتالي فإننا أمام تشكيلة
تاريخية جديدة تختلف عن تلك التي أوجدت الاستعمار في
العصور الحديثة . وصعوبة اكتشاف هذا التحول لدى
الكثيرين اليوم هو الذي يجعلهم لا يستطيعون فهم ما يجري
حولهم ويقفون مشدوهين أمام تسارع الأحداث.
وليس باليسير اكتشاف التحول في العلاقة الجديدة بين

الغرب والشرق إلا بسبر أغوار المجتمعات الغربية اليوم، كيف تفكر وكيف تتفاعل، وفهم الأبعاد التاريخية لهذا التحول من السيطرة إلى السلم والتعاون.

ولقد ساهم أخيرا بعض العرب فى الوصول إلى مائدة المفاوضات فى مدريد عن طريق فهمهم الصحيح للتحولات الكبرى الجارية حولنا وفى العالم. كما لايزال البعض من العرب ينظرون من خلال المنظار القديم أو حتى الأقدم، وهم مشدوهون بما يحدث، نتيجة عقود من التثقيف الخاطيء والممارسات الخاطئة والمزايدات الكلامية.

مجموعة المداخلات التى وصفناها سابقا هى التى مهدت للوصول إلى مقاعد التفاوض العربى - الإسرائيلى فى مدريد.

العالم مع السلام :

الدعوة لمؤتمر السلام فى مدريد كانت دعوة مشتركة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لكل من سوريا ومصر ولبنان والفلسطينيين والأردن وإسرائيل. كما مثلت الأمم المتحدة والسوق الأوروبية المشتركة ومجلس التعاون الخليجى ومجلس التعاون المغربى كمراقبين. الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى يعتقدان أن (هناك فرصة تاريخية من أجل دفع عجلة السلام فى منطقة الشرق الأوسط). توجيه الدعوة على هذا المستوى وبهذه الأهمية، وحضور الرجل الأول فى كل من

الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لافتتاح المؤتمر ورعايته
يعنى - ضمن ما يعنيه - تصميم العالم على هجر الصراع
والبدء فى مرحلة الوفاق

وقد كانت إسرائيل منذ نشوئها تدعى أنها (تتمنى) أن تتم
مفاوضات مباشرة بينها وبين العرب، وكان العرب دائما
(يتمنعون) فى الظاهر عن إجراء هذه المفاوضات، وعندما
أوشكت هذه المفاوضات أن تحدث، كاد العكس تماما أن
يحدث أيضا، فالعرب يقبلون وإسرائيل تضع شروطا قاسية،
ولكن المجتمع الدولى كان قد قرر وانتهى الأمر. المحادثات
المباشرة مبنية على قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و ٣٣٨.
القرار ٢٤٢ - الذى أصبح أشهر قرار فى تاريخ المنظمة
الدولية، وكذلك فى تاريخ منطقة الشرق الأوسط المضطربة
صدر فى سنة ١٩٦٧ بعد حرب يونيو (حزيران) من ذلك العام
بين العرب وإسرائيل، وقتها احتلت إسرائيل أرضا عربية
تعادل ثلاثة أضعاف مساحتها قبل تلك الحرب المشنومة، وقد
كان المؤمل أن تقلص مساحة إسرائيل عندما بدأت الحرب
فزادت هذه المساحة بعد أن صممت المدافع. القرار يطالب
(بانسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أرض محتلة)
وكذلك يؤمن حقوق (كل الدول فى المنطقة أن تعيش بسلام فى
حدود أمنة ومعترف بها).

العرب والإسرائيليون بعد ذلك لم يصلوا إلى اتفاق لتفسير ذلك القرار، خاصة في نقطته الأولى، فنحن اعتبرنا معنى ذلك القرار أنه يعنى (كل الأراضي المحتلة) في الحرب، وإسرائيل تصر على أنها (بعض الأراضي). المضحك أن مفهوم (كل) و(بعض) الأراضي تغير أيضا مع الزمن، فعندما طُلب من الحكومة الإسرائيلية اليمينية تحديد ما تعنيه بمفهومها (بعض الأراضي) ردت أن (بعض) تعنى تلك الأراضي التي قد أرجعت إلى العرب وهى شبه جزيرة سيناء!

قرار مجلس الأمن ٣٣٨ اتخذ في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وطالب هذا القرار بوقف إطلاق النار - وقتها - وبتطبيق قرار ٢٤٢.

قرارات أخرى لمجلس الأمن خاصة بالنزاع العربى الإسرائيلى يعود تاريخها إلى الأربعينيات، فهناك على سبيل المثال قرار مجلس الأمن رقم ١٨١ الذى صدر فى نوفمبر ١٩٤٧، والذى وافق على خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية، والذى نشير إليه دائما فى أدبياتنا بـ «قرار التقسيم».

وكذلك قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ الذى أصدره المجلس فى مارس ١٩٧٨ والذى يطالب إسرائيل بوقف العمليات العسكرية ضد (الأراضي اللبنانية، وأن تسحب قواتها

العسكرية منها). تطبيق هذه القرارات من جانب الشرعية الدولية هو حقل اختبار لحالة صراع نموذجية بها من التعقيد والتداخل الكثير، كما يقاس بها مدى قدرة النظام العالمى الجديد - من خلال دور الأمم المتحدة وقيادة الولايات المتحدة - على النجاح أو الفشل.

النظام الدولى الجديد مبنى على قواعد محددة منها التطبيق الواضح والأكيد لقرارات اتخذها مجلس الأمن، وهذه القرارات مبنية بدورها على حقائق قانونية وتاريخية.

من هذه الحقائق عدم جواز الاحتفاظ بالأراضى التى اغتصبت عنوة بقوة السلاح، فالنظام الدولى يعطى من الحرمات للحدود الدولية ما لم يتوافق فى السابق. فالنظام الدولى السابق تغاضى مثلاً، وبعضه اعترف بابتلاع جوزيف ستالين لدول البلطيق، كما كرس ذاك النظام منطقتى النفوذ السوفييتية والأمريكية فى كوريا على جانبى خط العرض ٣٨° كدولتين مستقلتين، ودخل ذاك النظام فى حرب عندما جرت محاولة لتعديل ذاك التقسيم فى كوريا فى سنة ١٩٥٠، كما تغاضى ذاك النظام عن دخول القوات السوفييتية إلى أفغانستان، بل وعدّ ذلك أمراً واقعاً.

أما النظام العالمى الجديد فهو غير ذلك، لا يوافق على اختراق الحدود الدولية بقوة السلاح، حتى جمهوريات

البلطيق التي مضى على (دمجها) زمن طويل استطاعت أن تحصل على استقلالها، وكان المثال الأوفى والأوضح في النظام الجديد رفضه القاطع لمغامرة صدام حسين ونظام بغداد عندما اجتاحت جحافل المدججة بالسلاح بلدا صغيرا وجارا مسالما هو الكويت.

الكويت وحل النزاع:

لن يستطيع كاتب أو محلل أو رجل تاريخ أو سياسة يتعرض لموضوع الصراع العربي الإسرائيلي منذ الآن وفي المستقبل أن يتجاهل دور الكويت وما حل بها وكيف عالجت الشرعية الدولية كارثة احتلالها وباختصار (مثالها) في الموقف الدولي تجاه النزاع العربي الإسرائيلي.

لقد مهدت دماء شهداء الكويت ودموع نسائها الثكالى وحسرة شبابها وعذابات «شبيانها» طريق السلام في الشرق الأوسط.

فقد امتحنت الشرعية الدولية في موضوع الكويت كما لم تُمتحن قط من قبل، فعندما كان العالم يتجمع باتجاه إقامة نظام جديد، جاءت مغامرة نظام بغداد الأثمة لتسرع بهذا التجمع:

أولا: كى يقف أمام صلف نظام بغداد وعنته.

ثانيا: ليتولى تطبيق المبادئ الجديدة على جميع الدول بما فيها إسرائيل.

ومن المفارقات المؤلمة أن تكون الكويت هي أحد البلدان الرائدة في دعم نضال الفلسطينيين وقضايا العرب المصيرية، فقد وقفت بقوة مع حركات التحرير العربية في كل مكان من الجزائر إلى عدن، وكانت قضية الكويت الوحيدة في المحافل الدولية هي القضية الفلسطينية، وقد تعاطف أهل الكويت مع حركة الانتفاضة الفلسطينية إلى أبعد الحدود فمدوها ليس بالدعم المعنوي والمادي فحسب، بل الإعلامي والبشري أيضا. وكان يدفعها في كل ذلك انتمائها العربي والإسلامي وإيمانها بالحق ورفع ميزان العدالة.

وما قامت به الدبلوماسية الكويتية في هذا المقام يقصر عنه الحصر والوصف، فقد كانت سفارات الكويت في الخارج لها قضية واحدة هي القضية الفلسطينية، وتعرضت من جراء هذا الموقف إلى ضغوط ومضايقات تحملتها بفخر دون منّة، لأنها آمنت - كما آمن كل المخلصين من العرب - أن الموضوع الفلسطيني هو معيار الحق والعدل والسلام.

ومن المؤلم والمحزن أنه بعد كل تلك المواقف الصلبة والواضحة من الكويت وأبناء الخليج تأتي قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كي تساعد وتدعو وتثير كل قواها السياسية والإعلامية وكوادرها النشيطة مع الباطل ومع نظام صدام حسين الذي عامل العراقيين معاملة دون مستوى

البشر ثم انقض على الكويت والكويتيين ورَّوع أمنهم وشتت جمعهم وقتل رجالهم واختطف نساءهم.

وكان موقف قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من هذا الأمر الجلل فجیعة ما بعدها فجیعة، فقد وقفت ضد كل ما طالبت وتطالب به سياسيا وإعلاميا لنصرة قضيتها، وبررت من الأعمال العراقية فى الكويت ما كنا وكانت تشجبه، من أعمال مثیلة تقوم بها إسرائيل فى الأرض العربية المحتلة، وكان موقف هذه القيادات هو قمة الاستهتار وقصر النظر عندما ضربت بالمبادئ العظيمة عرض الحائط.

ومع ذلك كله فقد فرقت الكويت بين المنظمة وقيادتها وبين الأخيرة والشعب الفلسطينى، ووقفت رغم جراحها وألمها وحزنها على أبناء بررة غیبهم النظام العراقى فى سجونہ، ووقفت على المنابر العالمية تطالب بتحقيق العدالة للفلسطينيين، لأن العدالة لا تتجزأ.

الاستقرار:

إن الاستقرار هو حجر الزاوية فى النظام العالمى الجديد، والاستقرار مبنى على العدل، فإن فُقد العدل، فُقد الاستقرار. والتعايش بين الشعوب لابد أن يرسخ على قاعدة احترام الآخرين، والدروس التى خرج بها العالم من حرب تحرير الكويت من براثن نظام دكتاتورى بشع تصلح أن تُعمم. من

هذه الدروس أن القوة العمياء لا تُحقّق حقاً ولا تديم باطلاً، وأن استقلال الدول والشعوب هو أمر مقدس يجب ألا يتناول عليه أحد لأى سبب من الأسباب، وكذلك فإن حق الشعوب فى العيش فى أمان فى ظل احترام لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية هو أهم معالم طريق النظام الدولى الجديد.

ومهما كان طريق السلام طويلاً وشاقاً، فإنه يستحق كل العناء الذى يُبذل من أجله، لأن الخيارات الأخرى محدودة ونتائجها غير مضمونة وطريقها وعراً ملىء بالألم والجثث والتعصب والقهر والفقر، وليس أمامنا خيار إلا طريق السلام.



سنة التحرير..

وسنة البناء

فبراير ١٩٩١

فبراير ١٩٩٢

من لم يخض التجربة ويعرف الألم لا يستطيع أن يقدر، على وجه الدقة، الفرحة الكبرى التي تستقبلها الكويت هذا الشهر مواطنين ومقيمين، شعبا وشرعية، كبارا وصغارا، بمناسبة ذكرى حرب التحرير وعودة الكويت إلى أهلها، وعيدها الوطني الواحد والثلاثين. ففي مثل هذا الشهر من العام الماضي، وعلى وجه التحديد في السادس والعشرين منه، رفع علم الكويت الوطني على أرض الكويت، وعادت الكويت كما كانت حرة، بعد أن رسفت تحت ظلم الاحتلال لفترة زمنية تقارب السبعة أشهر تعد لدى الكويتيين وكأنها سنون طوال.

لا يعرف فرحة عودة الأوطان إلا من ابتلى بفقد الوطن، وحتى لفترة طرفة عين . ولقد ابتليت الكويت وأهلها في تلك الشهور السوداء بأفظع وأقسى ما يبتلى به شعب، لقد ظن النظام العراقي أن الباطل يمكن أن يصبح حقا بمجرد أن تنفخ أبواقه الدعائية بذلك، أو بمجرد أن يجد له مناصرين هنا وهناك يرفعون راية الظلم ويهتفون للغاصب، فجاء في ليل أسود بجحافل كثيرة العدد والعدة تحت دعاوى عديدة ليحتل في نهاية الأمر دولة الكويت الحرة المستقلة، ويطلق دعاواه واحدة تلو الأخرى للتمويه على مقاصده الشريرة. وكان النظام العراقي يعتقد أنه - عبر حملاته النفسية - يستطيع ترهيب العالم وتخويفه، كما اعتقد أنه - عبر المنتفعين بمغانمه

والصاغين لوعوده - يستطيع تحويل الرأى العام إلى صالحه، بل واعتقد أنه - عبر الاحتفاظ برهائن بشرية - يهدد العالم والشرعية الدولية، بل ويكف يدها عن أى فعل، وأخرج الحاوى كل ما فى جعبته من التهديد والتخويف والإرهاب، وقد فشلت كلها واحدة تلو الأخرى، وتحقق النصر المبين.

وعندما نتذكر تلك الأيام السوداء فإن العالم يقف مشدوها أمام أعمال نظام إرهابى استخدم أساليب الإرهاب بكل صورها وأشكالها دون رادع.

ولكن المأساة كانت تتجمع خيوطها فى داخل الكويت المنكوبة بالاحتلال.

لقد فرض ذاك الاحتلال على الكويت والكويتيين تعتيما إعلامياً بل لقد قال رئيسه دون حياء لإحدى شبكات التليفزيون العالمى: أنا لا أريدكم أن تذهبوا إلى الكويت لأنها ساحة معركة!!

وبالفعل كانت ساحة معركة، ولكن من نوع آخر، كانت ساحة معركة مقاومة شديدة الإيمان بالله وبوطنها الحر المستقل وبشرعيتها التى ارتضتها، فنظم الكويتيون أنفسهم أحسن تنظيم وتعاونوا أحسن تعاون.

بين المسجد والجمعية التعاونية :

نظم الكويتيون أنفسهم فى مناطق سكناهم بعفوية رائعة

لفتت نظر العدو قبل الصديق، وكان محور ذاك التنظيم الفذ،
المسجد والجمعية التعاونية المحلية.

ففى المساجد تجمع الكويتيون للصلاة خمس مرات فى
اليوم يتبادلون بعدها الأفكار والآراء والأخبار وخطط العمل.
ويطمئنون بعضهم على بعض، ويتفقون المريض والمحتاج
ويشدون أزر بعضهم بعضا ويؤكدون إيمانهم بالنصر بفضل
الله وبفضل تكاتفهم ووقوف الخيرين مع قضيتهم فى كل
مكان.

وأخذت الجمعية التعاونية المحلية دورا فى التنظيم المعاشى
لأهل الحى، فتدفق إليها الشباب يحملون البضائع إلى
ال منازل، ويقسمون ما لديهم من مئونة على المحتاجين ويوزعون
الأدوية على المرضى، يخبزون ويوزعون الماء ويطمسون أرقام
الشوارع وأسماءها ويحملون الموتى إلى المقابر، وهم قبل ذلك
وبعده يتناقلون الأخبار التى تأتئهم من الخارج ويدعمون روح
المقاومة السلبية والإيجابية لدى بعضهم البعض.

من هذا التنظيم التلقائى العفوى الرائع نمت روح المقاومة
الكويتية الصلبة للمحتل، ومنها أيضا خرجت كتائب المقاومة
العسكرية والمعلوماتية، فكانت الأولى تقوم بالمقاومة الإيجابية،
تتبع جنود المحتل وتصطادهم فرادى وجماعات، ونشط
آخرون فى كتابة البيانات وتوزيعها من أجل المعلومات وشد
الأزر والتواصى بالصبر والحيطة.

دعم كل ذلك خطة منسقة تولتها الشرعية الكويتية وأولو الأمر في الطائف، ففتحت قنوات الإمداد المالى والمعنوى للأهل الرازحين تحت الاحتلال، وتكونت شبكة منسقة لتوزيع المال من الداخل والخارج لتصليب عود المقاومة ودعمها.

وصمدت حكومة الكويت فى الطائف بقيادة أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح، وولى العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح ومعهم كوكبة خيرة من إخوانهم تمتد سلسلتها من الطائف إلى الكويت، عبر مجموعات من الكويتيين والكويتيات البررة الذين ألوا على أنفسهم متابعة دعم مواطنيهم، مهما كانت المخاطرة عظيمة والتضحية شاملة، فالشأن جل ولا مناص من المقاومة.

وتدفق الكويتيون فى أماكن وجودهم خارج وطنهم من كان منهم هناك، ففاجأه الغزو الأسود وأبعده عن داره وأهله ومحبيه، أو من فرض عليه جنود الغزو وطغيانه العسكرى أن يهجر بلده مضطرا لسبب أو لآخر على رأسه الإرهاب المنظم. وكم كان الشعب الكويتى عظيما حيث تحمل أعباء جساما عجزت عن حملها شعوب أكثر منه عددا وعدة، تعرضت لأقل مما تعرض له من ظلم وعدوان.

تدفق الرجال والشباب والنساء فى المهاجر المؤقتة لينظموا أنفسهم أفضل تنظيم، وظهرت لجان (الكويت حرة) فى لندن

والرياض والمنامة والقاهرة وواشنطن والدوحة وأبوظبي
ودمشق وأماكن أخرى عديدة، كلها تنظم فى سلسلة مترابطة
متكاتفه وعلى لسانها هتاف واحد: «الكويت حرة» - «لا بديل
للشرعية» - «لا قبول أو تنازل للمحتل ولا حتى عن بوصة
مربعة واحدة من الأرض»، وقد ضرب أروع مثال للتضحية
والمقاومة بعد تحرير الكويت، فتوارى أولئك الشجعان الذين
كانوا العمود الفقري للمقاومة، وتواروا وراء صنيعهم العظيم
دون فخر ولا منة، وانخرطوا فى أعمالهم العادية دون ضجيج.
وذلك فعل إنسانى نادر يضع التضحية ونكران الذات
للوطن فى قمة أولوياته.

الثقة بالنصر:

وكانت القيادة الشرعية الكويتية مؤمنة بتحقيق النصر،
واثقة من قدرتها وشعبها على المقاومة، متأكدة من عودة الأهل
والأحباب إلى الالتئام فى يوم موعود وساعة محددة هى يوم
النصر وساعة رفع العلم الكويتى وعودة الشرعية، معتمدة
على أشقاء وأصدقاء صدقوا الوعد وصمموا على المساندة،
فبدأت الشرعية الكويتية منذ الساعات الأولى للاحتلال فى
التنظيم والاتصال وتهيئة الأمور السياسية والاقتصادية
للشعب الكويتى، وكان أن قدمت المملكة العربية السعودية
ودول الخليج ومصر وسوريا الدعم الواضح الأكيد لقضية

الحق منذ اللحظات الأولى، وحملت الأولى عبء التصدي الإيجابي، فعلى أرضها تجمع العالم بقواته الدولية، ومن خلالها سمع العالم صوت الشجب والرفض، وتكاثفت الجهود الخيرة كلها لتدفع الظلم والظلمات عن أرض وشعب الكويت.

وقام أمير الكويت بعد أقل من شهرين من الاحتلال بجولة واسعة في أنحاء العالم بدأها مخاطبا العالم كله على أعلى منبر دولي في الأمم المتحدة، شارحا هول المصاب ووحشية المعتدى وفداحة العمل الذي قام به، وخروجه على القانون الدولي والمعاهدات الإقليمية والقيم السياسية والأخلاقية والدينية.

وانتقل أمير الكويت إلى لندن وباريس ثم إلى بكين، مخاطبا العالم وضميره الحي، شارحا بكل التفاصيل والوثائق قضية الكويت.

كما قام ولي العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح بجولة عربية مخاطبا الإخوة العرب طالبا تفهمهم وعونهم.

ثم استقر الرأي بعد ذلك - ومن أجل إيصال صوت الشعب الكويتي إلى العالم - على دعوة قطاع واسع من الكويتيين في الخارج لمؤتمر شعبي موسع تضافرت فيه الجهود باتجاهين: الأول رفض قاطع للاحتلال ونتائجه ودعم للشرعية والشعب.

والاتجاه الثانى هو التصميم على بناء دولة ومجتمع حديث بعد التحرير قوامه العقيدة السمحاء والعروبة الصافية وحقوق الإنسان الحر يُرفع فيه ميزان العدل والمساواة والشورى، وكان ذاك التجمع الكبير والديمقراطى حجر زاوية فى انطلاقة شعبية جديدة، فطافت اللجان الشعبية الكويتية المنبثقة من ذاك المؤتمر بدول عربية وأجنبية، على الرغم من أن بعض هذه الدول كان له مواقف سلبية تجاه القضية الكويتية برمتها، ولكن كانت الحكمة تدعو للمحاولة الجادة فى المحاورة على المستوى الشعبى لتحديد المواقف وجلى الغموض.

ولم يكن الموقف الرسمى لهذه الدول - خاصة العربية - مثار عقبة فى عدم الإقدام على الحوار الشعبى.

هكذا كانت حكمة الشعب الكويتى بعيدة النظر. ولقد استقبلت هذه الوفود استقبالا حارا فى بعض البلدان، وفى بعضها الآخر ببرود يصل أحيانا إلى العداء والاستفزاز، إلا أن النهايات حققت القول المأثور أن للباطل جولة وللحق جولات.

التحرير :

لقد لاحت بشائر النصر بدءا من الطلقة الأولى فى الحرب الجوية - وبدأ الحق يأخذ طريقه ليبيد الظلام، وتكثلت جهود العالم فى الوقوف أمام شرعية الغاب التى أرادها النظام

العراقي أن تسود، ووجه أمير البلاد كلمة إلى الشعب الكويتي، قال فيها (لقد كنا نعتز ونفخر بكم لما عانيتهم وتعانون من قتل وتعذيب واعتقال وتشريد من المحتل البغيض، ونحن جميعا نعيش معكم صباح مساء فى محنتكم ونشعر بما تشعرون، وبمشيئة الله فقد بدأت عملية تحرير أرضنا العزيزة من المعتدين الغاصبين، وسنلتقى إن شاء الله فى وطننا العزيز ليلتئم شمل الكويتيين فى وطنهم الكويت).

وهكذا كان، فبعد السادس والعشرين من فبراير الماضى عادت الشرعية الكويتية مكلفة بالنصر المبين، عادت إلى أرض الوطن، وعاد من كان خارج الكويت ليلتقى بالأحبة داخله، ولكن العودة كانت مؤلة وحزينة، فقد دمر العدو البنى التحتية وحرق آبار النفط وسرق كل ما وقع تحت يده من منقولات.

ولم يكن التحرير ماديا، بمعنى دحر آلة العدو العسكرية وطرد جحافلها إلى خارج أرض الكويت فقط، بل كان معنويا أيضا، فقد انتصر المعدن الأصيل لشعب الكويت الذى قاسى أتون الحرب الملهبة والامها، فقد كان كيانه كله محورا لتلك الحرب.

الأشهر القليلة اللاحقة للتحرير كانت أشهرا عسرة، زاغت فيها بعض الأبصار هلعا وخوفا وتحوطا، إلا أن الكويت وأهلها كانوا مصممين على بدء مسيرة الإعمار بكل قوة،

وكانت قائمة الأولويات عديدة تبدأ عند توفير الخبز والماء، ولا تنتهى عند مشكلة إطفاء حوالى سبعمائة بئر فقط مشتعلة، تحيل نهار الكويت إلى ليل دامس، مروراً بمئات القضايا التى تحتاج إلى متابعة وحل.

وظهر معدن الشعب الكويتى من جديد وتصميم قيادته ليس إبان المحنة فقط بل فى مرحلة إعادة البناء والتصدى للمشكلات الكبرى التى واجهته معيشياً واقتصادياً.

وعندما تصمم قيادة مستنيرة وشعب قوى الشكيمة يكون التصدى لتحدى كل العقبات الضخمة أكبر وأعظم.

وكانت المهمة شاقة والآلام عميقة، كما كانت الآمال عريضة فى بناء مجتمع جديد متكافل.

وعادت الحياة الطبيعية من جديد إلى أرض الكويت، وفى وقت أقل بكثير مما قدر له حتى الخبراء، وكان رمز العودة والانتصار الداخلى هو إطفاء آبار النفط، التى شاركت فى عملياتها دول عديدة، بما فيها فريق كويتى مجاهد.

وكان يوم إطفاء آخر آبار النفط المحترقة، فى الأسبوع الأول من نوفمبر، هو يوم انتصار جديد للكويت وعلامة فارقة وواضحة لروح الاستجابة والتصميم التى تمسك بها الشعب وكرت سبحة المنجزات فى سرعة قياسية فى الداخل والخارج إنجازاً بعد إنجاز.

الرهائن :

رغم إنجاز التحرير والتعمير فإن الكويت - تأسيسا على تراثها القديم وهو العناية بالإنسان سواء أكان فردا أم مجموعة، والتزاما بمبادئ دينية وأخلاقية سامية - مازالت تحمل هاجس الرهائن الذين احتجزهم نظام بغداد، وقبض عليهم ظلما وعدوانا وهم فى وطنهم ونقلهم عنوة إلى سجونهم ومعتقلاته، لذلك فإنك اليوم فى الكويت لا تجد شارعاً أو مسكناً أو محلاً عاماً أو خاصاً إلا وعليه إشارة لهؤلاء الرهائن الكويتيين عند نظام بغداد، وتسمع دعاء (اللهم فك قيد أسراننا) على كل شفة.

وقد طاف أمير الكويت بالعالم مصحوباً ببعض أبناء الأسرى والمرتهنين فى إشارة واضحة إلى أن ابتلاءنا لم ينته بعد، ودعوتنا لكل الخيرين للضغط من أجل إطلاق المرتهنين مازالت قائمة.

وتمثل قضية الرهائن الكويتيين لدى نظام بغداد استثناء فى التوجه العالمى، الذى يحث على إنهاء الإرهاب بأشكاله المختلفة، وكان إطلاق الرهائن فى لبنان وغيرها مؤشرا مهما على أن عصر التهديد بالقوة، واختطاف الأمنيين قد ولى. وهذه القضية من جانب آخر تؤكد ولوغ نظام بغداد فى الممارسات المرفوضة دوليا وقانونيا وإنسانيا.

ويحاول ذلك النظام أن يجعل من قضية الأسرى والمرتهنين الكويتيين عنده ورقة للضغط والابتزاز، واحتفاظه بالرهائن يعنى ضمن ما يعنيه أن نظام بغداد يضرب صفحاً عن تطبيق قرارات مجلس الأمن الواضحة والصريحة، وهو أيضا يجرح نصوص اتفاقات وقف إطلاق النار

وفوق ذلك كله يعبر هذا التصرف غير الإنساني عن نظرة هذا النظام لحقوق الإنسان بل ولحياة الإنسان التي لا تعنى عنده شيئاً، لا لحياة مواطنيه ولا غيره.

والإصرار الكويتي على إبقاء قضية الرهائن الكويتيين حية عربياً ودولياً، يعنى ضمن ما يعنيه أيضا حرص الكويت على حياة الإنسان التي يجب أن تحفظ وتصان.

ولا يقترب عربي، أو قارئ للعربية، من موضوع الرهائن إلا ويضع في عقله وقلبه معاناة أبناء وزوجات وأهل هؤلاء الرهائن، الذين يسامون سوء العذاب ويحرمون من أدنى حقوق المدنية، يعذبون ويحرقون، تحقيقاً لروح التشفى عند نظام متعصب.

التحرك الكبير:

بين فبراير ١٩٩١ وفبراير ١٩٩٢ شهدت الكويت نشاطاً ضخماً على الصعيد المحلي الداخلي، وعلى الصعيد الخارجي، فالإنجازات التي تمت داخليا واضحة ومشاهدة.

وعلى الصعيد الدولي تم التحرك الواسع من قبل أمير الكويت فقام بزيارات بعد التحرير إلى واشنطن والأمم المتحدة ولندن وباريس وبكين وموسكو وروما. بجانب دول الخليج العربية وكل من دمشق والقاهرة لحمل شكر الكويت حكومة وشعباً على المواقف الصلبة والمبدئية، التي وقفتها هذه الدول بجانب الحق الكويتي.

وما أن سلمت الكويت رئاسة المؤتمر الإسلامي في دكا إلى عبده ضيوف رئيس الجمهورية السنغالية في ديسمبر الماضي حتى تسلمت في الشهر نفسه رئاسة مؤتمر القمة الخليجي الثاني عشر الذي عقد في الكويت في الشهر نفسه، والذي كان عقده في حد ذاته اختباراً للإرادة الكويتية، تنظيمياً وأمنياً ونتائج.

وقد تحدث جابر الأحمد في افتتاح المؤتمر فقال: (إن انعقاد هذه القمة على أرض الكويت، وفي هذه الأونة بعد التحرير، يفصح عن مضامين عديدة من الوحدة بين بلداننا وشعوبنا، والروابط التي تربط بينها وبين أصولها العربية وانتمائها الإسلامي).

وأضاف :

(ولا يخالجنى أدنى شك في أنكم جميعاً تشعرون معي بأننا أمام معطيات جديدة كل الجدة، تولدت عن العدوان، وكانت

لها آثارها المباشرة على شعوبنا الخليجية التي مثلت بؤرة الأحداث، ومن ثم فهي تتطلع إلى أن ترى جديدا تؤمن به حاضرها، وتثق من خلاله في مستقبلها).

ولقد تمخضت القمة لدول الخليج العربي عن قرارات عديدة على المستوى الإقليمي والعربي والدولي، كلها تصب في دعم النظام الدولي الجديد وإقامة نظام عربي مبنى على العدالة والتعاون والواقعية. ونائيا عن الشعارات التي ضللت الجماهير وما زال بعضها يفعل.

المواقف المضادة :

وفي الوقت الذي تحتفل فيه الكويت بالعيد الأول للتحرير ما زال الألم يعتصرنا من جراء مواقف بعض العرب الذين وقفوا بوضوح وبدون خجل مع المعتدى، وبرروا تصرفاته، بل وحاول بعضهم فلسفتها وبيعها للجماهير.

وقد قامت حركات سياسية منظمة باتخاذ هذا الموقف، مبررة موقفها بالوقوف أمام (الأجنبي)، وحقيقتها أنها تريد تصفية حسابات داخلية عميقة في بلدانها. وقد اتخذ بعضها موقف التأييد للعدوان وتهيج الرأي العام في بلادها كمنطلق حسبه لإضعاف النظام الذي تعيش في ظله.

وسقطت بسرعة لافتة الوقوف (ضد الأجنبي)، عندما دعت تلك الحركات السياسية إلى إرسال متطوعين والتبرع بالدم

وإرسال الدعم المادى للنظام المعتدى. الحسرة تكمن فى أن الكويت منذ أن تبوأَت مكانها فى المجال العربى والدولى دائبة الدعم والنصرة لكل ما هو خير وطيب ويعود بالنفع على الشعوب العربية والإسلامية.

لقد كان خطاب هذه الجماعات السياسية إلى الجمهور العربى خطابا عاطفيا مثيرا للغرائز الأولى دون تمحيص وتدقيق، وقد كان خطابا تغيب فيه العقلانية وتهتز القيم ويحول الصعاليك فيه إلى أبطال.

وتطرح قضية احتلال الكويت وتحريرها من هذا المنطلق أسئلة عميقة وشائكة حول الوعى السياسى العربى الحاضر، وفيما إذا كان قادرا على تجاوز الإثارة والتضليل وتلوين المعلومات.

عيد التحرير:

ويطل علينا العيد الأول للتحرير آخر هذا الشهر. والكويت تعود أفضل مما كانت، فقد صهرت أهلها المحنة وطهرتهم نار الحرب من أدران السلبات السابقة، وولدت من جديد بلدا حرا وشعبا يتطلع إلى مسيرة يسودها العدل والحرية. وطننا يقدم الجهود ولا يبخل، ويقدم التضحية ولا يفخر، ويواصل دعم الحق ولا يخشى، فقضايا العرب عديدة، وقضايا المسلمين كثيرة. والكويت، على الرغم من الجراح والمحنة، هى كويت العرب والإسلام.



فَتَسَامِعُ

وَلَا تُنْسِي

الهول المفاجيء الذى اجتاح الكويت وأهلها فى صبيحة
الثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠ هـ لايمكن أن يوصف
بكلمات ولا تستطيع إلا العقول المريضة أن تجد له مبررا .
الهول ذاك كان فى الدوافع والمقدمات والأفعال والنتائج،
حمل العالم كله على كف الخطر والمخاطرة، وسيبقى تاريخ
العرب الحديث، يبحث عن جذور هذا الحدث الأعظم، يقدم
التأويلات ويبحث عن الأسباب ويجدُ فى سبب التفسير لهذه
الكارثة التى تسبب فيها النظام العراقى، فكانت وبالا على
العرب وعلى العالم أجمع ودفع ثمنها من أهلنا ضحايا
مازالت قبورهم طرية .

قلنا إنه كارثة لأنه لم يحدث فى السابق - وليس من أحد
منا إلا وقد قرأ التاريخ - أن عرف العالم له مثيلا، اعتداء أثيم
من دولة عربية قدم لها العرب وقدمت لها الكويت على وجه
الخصوص، كل عون فى ساعة العسرة، ينقلب حكامها
على ذلك المعروف، وعلى قيم وقواعد القوانين الدولية، وعلى
كل المواثيق العربية المكتوبة أو المتعارف عليها فتشن حملة
احتلال دون إنذار على بلد آمن، وبمبررات تافهة صغيرة،
ويعيث جيشها فى الأرض فسادا، وعلى مدى سبعة أشهر
فى كل يوم وليلة يقتل الأطفال والنساء والرجال، كبارا
وصغارا، لا لذنوب جنوه إلا لحبهم لأرضهم وبلدهم، ونظامهم

الذى ارتضوه

نتائج هذه الكارثة مازالت تنزف المأ وحسرةً وناراً في القلوب وليس فقط في آبار النفط المحترقة، وهى إهدار غير مسبوق لثروة وطنية، وتدمير غير مسبوق للبيئة العالمية.

المبررات والادعاءات التى ساقها النظام العراقى فى الطريق إلى الكارثة مبررات هى أكثر هشاشة من أن تعاد على مسامع الأذكياء من الناس، وقد تم تنفيذها فى أكثر من مكان، ولكن الأهم من ذلك أن كل المبررات التى ساقها النظام العراقى محاولاً تبرير فعلته الشنيعة رجع بعد ذلك وسحبها هو نفسه، واحدة بعد أخرى، إما عن طريق تصريحات مضادة أو على شكل أفعال حقيقية على أرض الواقع، وذاك ما يكشف عن مدى العبث والخفة وغياب المسؤولية فى نظام يفترض فيه أنه جزء من المنظومة الدولية.

لقد كانت النيات مبيتة والدوافع الراقية للعدوان جاهزة، وقد ظهرت بالتلميح تارة، وبالتصريح تارة أخرى.

الهدف كان التوسع العراقى، والدافع كان هو الفشل الذريع فى الحروب التى خاضها ذاك النظام، والفشل فى التنمية التى وعد بتحقيقها، إن هدف التوسع لدينا عليه شواهد وشواهد، منها هذه القصة، فقد سرد رئيس النظام العراقى

قبل أشهر من الغزو الآثم لأحد كبار المسؤولين في إحدى الدول الخليجية قصة فحواها، أن إمبراطورا ضاق ذرعا بالدول الصغيرة المحيطة به، فقرر أن يغزوها ويضمها إلى مملكته، وأمر قائد جيشه بتنفيذ ذلك، وقد تم، وعندما رجع قائد الجيش، سأل الإمبراطور: هل ضممتم بابل أيضا؟ فنفى القائد ذلك، فقال له الإمبراطور: عليكم ببابل فهي مفتاح إمبراطوريتي.

وعندما انتهى رئيس النظام العراقي من سرد تلك القصة، سأل ضيفه الكبير من تلك الدولة الخليجية العربية: هل تعرف من هي بابل في عصرنا الحديث؟ وعندما أجاب الضيف بالنفى قال له: إنها النفط!

ذكرني محدثي الكبير بتلك القصة بعد الغزو العراقي للكويت، وهو يقول: «لم يتبادر إلى ذهني قط أن هذا النظام ورئيسه الذي وثقنا به وقدمنا له كل ما نستطيع من دعم كان يريد اجتثاثنا جميعا».

ولم تكن نوايا النظام العراقي في السيطرة والتوسع تتوقف عند حدود الكويت وحدها، وقد ثبت ذلك بالنية وثبت بالدليل القاطع، فقد ترك الجيش العراقي الغازي من ضمن ما ترك عددا كبيرا من الوثائق والمستندات، من بينها شريط مسجل

للقاء تم بين رئيس النظام العراقي وضباطه الذين كانوا في الكويت، وتاريخ ذاك الشريط هو النصف الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٠، ولقد حمل هذا الشريط الذي وزع على نطاق واسع بعد التحرير إشارات أكيدة تبين نية التوسع العراقى تجاه المملكة العربية السعودية، كما أن رسالة صدام حسين التى كشفت عنها القيادة الإيرانية لا تترك مجالاً للشك فى أن «بابل» كانت تضم كل دول الخليج العربية.

فإذا كان ذلك هو الهدف فما هى الدوافع؟..

دوافع العدوان :

أما دوافع ذاك العمل المشين، وهو غزو الكويت، وتشريد أهلها، فقد كان الفشل الذريع فى حروب النظام العراقى، والفشل الذريع فى تحقيق أى نوع من التنمية التى كان يريها المواطن العراقى المقهور. لقد انتهت الحرب العراقية الإيرانية دون أن يحقق النظام العراقى ما يريده من تلك الحرب، على الرغم مما دفع فيها من ثمن باهظ بشرى ومادى خلف عشرات الآلاف من القتلى والمعاقين وترك خزينة العراق خاوية من جراء الصرف العبثى على مشاريع تسليح وهمية وحوالى مليون مجند فى الجيش، وكان أمام النظام - والعالم - يشهد انهيار الديكتاتورية فى أوروبا الشرقية، وتفكك الاتحاد

السوفييتي - كان عليه إما أن يسير نحو التعددية وإعطاء حقوق سياسية أكبر للشعب العراقي وإيجاد سبل العمل الشريف والمنتج لمئات الآلاف من المسرحيين من جيش لم يعد في حاجة إليه، أو المخاطرة بسقوط النظام واهترائه من الداخل إن لم يفعل ذلك، ولكن النظام العراقي اختار طريقاً ثالثاً هو طريق المغامرة - وهي من سماته الأساسية - فكان غزو الكويت، لعل ذلك في نظره يخفف من الضغوط الداخلية، ويغري الشعب العراقي، الذي غرر بمعظمه الإعلام اليومي المنظم القائم على تعظيم وتأييد لشخص الرئيس وتزيين صورته بمشاريع الضم والعدوان.

لا أستطيع أن أقول «لا» :

الحوادث والمؤشرات كثيرة ومتتابعة، وما فعلته القوات العراقية بالأمين من الكويتيين تعجز الأقلام عن وصفه، ولكنني أستسمح القارئ قليلاً لعرض وثيقة وصلت إلى يدي من بين مئات الوثائق التي تركتها القوات الغازية عند انسحابها على عجل من الكويت، هذه الوثيقة طريفة وجديدة، ولم تنشر أو يشر إليها أحد من قبل، وهي عبارة عن يوميات ضابط عراقي في الكويت كتبها في الخفاء في أجندة تركها - كما يبدو - خلفه بعد الانسحاب على عجل.

تقول هذه الوثيقة من ضمن ما تقول وأنا أثبتها هنا حرقيا:
(اليوم الاثنين المصادف ١٠/٩/١٩٩٠ الساعة الثانية عشرة
منتصف الليل، بعد قراعتي رواية «أنا لا أحب الغربية أبدا»
راودتني كتابة بعض الكلمات التي ينبغي على كتابتها وأنا في
بلد غريب، بلد جميل كل ما فيه منظم، بلد يعتز أهله بوطنيتهم
وأرضهم، كنت أفكر أن هذا البلد قد انتهى وقد دمر، ولكن
رغم كل الأحداث، وكل الأعمال الوحشية التي قام بها الكثير
من المتخلفين الذين لا يفهمون ولا يدركون، إنهم ناس لا عقول
لهم ولا ضمير لهم ولا روح لهم، إنهم وحوش كاسرة، وحوش
لا تعرف معنى الإنسان ومما خلق، وأنا أقول إن هؤلاء ليس
ذنبهم إنه ذنب التاريخ وذنب الطبيعة المتوحشة التي تربوا
(عليها). هل أنا أنتمى لهذا الشعب الشقي الذي عرف
بطبيعته وكرمه، بلد فيها النهرين اللذان لا يخلان على أبنائه،
كنت أسائل نفسي وأنا أقف على أعتاب الكثير من البيوت
(في الكويت) والأطلال المدمرة والمنهوبة - أجلس في الغربية
وأأمل كل ما حولى وأنا أنظر إلى غرفة مليئة بألعاب الأطفال
المكسورة والمطروحة أرضا . أنظر إليها وأحس أنها تقول لماذا
دمرونى ولماذا فعلوا بى هذا، هل هى عدالة الأرض التى
وضعها الإسلام لهذه الأمة، كيف أنظر إليها ولا أستطيع أن

أقول حتى مع نفسى : لا؟).

هذا مقتطف مطول من صفحة واحدة فقط من يوميات ذاك الضابط العراقى فى الكويت، نقلتها كما هى دون تحوير أو تغيير حتى للأخطاء اللغوية، كى تقف شاهدا تاريخيا وعلى لسان ذاك الضابط فى الأرض الغربية عليه التى يعترف فيها أنه لا يستطيع أن يقول حيال التدمير الذى رآه كلمة «لا».

المقدمات:

لقد كان فعل الغزو والاحتياح والتخريب دراميا من مبدئه إلى نهايته، فقد بدأت الشرارة المباشرة بمجموعة من التصريحات والإشارات، ففى منتصف يوليو (تموز) ١٩٩٠ ذهب وفد شعبى كويتى «ليهنى» الدولة الشقيقة بعيد الثورة! فإذا به يفاجأ بأن وزير الإعلام العراقى السابق يستدعيه ويصب جام غضبه عليه - وهو الزائر - فى حديث قاس ومؤلم هدد فى نهايته باستخدام الكيماويات والصواريخ بعيدة المدى، وقال إن (الكاكى) مازال معلقا فى مكتبه - إشارة إلى استعدادة لخوض حرب ضد الكويت - وهذا النوع الصبباني من الإشارات استمر من رأس النظام إلى أصغر مسئول فيه طيلة الأسابيع اللاحقة. ولقد انصبت تلك التلميحات والتصريحات العراقية فى مسرحية سياسية غير مسبوقة على

ادعاءات عراقية على الكويت، ملخصة في جملتها قصة الذئب والحمل المعروفة، فعندما اتهم الذئب الحمل عدة اتهامات عرف أنها غير موضوعية قال له الذئب في نهاية الأمر إنى عزمت أن أفترسك لأنك عكرت على مياه النهر الجارى (!)، فكان الغزو.

باكورة المذكرات المشبعة بالتهديد هي مذكرة طارق حنا عزيز بتاريخ ١٩٩٠/٧/١٥ والتي وجهها إلى الأمين العام للجامعة العربية، وهي مذكرة طويلة ذات ديباجة كلامية سمجة، اتهم فيها الكويت بأنها (استغلت انشغال العراق كى تنفذ مخططا فى تصعيد وتيرة الزحف التدريجى والمبرمج باتجاه أرض العراق فصارت تقيم المنشآت العسكرية والمخافر والمنشآت النفطية والمزارع على أرض العراق) كما اتهمت المذكرة الكويت بأنها (تسرق النفط العراقى) فقد ادعت أن الكويت (قد نصبت فى الأراضى العراقية - مستغلة ظروف الحرب مع إيران - منشآت نفطية على الجزء الجنوبى من حقل الرميلة العراقى (!) وصارت تسحب النفط منه).

ثم أضافت المذكرة أن أسعار النفط المتدنية فى الأسواق العالمية سببها الكويت والإمارات، أما المساعدات التى قدمتها الكويت للعراق فهي مساعدات (لمعركة قومية تولى فيها

العراق الدفاع عن البوابة الشرقية)!

وقد تنازل النظام العراقي بعد أشهر قليلة عن كل ادعاءات له فى (البوابة الشرقية)!

كانت روح تلك المذكرة استفزازية إلى أبعد درجات الاستفزاز، وكان ظاهرها محاولة لخلق أسباب العدوان وإثارة الموضوع بحجم أكبر بكثير من حجمه الحقيقى.

وتدور الأيام وتقع الكارثة ويتم التحرير وتأتى لجنة محايدة من الأمم المتحدة لترسم الحدود بين العراق والكويت على أساس الاتفاقات والمعاهدات الدولية الموقعة بين البلدين، وتكتشف هذه اللجنة أن جزءا كبيرا من الأراضى الكويتية كان تحت السيطرة العراقية، بل إن مطارا عسكريا كبيرا دخل فى الحدود الدولية الكويتية لصالح الكويت وكذلك عدد من المنشآت والآبار النفطية، وأقرت اللجنة الدولية المحايدة كل ذلك كجزء من الأراضى الكويتية، بمن فيها العضو العراقى المسمى رسميا من نظامه. إحدى القواعد التى اعتمدت عليها اللجنة، بجانب الرسائل المتبادلة بين حكام الكويت والأنظمة العراقية المختلفة والاتفاقيات الموقعة بين الدولتين، خرائط قدمها العراق إلى عصبة الأمم عندما قدم أوراقه للانضمام إليها اعترف فيها بحدوده الجنوبية مع الكويت.

إذن فإن مخطط الزحف التدريجي والمبرمج كان من جانب العراق لا الكويت، وهو منسجم مع منطق الأشياء، إلا أن الادعاءات الكاذبة، والفُجْرَ الصريح كان وما زال من شيمة النظام العراقي.

تلك المذكرة تبعثها مذكرة أخرى في ٢١ يوليو (تموز) ١٩٩٠ وأيضاً للأمين العام للجامعة العربية وكانت كسابقتها وعلى السياق نفسه استفزازية، ترد بلهجة عدائية على المذكرة التي بعثتها الكويت استجابة للمذكرة الأولى، وكانت كما هو متوقع إصراراً من الجانب العراقي على تصعيد الموقف إلى درجة الانفجار.

الكارثة:

جيلنا الحالي في الكويت بل والجيل العربي كله سيظل يذكر غزو العراق للكويت بكل تفاصيله، وسيذكر الكل أين كان صبيحة يوم الخميس الأسود الثاني من أغسطس (آب) ١٩٩٠، وسيذكر مسيرة السبعة أشهر الصعبة بين يوم الاحتلال ويوم التحرير في ٢٦ فبراير (شباط) ١٩٩١، سيذكر المعاناة والبطش والتنكيل والإرهاب والملاحقة والقتل، ونادراً ما تعرض شعب لمثل هذه المعاناة الهائلة وفي هذا الوقت القصير من جار إنتمنه وركن إليه، كما تعرض شعب الكويت.

عيون النساء والأطفال والدمعة حائرة فى مآقيهم من هول المفاجأة سأظل أذكرها بتفاصيلها، رجال مقعدون على كراسيهم يشاركون فى مسيرات دعت إليها اللجان الشعبية الكويتية فى القاهرة ولندن والرياض وأماكن أخرى كثيرة احتجاجا واستنكارا للغزو. شهادات عن التعذيب والقمع يسردها أهلنا أمام لجان الكونغرس الأمريكى وأمام العالم أجمع، مسئولونا الكويتيون وهم يتنقلون بين مدينة ومدينة، وبلد وبلد، متابعين القرارات الدولية.

ضياح وحيرة وتشرد فى المنفى الذى كان يبدو للبعض ليلا ليس له آخر. المخاطرة التى تحملها أهلنا فى داخل الكويت وهم يقاومون بأشكال مختلفة من المقاومة، بما فيها العصيان المدنى الذى كان أوسعها انتشارا، أنت متهم لأنك كويتى، لأنك مواطن، تتابعك عيون الجيش والمخابرات العراقية، لا يغفوك جفن وأنت فى منزلك، لا لأنك خائف على نفسك، ولكن لأنك لا تعرف متى يطرقون الباب عليك كى ينتزعوا من دفء بيتك فتاتك اليافعة، أو ابنك الشاب. لقد كان الموت - نعم الموت - أعذب وأحب إلى كثيرين من ذاك العذاب المقيم، رعب وإرهاب واغتصاب. كان مجرد وجود صورة الأمير - رمز الدولة - أو ولى العهد أو علم الكويت فى بيتك يعنى الإعدام دون مسألة.

كان الجلادون يدخلون اى مؤسسة عامة أو بيت مصان ويفتعلون أى سبب، ويقتادون من قرروا تعذيبه إلى أقبيتهم وبعد أيام يصلبونه، وهو على الرmq الأخير، أمام منزله أو منزلها، ويطلقون عليه أو عليها الرصاص. مرّ أب، وهو ذاهب يصلى العشاء، على جثة فلم يتبين أنها لفلذة كبده إلا بعد أن عاد من الصلاة، وشك فى الأمر، ثم غسل وجه الجثة بالماء لإزالة الدماء التى غطته، فظهر له وجه ابنه الذى اقتاده القتلة منذ أيام بعيدة عن المنزل، كان أتفه سبب يدعو إلى الإعدام، وسارت كوكبة طويلة من الشهداء رجالا ونساء وفتيات فى عمر الزهور وشبابا غضا، إلى بارئها فداء لوطنها.

وعندما شعر المحتل بقرب خروجه من الكويت التى استعصت عليه، أطلق زبانيته فى شوارعها يجمع كل من كان فيها لسبب أو لآخر ويختطفهم، بل وقفت الشاحنات أمام المساجد تتلقف المصلين فى يوم جمعة لأخذهم أسرى ومعتقلين، ومازال المئات منهم هناك رهائن وراء سجون النظام العراقى، الذى يرفض حتى التبليغ عن أسمائهم وعددهم للمنظمات الإنسانية الدولية.

دفن الشهداء فى مقابر جماعية بلا اسم ولا هوية ولا حتى شعائر، ومات العشرات فى هجير الصحراء فى الأسابيع

الأولى هربا من الجحيم، ومات الرضع عطشا بين أيدي أمهاتهم عندما ضلت عشرات السيارات طريقها في الصحراء متجهة إلى المملكة العربية السعودية.

على شاكلته :

كان المحتلون - مثل صدام نفسه - لا تعرف قلوبهم الشفقة أو الرحمة، وكم كان مثيرا للاشمئزاز ومروعا أن يفتال العربى أخاه العربى، دون سبب يذكر إلا الجشع وحب التوسع، لقد شهدت مستشفيات الكويت وبيوتها وشوارعها ضحايا التعذيب وتنفيذ أحكام الإعدام الفورية، إلا أن وحشية ذلك الاحتلال لم توهن عزيمة أهل الكويت، ولا رغبتهم العارمة فى التحرر من كابوسه، وعلى الرغم من قوة الجيش العراقى ومخابراته وأساليبه فى التصفية والملاحقة، المستمدة من أعتى مدارس الإرهاب التى راكمت خبرتها لسنوات طويلة فى العراق نفسه حتى ما عاد المواطن العراقى العادى يستطيع أن يستخدم كلمة لا! وعلى الرغم من كل ذلك فقد هب الكويتيون والكويتيات لنجدة وطنهم واستخدموا طرقا شتى للمقاومة، فسيروا المسيرات على الطرقات ومفارق الشوارع، ولعبت النساء الكويتيات دورا فى توصيل الرسائل وتهريب المتفجرات، بل اقترحن مناطق تركز الأعداء بالسيارات

المفخخة، ونشطت جمعيات النفع العام، ونظمت اللجان الشعبية للتكافل، ووزع المال على الأسر الكويتية المحتاجة وغيرها من الأسر الصامدة، ونظم العمل في الجمعيات التعاونية، وعمل الكويتيون خبازين ومنظفي طرق وسواقين لسيارات القمامة، وعملت السيدات ممرضات، وساعدن الجهاز الطبي الصغير المكون من مجموعة كويتية صغيرة وإخوة عرب أبوا إلا أن يشاركوا الكويت صبرها ومقاومتها. ولم ينقطع اتصال الكويت بالخارج فقد استخدمت التقنية الحديثة، خاصة الهواتف المتنقلة عبر الأقمار الصناعية والمرتبطة بالكمبيوتر لتوصيل المعلومات من الخارج إلى الداخل ومن الداخل إلى الخارج، ووفرت وسائل الاتصال هذه المعلومات الدقيقة وصورا قريبة للواقع عن الداخل، ومكان تمرکز وحدات العدو حيث قدمت للحلفاء معلومات ذات قيمة استراتيجية عالية ساعدتهم في وضع خططهم الناجحة لتحرير الكويت.

وتجلد الشعب الكويتي بالفن أيضا، فقد شاعت بين الكويتيين أشرطة تفيض أغانيها عذوية بحب الوطن والتمسك بترابه، حتى صار المنشور والشريط في نظر الغازي كالبندقية والمدفع، ودفعت المقاومة الكويتية التي انتشرت في كل مكان

وجاءت من كل فئات المجتمع ومختلف مهنة ومستوياته، دفعت
ثمنا باهظا لموقفها الوطني، من التعذيب وحتى الموت
والشهادة.

وفى خارج الوطن نظم الكويتيون أنفسهم بشكل دقيق فى
لجان عديدة، وطفقوا يدعون لقضيتهم كل من يريد أن يسمع،
ويشرحون لكل من يريد أن يرى شطط المحتل بكل القيم
الإنسانية، ونشطت صحف الكويت فى القاهرة ولندن وجدة،
وتجمع الكويتيون فى الخارج فى مؤتمر شعبى موسع فى
منتصف أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٠ فى مدينة جدة، وأعلنوا
للعالم تمسكهم بشرعيتهم ووطنهم ووحدتهم وأهلهم فى
الداخل.

وقامت الحكومة الكويتية التى اتخذت لنفسها مقرا مؤقتا
فى الطائف بتنظيم أمور معيشة الكويتيين فى الداخل
والخارج، ومهمة الاتصال الدبلوماسى على أوسع نطاق بدول
العالم كافة فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان الإصرار
الكويتى على التحرير يهزم شيئا فشيئا شبح الديكتاتورية
والفوضى والاحتلال.

العسف العراقى :

لقد هاجم الاحتلال العراقى كل شىء فى الكويت، هاجم

المجتمع بأسره، بكل مؤسساته، فتمت سرقة ونهب المؤسسات العلمية والبنوك ودور الصحف والمتاحف والمدارس، حتى الكتب لم تسلم من السرقة المنظمة، وكان من المضحك المبكى أن يخرج التليفزيون العراقي على الناس بإعلان - بعد نهب إحدى المؤسسات - يقول فيه إن هذه المؤسسة قد (تبرعت) بموجوداتها إلى مؤسسة مشابهة في بغداد أو البصرة! لقد نهب العراقيون مجلة «العربي» وكان أرشيفها الغنى الذي جمع على امتداد خمس وثلاثين سنة فيه من الصور والمعلومات ما لا يقدر بثمن، ولقد نهب العراقيون موجودات المتحف الوطني الكويتي الذي جمعت موجوداته من أنحاء العالم وهي أيضا لا تقدر بثمن، كذلك موجودات جامعة الكويت ومعهد الأبحاث العلمية ومعهد التخطيط ودور الصحف وكل شيء له علاقة بالعلم والثقافة والحضارة، وأحرق الغزاة العراقيون المدارس والمستشفيات والمستوصفات الطبية ودور العبادة والمباني الحكومية ودور السكن الخاص، وخرّبوا مولدات الكهرباء ومحطات تنقية المياه، ومراكز شبكات الاتصالات الهاتفية، والمخازن العامة، والمصانع، والمحلات التجارية، ومباني المطار وحظائر الطائرات، وسرقوا الأغذية والذهب، وكل شيء استطاعوا وضع يدهم عليه، ولو استطاعوا طي الشوارع والبيوت ونقلها

إلى بغداد لما ترددوا فى ذلك.

لقد نهبوا المدينة ثم أشعلوا فيها النار، ولكن التدمير الأكبر هو الذى وقع على نفسية الإنسان الكويتى، الذى آمن بالعروبة وعمل من أجل أهدافها، وبذل لها الغالى والنفيس، وكان له دور عربى وإسلامى مميز، كان هذا هو التدمير الذى استهدفه الغازى، والشعب الكويتى مصمم على أن يفشل هذا الهدف كما فشلت كل أهداف الغزو.

جريمة العصر :

كانت قمة الجرائم، بل جريمة العصر، هى تفجير جنود صدام المتعمد لأكثر من ألف رأس من رؤوس آبار النفط عشية الانسحاب المهين للجيش الغازى، لقد بذل المهندسون والضباط والجنود العراقيون جل جهدهم فى تدمير منابع النفط، ومع أولى الصواعق التى تفجرت فى رؤوس آبار النفط شب أكبر حريق عرفته البشرية حتى الآن وستظل آثار الكارثة غير المسبوقة فى حجم التدمير فى التاريخ الإنسانى تذكر بهمجية وبربرية الغازى. لقد قام العراقيون فى الوقت نفسه بسرقة المعدات الضرورية للعمل فى حقول الآبار النفطية خاصة مهمات مقاومة الحرائق، ونشروا أعدادا ضخمة من الألغام حول حقول النفط، وتدفقت ملايين الأطنان من النفط الخام حول تلك الحقول فشككت بحيرات ضخمة تعرقل

وصول فرق الإطفاء لها .

لقد لوث هذا العمل التربة والمياه والهواء وتراكمت فى سماء الكويت وجيرانها طبقة كثيفة من الغيوم المكونة من الدخان وجزيئات الكربون حتى غدا النهار ليلاً، ووصلت هذه الملوثات إلى أماكن بعيدة حيث تساقطت ثلوج سوداء على سفوح جبال الهملايا . إن النيران التى أشعلها طاغية بغداد فى الكويت، كما تقول التقارير الدولية، هى من (أكثر الكوارث البيئية التى تسبب فيها الإنسان خطورة فى التاريخ) كما أن آثار هذا التدمير، على البيئة وعلى صحة الإنسان وعلى الحياة عموماً، خطيرة بمقدار ما هى مجهولة النتائج. لقد لوث - النظام العراقى - الجو والبحر والماء والتربة والإنسان، حاضراً ومستقبلاً، واستحق عن جدارة لقب «مجرم العصر» إن لم يكن مجرم كل العصور.

شعبنا يتعافى :

وعلى الرغم من هذه الكارثة وآثارها المدمرة، معنوا وماديا وبيئياً، فإن شعبنا - شعب الكويت - يتعافى، فلقد وقفت معه فى ساعة محنته شعوب شقيقة وحكومات ملتزمة بالمبادئ والقيم العليا، ورجال ونساء جهرؤا بالحق فى كل مكان، وهى ستة أشهر فقط تمر على يوم التحرير وتعود الكويت

تقريباً إلى سابق عهدها، نعم هي محملة بالألم ومثقلة بالجراح ولكنها أيضاً مليئة بالأمل مستبشرة بالمستقبل، فقد عانت ما لم يعانيه بلد في العصر الحديث، ومر شعبها بتجربة مريرة صهرته وأظهرت معدنه الأصيل، ولقد كانت إرادة المقاومة لدى الكويت والكويتيين منذ اللحظة الأولى إرادة صلبة، فقد وجه أمير الكويت كلمة إلى الشعب الكويتي بعد العدوان قال فيها «إذا كان العدوان قد تمكن من احتلال أرضنا فإنه لن يتمكن أبداً من احتلال عزيمتنا، وإذا كان المعتدون قد استولوا على مرافقنا ومنشأتنا العامة فإنهم لن يستطيعوا أبداً الاستيلاء على إرادتنا» وتم ذلك بالفعل.

بهذه الإرادة والعزيمة نهضت الكويت كطائر الفينيق من رمادها كي تكون أحلى وأعز وأجمل، وحتى تبقى شاهداً على بريرية نظام حمل أخط القيم وأرذلها، ولوث تاريخ البشرية بأبشع الجرائم.

ويقدم الكويتيون اليوم المثل الرائع على التسامح، فليس المهم البكاء على ما فات، الأهم من ذلك كله هو بناء دولة قائمة على العدل والتنمية والتسامح وبناء علاقات عربية جديدة قائمة على التعاون والعدل والتآزر، ونبذ الإرهاب.

والتسامح هو قيمة من قيم الإنسان الأساسية وهو قيمة

إسلامية عظيمة، وقيمة حضارية دائمة، وأن نتسامح يعنى أن
نغلب المحبة على الحقد، وأن نغزو مساحات الضياء فى
حياتنا على حساب مساحات الظلمة والظلام، وأن نساهم فى
البناء وفى نشر العمل الطيب فى جميع أرجاء أمتنا العربية
والإسلامية والعالم أجمع. ولكننا بالتأكيد نتسامح ولن ننسى،
لا نحن ولا أجيالنا القادمة ولا كل الخيرين فى العالم، الفعل
المتوحش الذى قام به النظام العراقى، ولن يهدأ للعالم بال إلا
بعد سقوطه وهو ليس ببعيد.



أربع سنوات مريّة
على أسرى الكويت..
بشر لا أرفقاء

فلأطلق عليها اسم «س...» لأن المأساة التي تعرضت لها والمهانات التي عانت منها لا تسمح لى بذكر اسمها الحقيقي. ولكن قصتها الحقيقية بكل تفاصيلها وإن قربت للخيال الجامح قد استولت على مشاعرى بعد أن سمعتها وأنا أستعد لخط هذه الكلمات، ربما لأنها تكشف عن الوجه القبيح المروع للأزمة التي نعانى منها جميعا حين يتحول البشر إلى أرقاء وحين يستفز المرء كل ما فى داخله من طاقات إنسانية ليحافظ فقط على وجوده كإنسان فى مواجهة العنف والإذلال.

«س» كانت فتاة فى بداية حياتها معلمة للأطفال مشرقة الوجه طافحة بالحيوية وفى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ لم تفعل أكثر من أنها تناولت حقيبتها وكراسات تلميذاتها وتوجهت إلى المدرسة التي تعمل بها. وفى وسط زحمة مرور الصباح كانت تعتقد أن الجندى الذى يتحكم فى حركة السيارات هو أحد رجال الشرطة الكويتيين . ولكنها فوجئت به يوجه السلاح نحوها. وليست تدري ما الذى أثاره فى منظرها فقد كانت ترتدى ثيابا بسيطة وحجابا يلف رأسها. لعلها نظرة البراءة والتساؤل فى عينيها هى التى أثارته ودفعته ليغرس فوهة بندقيته فى صدرها وهو يأمرها بالنزول..

كانت هناك حافلة «باص» تقف على جانب الطريق تمتلئ هى أيضا بأناس مذعورين من أجناس وأعمار مختلفة تم

القبض عليهم لأسباب لا يعرفونها.. موظفين ورجال عجائز وفتيات صغيرات مرتعدات مثلها - برغم الغيظ - من الخوف. وتوالى عمليات القبض العشوائية حتى امتلأ (الباص) عن آخره ثم سار بهم تحت حراسة الجنود المتجهمين إلى مقر القيادة فى أحد فنادق وسط المدينة. أنزلوهم وأنزلوها معهم فى الساحة الأمامية وصفوهم صفًا واحدًا وأمروهم أن يسيروا إلى الحائط ثم يستديروا جميعًا.. وسمعت أحدهم يصرخ فى هستيريا «إعدام..» وصكت أذنيها أصوات قعقة الأسلحة وهى تشرع... فتمتت بالشهادتين..

بدا الأمر كأنه مسرحية مرعبة لإثارة أكبر قدر من الفزع فى نفوسهم. فقد جاء ضابط عراقي فى اللحظة الأخيرة وأمر الجنود بتنحية أسلحتهم وأمر الأسرى بأن يعتدلوا. وأخيرا وجدت الدموع طريقها إلى عيني «س» لم تسمع ما قاله الضابط من كلمات إنشائية عن أنهم أخوة ولا عداوة بينهم أو مشاكل.. لم تفهم ماذا يعنى.. كل ما أحست به أنهم قد اختطفوا روحها فى هذه اللحظة.. فأصبحت جسدا بلا روح، تتحرك دون طاقة.

لم يفرجوا عنهم.. وقال الضابط إنهم سيطلقون سراحهم بعد ساعة على الأكثر ولكن الساعة استطالت إلى يوم كامل، بلا طعام ولا ماء. ثم جاءت سيارات ضخمة وحشروهم جميعا

وبدأت السيارات سيرها الطويل.. سير وسط الشوارع المضيئة ثم وسط الظلام الدامس. توقف أحيانا للتزود بالوقود وأحيانا للتأكد من أن الحمولة البشرية مازالت على حالها ثم معاودة للسير من جديد.. أدركت بغريزتها أن هذه الرحلة الطويلة قد حملتها خارج حدود بلدها الكويت وأنها الآن فوق أرض أخرى كانت حتى الأمس تعتبرها أرضا عربية شقيقة ولم تتأكد من صدق حدسها إلا فى اليوم التالى عندما توقفت السيارة أخيرا لتجد نفسها فى مدينة.. البصرة.

لم يكن هناك معنى لأن تحس بالتعب والإنهاك.. الموتى لا يحسون بأى شئ ولا يموتون إلا مرة واحدة، وهى قد ماتت فى ساحة الفندق. لم تبال حين فصلوها عن بقية المعتقلين ولم تبال بنظرات الضابط العراقى وهو يدور حولها ويتأمل جسدها.. سار الضابط ودفعها الجنود حتى تسير خلفه، حملتها سيارة أخرى صغيرة، وحدها هذه المرة دون معتقلين. لم تذهب إلى السجن، ذهبت إلى بيت الضابط الذى لم يكن يفترق كثيرا عن السجن فقد كان محاطا بالحراسة من كل جانب وأشار إليها أن تبدأ على الفور فى تنظيف البيت المتسخ. تحولت إلى خادمة.. وبدأت تمارس عملها الذى لم يقتصر على الطهو والغسل والتنظيف ولكنه امتد لأشياء أخرى مروعة.. كان جسدها يتعرض لإهانات يومية بمختلف

الوسائل هدفها الأساسى هو سحق روحها حتى لا تفكر فى أى خلاص.

لا تدرى كم يوما مر عليها وهى تدور فى هذه الحلقة الجهنمية. ولكن الذى كانت تقوم بخدمته وتتلقى إهاناته نقل إلى بغداد وأخذها معه. سيارة عسكرية أخرى حملتها عبر مسافات طويلة من الرمل والفراغ وصور الرئيس، وفى بغداد كانت أسرة الضابط وأولاده ولم تتحسن المعاملة كثيرا. بعض الإهانات الجسدية هى التى توقفت فقط، ولكنها ظلت خادمة، تمارس أعمالها فى صمت وبلا روح، وبدأوا يثقون فى أنها استسلمت لمصيرها فسمحوا لها بالخروج إلى السوق لشراء لوازم البيت وفى صحبتها أحد الجنود..

ثم بدت لحظة ضئيلة من الأمل ذات يوم. أحست فجأة بشهقة الحياة وهى فى طريقها للسوق والجندى خلفها حين لمحت الراية البيضاء المرسوم عليها صليب أحمر اللون. أدركت أنها قد رأت مبنى فرع اللجنة الدولية للصليب الأحمر. مبنى صغير ولكنه بالنسبة لها كان الملجأ الوحيد فى العالم الذى تتوق للوصول إليه. وبدأ ذهنها يعمل وأحاسيسها تتحرك للمرة الأولى منذ شهور طويلة، ولكنها أخفت كل هذه المشاعر وظلت تواصل رحلتها الرتيبة بنفس الدرجة من الكآبة.

ثم حانت اللحظة ذات يوم، كان الجندى قد تراخى قليلا عن

حراستها، اكتفى بأن يتركها تمارس الشراء وانشغل هو فى شرب «استكانة» شاي والحديث مع الباعة فأخذت تجرى.. وتجرى.. وضعت كل قوتها وكل الأمل وكل الخلاص فى ساقبها.. ولم تكتشف أنها مازالت تحمل كيس الخضروات إلا بعد أن اقتحمت الباب الأمامى للمبنى وارتمت أمام الموظفين الدوليين وهى تبكى وتهذى وتحكى حكايتها فى كلمات متقطعة وتكشف عن أماكن الجروح والحروق فى جسدها واحتضنها الموظفون وانتظرت أياما طويلة من المفاوضات حتى تتمكن قوة صغيرة من أخذها واجتياز الحدود وإعادتها إلى وطنها.

«س..» موجودة اليوم بيننا فى الكويت لا تريد أن تحكى قصتها علنا لأنها مثل عشرات من زميلاتنا انتهكت أعراضهن إبان الاحتلال، ويمثل لهن الأمر غصة يخفينها خلف دموعهن.

بشر منسيون :

هذه قصة واحدة واقعية من مئات القصص للبشر المنسيين الذين نطلق عليهم منذ أربع سنوات طوال: أسرى ومفقودى حرب تحرير الكويت، تلك القصص التى تحولت إلى مجرد أرقام فى قائمة الإحصاءات الدولية، وخبر مكرور من أخبار الصحف ومجال لحرب التصريحات والمساومات السياسية

والتصريحات المضادة والتسويق. من يصدق أن أربع سنوات كاملة قد مضت على قضية هؤلاء البشر المنسيين الذين لا يعرف أحد حتى الآن شيئاً محدداً عن مصيرهم..؟

أجدنى فجأة بعد مرور كل هذه السنوات أتحدث عن نفس القضية، ولا أدري هل أصبح إيقاع الزمن أسرع من أن أدركه بالوعى المباشر، أم أن الأيام والشهور قد أصبحت تنسرب من بين الأصابع كذرات الرمل، إن عدم الإحساس بالزمن يعود بالدرجة الأولى إلى أن الأحداث والقضايا التى تحتل حيز هذا الزمن لم تتغير كثيراً. التصريحات هى والمواقف هى هى كأن ذلك الكائن الهلامى المسمى بالزمن العربى يشيخ وهو فى مكانه.

لا أريد هنا أن أكرر كلمات قلتها فى السنوات السابقة ولا أن أقف هنيهة على أطلال ما حدث متظاهراً بالتطلع إلى المستقبل وأنا غارق فى اجترار الماضى. لقد كنت أتمنى أن أتحدث عن أزمة الخليج العاصفة - التى أودت بأخر آمال الجيل الذى أمثله - بوصفها تجربة خطيرة من تجارب التاريخ العربى مهما بلغت درجة مرارتها، بمعنى أن يتحول الجرح المفتوح إلى ملف مغلق يوضع فى أدراج الذاكرة، نستقى منه الذكرى وليس الألم، العبرة لا الوجد. ولكن الجرح هنا يأبى الالتئام، فالنفوس الإنسانية التى ألهمت نيران الحرب مازالت

تعانى. لقد رمم الكثير من آثار القصف سواء فى الكويت أو العراق. وتم إيقاف الجحيم الذى استعر من آبار النفط المدمرة. وحتى المقاطعة المفروضة على العراق قد تم اختراقها وبنيت عشرات القصور البانخة فى بغداد وحولها.. ولكن من يزيل آثار القصف من أرواح البشر؟ ومن يخلص البشر من سجون الاعتقال والذل، ومن يخلص أهليهم وذويهم من طول الانتظار؟

لقد سقط ذكر أسرى الكويت أو الضحايا المنسيين وسط دمدمة القوى العظمى وتحفزات السلاح وصيحات التهديد. ومازال هناك ٦٢٥ أسيرا فى السجون العراقية يرفض النظام الحاكم الاعتراف بوجودهم، وهو أسلوب مألوف قد اتبعه من قبل فى إنكار وجود الأسرى الإيرانيين.

وقد يبدو هذا العدد صغيرا لمن لا يعرفون الكويت ولا تعداد شعبها ولا روح التكافل التى تسود بين أفرادها. فهذه النسبة تصل إلى ٩,٦٪ من تعداد الشعب الكويتى الذى يقارب حوالى ٦٠٠ ألف نسمة . وتظهر فداحة هذه النسبة لو طبقناها بالمقارنة - على بلد عربى كبير العدد مثل مصر حيث نجد أن هذه النسبة فيها يمكن أن تصل إلى ٦٢ ألف نسمة. وإذا طبقناها على وطننا العربى الذى يبلغ تعداد سكانه ٢٣٠ مليوناً لوصل العدد إلى ٢٥٠ ألف أسير. وهكذا يمكننا أن

ندرك أن هذا العدد الذي قد يبدو صغيرا ظاهريا للبعض يمثل مأساة حقيقية لكل بيت كويتي تقريبا. وهى بيوت تعيش على حافة الأمل واليأس تنتظر عودة الآباء والأزواج والأبناء من الذين يلوحون لهم بمعلومات كاذبة أو مساع غامضة للإفراج عن الأسرى.

إن الأيام قد تفاقمت عليهم. والقصص التى تتناثر عن مصيرهم تثير الرعب. ومازال النظام العراقى مصرا على إنكار وجودهم برغم عشرات الشهود الذين رأوهم داخل السجون فى العراق، بالإضافة إلى الوثائق التى تركها العراقيون خلفهم.

ومعظم هؤلاء الأسرى ليسوا من العسكريين أو الذين شاركوا فى العمليات العسكرية كما قد يتبادر للذهن، ولكنهم أناس عاديون وجدوا فى المكان الخطأ فى اللحظة الخطأ فعندما كانت القوات العراقية تستعد للارتداد عن الكويت قامت بالقبض العشوائى على العشرات من المواطنين، من الشوارع والمساجد والأسواق، الأمر الذى وصفته مصادر الأمم المتحدة بأنه «أكبر عملية اختطاف فى التاريخ...» ويبدو أن هذا الأمر كان جزءا من سياسة الدروع البشرية التى كان النظام العراقى يخطط لها فيما لو حدث اقتحام لبغداد. ولكن مع توقف القتال عند حدوده فى الجنوب وبعد جهود مضنية

للووساطة قام بها الصليب الأحمر أعاد العراق بعض هؤلاء الأسرى سيرا على الأقدام من مدينة «صفوان» فى جنوب العراق، وأنكر وجود البعض الآخر. مرة يعترف بوجود ٤٩ أسيرا فقط ثم يعود ليسحب اعترافه. ومرة أخرى يعترف بـ ٥٦ أسيرا ثم يعاود المماطلة من جديد. كأن اللحم الإنسانى هو مادة صالحة للمساومة مهما كان نوع الصفقة. وكأن كل تلك العذابات تستأهل المناورات السياسية التى يقوم بها نظام لم يعترف بأى حق من حقوق الإنسان، لا بالنسبة لمواطنيه ولا لمواطنى الدول الأخرى.

ضد الاستعباد:

إن الحالة التى عرضتها بالتفصيل للأسيرة «س...» ليست فقط نموذجا لمحاولة تحويل البشر إلى أرقام، ولكنها محاولة لإيقاف التاريخ وإعادةه إلى الوراء فقد ناضلت البشرية طويلا عبر مئات من الحروب والمعاناة من أجل الحفاظ على حياة الأسرى وعلى آدميتهم من أن يتحولوا ليكونوا هدفا لكل عوامل البغض والكراهية ونزعات الانتقام التى تولدها الحروب. أى أن الرغبة فى الحفاظ على الأسرى وكرامتهم كانت محاولة من البشرية للارتقاء قليلا فوق رغبات التسلط الوحشية التى تصيب المنتصر، وعدوانية القهر التى يصاب بها المنهزم.. انتهى ذلك العصر الذى كان الأسرى فيه

يتحولون إلى أرقاء تحت رحمة الأسر يتصرف فيهم كما يشاء قتلا أو استعبادا أو بيعا. وفي زمن الجاهلية كان الأسير مجرد سلعة يتصرف فيها شيخ القبيلة، يختار منهم ما يريد ليعملوا في مراعيه أو يخصيهم قبل أن يدخلهم إلى نساءه، أو يبيع منهم من كان صالحا، ويقتل من يعتقد أنه ليس ذا فائدة. وواجه الإسلام مشكلة الأسرى مع أول غزوة قام بها الرسول الكريم في يوم «بدر» فقد وقع في يده عتاة قريش الذين ساموه وأتباعه العذاب. ولم يبادر بقتلهم ولكنه - على حد رواية الطبري - جلس بين أصحابه يشاورهم. فقال أبو بكر: هم بنو العشيرة نأخذ منهم فدية حتى تكون لنا قوة وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام.

وقال عمر بن الخطاب بحمسه وحزمه: بل تمكنا من رقابهم فإنها رقاب أئمة الكفر والشرك. ومال الرسول الكريم إلى الرأي الأول فأخذ الفدية، ومن لم يكن معه مال جعل فداءه أن يُعلم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة. وهكذا أصبح العفو والفداء هما القاعدة لا القتل والاسترقاق. ولكن الأمور لم تسر دائما على هذا المنوال. فما أقل الأتقياء وما أكثر الطغاة، خاصة إذا أخذوا سماتنا الشرقية المطلقة. فقد أعاد العثمانيون الأسرى إلى غنائم الحرب مرة أخرى وكانوا يأخذون الأطفال من المدن التي يفتحونها ويضعونهم في

مستوطنات خاصة بعيدا عن أهاليهم ويلقنونهم المبادئ العسكرية الصارمة لينشأ منهم جيل من المحاربين «الإنكشارية» الذين لا يعرفون الرحمة.

وفى القرون الوسطى شاعت الفدية خاصة بالنسبة للملوك، وكان جمع المبالغ الباهظة من الناس يتطلب وقتا طويلا، وأشهرها كانت فدية الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الذى وقع فى أسر صلاح الدين فى الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩م) وفدية الملك لويس التاسع الذى قام بغزو مصر وأسر فى المنصورة وظل يأخذ (علقة) يومية فى سجن ابن لقمان حتى دفعت الفدية، وأيضاً فدية جان لويون ملك فرنسا (١٣٥٠م) والذى وقع أسيرا خلال حرب المائة عام.

وفى القرن السابع عشر بدأ سن أول قوانين الحرب. وشرع القانون الهولندى هوجو جروشيوس قانونا يرى أن «باستطاعة الأسر أثناء الحرب استعباد الأسير ولكن دون أن يقتله». وفى عام ١٦٤٨ عقدت معاهدة «وستفاليا» التى نصت على «تحرير الأسير دون دفع فدية» وكان هذا أول تشريع دولى يحاول إنهاء ذلك النوع من الاستعباد الذى لازم البشرية منذ تاريخها. لقد أضاعت كتابات مونتسكيو وجان جاك روسو حول مفهوم حق الحرية بالنسبة للإنسان أيا كان نوعه أو وضعه وفتحت الطريق لعدد من المعاهدات الدولية على حسن

معاملة الأسير. وقد نصت معاهدة جنيف فى عام (١٩٢٩م) على «أن على الأسر أن يعامل الأسير كما يعامل جنده، وألا يرغم الأسرى على القيام بأعمال إلا وفق إرادتهم ومقابل أجر».

ولكن النازية الصاعدة لم تعترف بهذه الاتفاقية فأقامت أفران الغاز ومعسكرات التجميع القاسية وابتكرت أساليب التعذيب الجسدى وغسل الدماغ. وتفوقت إسرائيل عل النازيين فى هذا الأمر فقد مارست تعذيب الأسرى منذ وقت مبكر من إنشائها وظهر ذلك من خلال التحقيقات التى أجرتها اللجان الدولية منذ عام ١٩٤٨م.

لقد نصت آخر اتفاقية من هذا النوع وهى اتفاقية جنيف الثالثة الموقعة فى ١٢ أغسطس (١٩٤٩م) على اعتبار أسرى الحرب تابعين لسلطة الدولة الأسيرة وليس لسلطة الأفراد أو الوحدات العسكرية التى أسرتهم. وعلى هذه الدولة أن تعاملهم دون تمييز للون أو العنصر أو العقيدة الدينية أو السياسية، وألا تنزل بهم تعذيباً بدنياً أو معنوياً وألا تجردهم من شاراتهم ورتبهم وأن تتوافر فى معسكراتهم الشروط الصحية اللازمة وأن يقدم لهم الغذاء واللباس اللازمان وأن يكون لكل معسكر مستوصف طبى للعلاج، كما يحق للأسرى ممارسة نشاطهم الفكرى والثقافى والرياضى ويسمح لهم

بإرسال البطاقات البريدية وتسليمها ولكن تحت الرقابة. ويحاكم أسرى الحرب أمام المحاكم العسكرية فقط. ولا يجوز إصدار حكم على أسير دون إعطائه فرصة للدفاع عن نفسه والاستعانة بمحام أو بمستشار قانوني. ويفرج عن أسرى الحرب ويعادون إلى أوطانهم لدى وقف الأعمال العدائية. فأين النظام العراقي من كل هذه الحقوق الإنسانية؟
العائدون من الجحيم:

إن العائدين من عذابات المعتقلات العراقية لنا يقدمون لنا شهادات مروعة عن الظروف المأساوية التي يعيش فيها البشر الذين أوقعهم سوء الحظ في أيدي هذه السلطات، وبرغم اختلاف جنسياتهم فإن انطباعاتهم واحدة، والكلمات التي يصفون بها تجريبتهم البشعة تكاد تكون واحدة أيضا. فالرهينة الأمريكى كينيث بيتى الذى قضى فى السجون العراقية ٢٠٥ أيام بعد أن تم أسره داخل حدود الكويت يقول: «كان الطعام قذرا جدا، وبرغم شدة الجوع كنت أخشى تناوله خوفا من أن يضعوا لى السم فيه كما أخبرنى بعض الحراس بذلك» .

ويصف الأسير المصرى فتحى عبد الستار وهو آخر من عاد من السجون العراقية تجربة اعتقاله أو بالأحرى اختطافه من على الحدود الكويتية - العراقية بأن المحكمة الصورية التي

عقدت لمحاكمته بتهمة التجسس طالب الادعاء فيها بحبسه سبع سنوات فحكم القاضي بثمانى سنوات واقتيد إلى سجن أبى غريب الشهير حيث وضع وسط كل حثالات البشر وبلغ السجن من الازدحام أن كل سجين كان ينام طوال الليل على جنب واحد ولا يستطيع التقلب إلى الجنب الآخر.

ويصف المهندس أحمد العدسانى، وكان يشغل منصب وزير الكهرباء والماء فى الكويت بعد التحرير، فترة أسره فى معتقل البصرة بأنه كان فى عنبر مظلم هو و ٤٠٠ فرد من الكويتيين، كان من بينهم العجائز والصبية الصغار وتم حشرهم داخل هذا العنبر تحت وطأة القصف الجوى وأقفلت عليهم الأبواب لأيام طويلة بلا طعام ولا ماء اللهم إلا الماء الملىء بالأوحال وبقايا المطر.

ويحكى لنا الطبيب الكويتى بدر بورسلى، وهو متخصص فى الأمراض النفسية، عن الجنون الذى أصاب رجال النظام العراقى ورغبتهم العارمة فى تعذيب الأسرى، وهو يرى فى ذلك كله محصلة من التخلف الإنسانى أعراضها القسوة والغلظة وعدم احترام الإنسان. فبعد رحلة طويلة داخل المعتقلات قاساها هو وغيره من الأسرى من معتقلات الموصل.. إلى معتقل الرشيد فى بغداد إلى أن أعيدوا إلى الموصل مرة أخرى حيث البرد القارس. ولم تكن المعاملة

الطيبة للسجناء الكويتيين تتعدى حدود تبادل الكلام، بل إن إرادة الشر كانت مستمرة. فقد عرضوا على الدكتور بدر كميات كبيرة من أقراص «الفيالوم» ليهدى بها من روع السجناء الكويتيين معه. لكنه كان يعرف مخاطر إدمان هذا الدواء ويدرك النوايا الشريرة وراء هذا السخاء، لهذا كان يعمل على منع تدواله بين زملائه ويتحاشى وصفه لهم. ثم إن الطعام السيئ القليل، والمياه الشحيحة والبرد، مع ندرة وجود الأغذية، ظل هو الشيء الثابت دون تغيير، حتى أن بعض السجناء وقد اكتشفوا نبات «الرشاد» ينمو تلقائياً بين جنبات السجن بعد أن وضع بذوره السجناء الإيرانيون الذين حلوا به من قبل، أخذوا تحت وطأة التجويع العراقي يأكلون ما يعثرون عليه من هذا النبات، برغم أنه كان مرتعاً للأمراض الطفيلية إذ تتسرب إليه مياه الصرف في سجن الموصل. وبدأت الطفيليات تفتك بأجساد السجناء الكويتيين، ولولا ستر الله لفنوا جميعاً.

ويروى المقدم يعقوب الياسين أيضاً تجربة أسره، وهو أحد العسكريين الكويتيين وقد كان يقضى إجازته في لندن حين سمع أخبار الأزمة التي سبقت الاحتلال فقرر أن يعود إلى الوطن قبل الغزو بساعات محدودة وتم أسره عندما حاصرت القوات العراقية القاعدة التي يعمل فيها. وهو يروى في

سخرية مريرة ذلك التخبط الذى كان فيه الأسر والفوضى التى لا تحكمها إلا غريزة العدوان. فقد بدا واضحا أن القائد العراقى لا يعرف ماذا يفعل بالضبط بما يحمله من شحنة أسرى بعد أن اجتاز بهم الحدود الكويتية إلى داخل العراق. لقد ذهب بهم من الزبير إلى البصرة ومن معسكر إلى آخر. ثلاثة معسكرات وكل مسئول عنها يقول «ما عندى أمر». ولما كان العطش قد بلغ بهم حدودا قاسية راح الضباط العراقيون يطلبون من الناس العاديين فى فترات التوقف أن يسقوهم - أى يسقوا العسكريين فقط - بلا مبالاة بالأسرى.

ويتذكر يعقوب الياسين مشهدا سأل فيه أحد الأسرى فتاتين عراقيتين فى ملابس ضافية أن يحضرا ماء للشرب «نحن كويتيون يا أختى نبغى ماء» وكان ردهما فى ذهول «يا.. كويتيين» وذهبتا لتعودا بالماء ولكنه قبل أن يصل ليد الأسرى جرى الحارس العراقى يطارد الفتاتين بخيزرانتة وهما تهريان مولولتين صائحتين «يا.. دول مو إسرائيليين..».

الحرية والأسر:

إنها حالة مؤلمة من حالات «افتقاد الحرية» بالنسبة للأسر والمأسور على السواء، وافتقاد الحرية هو أقصى عقاب يمكن أن يوقع بالإنسان، فهو انتزاع له من جذوره ومجتمعه وإحاطته بالأسوار المادية والمعنوية، وخلق حالة من الخوف

وعدم الثقة فى داخله. إن العراقيين الذين عاشوا طويلا تحت ظل نظام قمعى لا يتيح لهم أى بارقة أمل فى الحرية أصبحوا لا يعرفون قيمة الحرية بالنسبة للآخرين.

ومهما فعلت الأنظمة التسلطية التى كانت تملك أدوات وإمكانات أعتى من النظام العراقى فقد فشلت فى انتزاع حس النزوع إلى الحرية بالنسبة للأفراد، حتى أن القوانين الوضعية قد أصبحت فى الوقت الحاضر تدور فى فلك الشخصية الإنسانية. إن هناك إيمانا عاما بأن الإنسان يؤلف كائنا قائما بذاته متمتعا بشخصية خاصة به مستقلة عن غيره، ومن هذه الوجدانية التى يتصف بها تنبثق الحقوق والحريات المتصلة بذاتيته الإنسانية. هذه الذاتية لا تستطيع القوة الحاكمة أن تتجاوزها، أى مهمة القوانين الوضعية هى أن تصون الإنسان بكليته، كإنسان، وإنسان معنوى اقتصاديا واجتماعيا.

وإذا كان الكثير من هذه الحقوق مهدرا فى عالمنا العربى فإننى أزعم أنها ملغاة تماما خلف الأسلاك الشائكة التى يحيط بها النظام العراقى بلاده. وليس هذا استنتاجا شخصيا ولكنه معتمد على عشرات الشهادات والوثائق التى تفضح يوميا ممارسات هذا النظام. إن هناك «دياسبورا» عراقية حقيقية حيث يعيش الملايين من أبناء هذا الشعب فى

المنافى البعيدة يتنازعهم الشوق إلى أرض الوطن والخوف من الخطر القادم من الوطن. معارضون ومنشقون وطنيون فقدوا أمنهم من قسوة المطاردة التى تطالهم إلى كل مكان يذهبون إليه، فالنظام العراقى لا يتصرف وفق سمت الدولة المسئولة ولكن وفق سمت المنظمات الإرهابية السرية على حد تعبير المعارض العراقى حسن العلوى، وهو يقول فى مقدمة كتابه بذاك العنوان «العراقيون أسرى فى كل حال. أسرى فى الحرب وأسرى فى مواقف الباصات، وأسرى المنازل، والمقاهى خالية، والسفر ممنوع إلا فى حالتين أن ترمى عائلة عراقية وراء الحدود تنفيذا لقانون التهجير، أو أن يكون المسافر حاملا ورقة للتحويل الخارجى أو أمرا قياديا فى مهمة خاصة.. إن منظمة سرية كان يبشر بها طلاب حسنو النية تحولت إلى قوة سياسية ذات قدرة عالية على التخريب المنظم».

هذه الدولة أو المنظمة الإرهابية لا تستند إلا إلى قوانينها الخاصة ومصالح أعضائها الشخصية. وهى تمارس أكبر قدر من الإرهاب ضد من توقعه مجرد المصادفة فى طريقها. ولعل كتاب «القسوة» الذى كتبه عامر بدر حسون عن حالة أستاذة جامعية عراقية ألقى القبض عليها لمجرد الاشتباه فى أنها تحاول الخروج من العراق مثلما فعلت بقية عائلتها. وقد

تعرضت هذه الأستاذة التي أطلق عليها اسم «ليلى» لصنوف من التعذيب والانتهاك الوحشى ما يفوق تخيل أى عقل بشرى سادر فى القسوة المبالغ فيها.

وهو يقول فى نهاية كتابه ذاكرة وصية ليلى الأخيرة إليه «أنا ليلى أختكم. دخلت السجن فى العراق بإرادة شرطى وقضيت سنوات طويلة تحت الأرض لا أفرق بين الكاب البوليسية والكلاب البشرية التى تناوبت على تعذيبى، أنا ليلى أختكم .. كنت أهان وأضرب وأعذب كل يوم، استطعت الإفلات من السجن بمعجزة لكننى أعرف أن زينب وفاطمة وسعاد وكل صاحبات الأسماء التى تخطر ببالكم ما زلن هناك يتعرضن للإذلال والأذى وأقصى درجات القسوة..».

وربما كان النظام العراقى هو النظام الوحيد فى العالم الذى يعلن عن عدائه لبعض الطوائف فى شعبه فى وضوح، بل ويكيل لهم الاتهامات السياسية والاجتماعية والدينية، بل وتصل لهجة الخطاب السياسى الرسمى إلى حد البذاءة أحياناً، فجريدة الثورة العراقية تهاجم سكان الأهوار وشيعة الجنوب العراقى الذين ثاوراً على سلطة حزب البعث فى مارس ١٩٩١ بأبشع الألفاظ وتنعتهم بأقذر الصفات. وتقول الجريدة الرسمية بتاريخ ٥ مارس عام ١٩٩١ «إن ما يتصل بالأهوار من شئون الحياة ومن العلاقة بين الرجل والمرأة لم

يتأثر بشعائر الدين الإسلامى كثيرا كما أن معايير الحلال والحرام فى الهور وأطرافه ليست معايير الحلال والحرام التى يفهمها أهل بغداد أو النجف أو القادسية سواء فى حقول الملكية أو العلاقة الجنسية أو الزواج. وغالبا ما نجد عند هؤلاء نمطا من الانحرافات تترك عند سماعها الفم فاغرا. ومن المعروف أن الكثير من الذين أعدموا بقرارات من محكمة الثورة جراء الزنا بالمحارم هم من بين هؤلاء الصنف من الناس. وعموما فإن بعض هذا الصنف فى أهوار العراق هم من أصول جاءت مع الجاموس الذى استورده القائد العربى محمد القاسم من الهند»!!

ولا أريد أن أسترسل فى المزيد من هذه الشهادات.. ولكنها تصل بنا جميعا إلى حالة الأسر والافتقار إلى الحرية التى يعانى منها الشعب العراقى.. تماما كما يعانى منها بعض أبناء الشعب الكويتى المحتجزين فى العراق، وحين أحلم بالحرية فإننى أحلم بها للجميع ولا أستطيع أن أحس بالعافية مادام جارى مريضا مهما بلغ سوء أخلاق هذا الجاز.

قبل النفق المظلم:

أمامى نتائج دراسة قام بها الدكتوران أحمد عبد الخالق وعويد سلطان المشعان من قسم علم النفس بجامعة الكويت حول إدراك الآثار النفسية للعدوان العراقى لدى طلاب

الجامعة الكويتيين وقد شملت العينة ٦٥٢ طالبا من الجنسين بعد عامين تقريبا من التحرير واحتوت قائمة هذه الآثار على ١٥١ عنصرا مؤثرا . وجاء في مقدمة هذه الآثار «كراهية بعض الدول العربية - الشعور بعدم الأمان - زيادة الإيمان بالله - وعدم الاطمئنان للمستقبل السياسى - التفكير فى احتمال عودة الغزو - عدم الثقة بالعروبة...».

إن مبعث الخوف هنا أن هؤلاء الشبان يستعدون لدخول نفق مظلم لا نود أن يدخلوه، ولا نريد أن تتراكم هذه الآثار حتى تصبح موقفا من الجنس العربى الذى ينتمون إليه. ولا نريد أن يزرعوا فى أنفسهم أسوارا تعزلهم عن التفاعل مع مجتمعهم العربى. وما يزيد من خطورة الحالة هو إحساسهم بأن هذا الجار العدو مازال متصليا مهددا متوعدا يقبض على جزء من أهاليهم ويحتجزهم رغما عنهم.

هل يمكن أن نعتبر إطلاق سراح الأسرى والمفقودين بداية لإغلاق ملف هذه الأزمة العربية الطاحنة؟ إنها خطوة لابد منها تفك الأسر والمأسور فى آن واحد. تخلصهم معا من آثار الضغينة والكراهية التى تخلفت عن آثار العدوان، وتتيح لهما معا أن يريا تاريخ الخلاص. وفى اعتقادى أن فك أسرى الكويت سوف يساهم فى التعجيل بفك أسر الشعب العراقى الأسير بأكمله.

لم أكتب هذا المقال كي أستعطف أحدا أو لأذرف الدمع على الماضي.. بل كتبت كي أوجهه لضمير كل عربى وكل قارئ ومثقف كي تصل إليه الرسالة بوضوح دون لبس، فلأول مرة فى تاريخنا الحديث يحتجز عربى عند عربى أسيرا مقهورا طوال هذه المدة . ومن يود إصلاح البين عله يتذكر دموع أهالى الأسرى ولوعتهم، وعله يتذكر كم من الظلم وقع ومازال يقع على بشر تحولوا من أحرار إلى أرقاء، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.. فهل أسمعتم؟.. اللهم فاشهد .

٦

من صمت الحملان ،
إلى سحق الإنسان
تأملات في أغوار
كارثة الفيزو

مثل غيمة سوداء تقبل ذكرى يوم الغزو - الثانى من
أغسطس عام ١٩٩٠ - فتتدافع إلى النفس صور مفزعة
يستدعى بعضها بعضا

ولأن الشئ بالشئ يذكر، فإن الخطر يمتلى بصور دامية
شتى، من مصدرين متباعدين، لكنهما يلحان على البال - الآن
- معا. أحدهما كتاب وثائقى مصور عن آثار التعذيب التى
مارسها عسكر الغازى فى أجساد شعبنا. وثانيهما شريط
سينمائى ذاع صيته أخيرا تحت اسم «صمت الحملان»
ويتحدث عن المجرمين أكلى لحوم البشر. وإذا ألقينا نظرة هنا
وأخرى هناك فإن الرعب المتشابه سيأخذ بالبابنا.. أجساد
سلخت جلودها، وأطراف بشرية احترقت حتى العظام فى
أحواض الأحماض الكاوية.. وجوه نهشتها أسنان وحوش
بشرية. وعيون اقتلعتها مخالب بشر ليسوا بالبشر، بطون
مشقوقة، وجماجم مثقوبة، وحروق أقطاب مكهربة.. وتصرخ
النفس من هول ما ترى: كفى، كفى. فتتغلق العينان زهدا فى
رؤية المزيد من صور الألم الإنسانى. لكن البال ينشغل
بالانطباع الذى يصنعه كل ذلك الرعب والأسئلة التى تلقىها
صور الشريط السينمائى على مغزى صور الكتاب. وتتشابك
محاولات الإجابة.

فهل ندلف إلى شئ من التفصيل ؟

وحوش تحت جلود بشرية :

تحكى قصة فيلم «صمت الحملان» المأخوذ عن رواية للكاتب «توماس هاريس» عن شرطية تستدعيها رئاستها لتتولى محاولة فتح ثغرة فى لغز مجنون. طبيب نفسى مولع بأكل لحوم البشر، تم القبض عليه بعد جرائم اختطاف عديدة جرى فيها سلب جلود الضحايا والتهام أجزاء من لحومهم. أودع الطبيب المجرم فى زنزانة مصفحة فى مبنى هو خليط من المصححة والسجن.. بوابات حديدية تتعاقب، وكاميرا مراقبة تلفزيونية، وحوائط من الصلب والزجاج المصفح. وأمام واجهة الزنزانة وقفت الشرطية الصغيرة مرتعدة تحاول - بمساعدة دراستها السابقة لعلم النفس - أن تحصل على أى شئ من الوحش يقود إلى وقف عمليات اختطاف متجددة يجرى فيها أكل لحوم الضحايا.

تواجه الشرطية الصغيرة مخلوقا مصقولا كأنه من صخر.. جسد مشدود، وجبهة عريضة عالية، ووجه أصم، وعينان لامعتان لايطرف لهما جفن. وبصوت عميق ثابت، ثباتا مخيفا، يبدأ الذكاء الشرير للطبيب الوحش فى الرد على أسئلة الشرطية الصغيرة.. يرد على السؤال بسؤال، وبدلا من فتح ثغرة فى بنيان جرائمه وما يشابهها من جرائم (يعرف عنها الكثير لأن مرتكبيها وحوش مرضى من مرضاه السابقين)..

بدلاً من ذلك يفتح هو فى بنيانها النفسى الرقيق ثغرات وفجوات. فتستسلم لتحليله النفسى لها عبر الاعترافات، وسرد الأحلام، وفحص الرسوم التى تقدمها إليه طائفة مذعنة.

بذكائه المتوقد ومجموعة حواس مشحونة تشبه حواس حيوان مفترس يعرف أى نوع من «الكريم» كانت تضعه على بشرتها منذ يومين مضياً، ويعرف هواجس نفسها، وأى نوع من الكوابيس تداهمها. ورغم أنها لاتفقد حماسها للحصول منه على مزيد من المعلومات عن مجرم وحش اختطف ابنة أحد أعضاء مجلس الشيوخ . ورغم دخولها فى مغامرة شجاعة للإمساك بالوحش الآخر الطليق مستخدمة ما جاد عليها به الوحش السجين من فتات المعلومات التى ينثرها نثر من يتسلى بضحية يرتب لذبحها والتهامها. رغم هذا كله إلا أن الشرطة الصغيرة تبدأ فى فتح عينيها بفزع على عالم من الشك فى نوازع السلوك الإنسانى. شك يكاد يفقد أنقى الذكريات جوهر براءتها، ويومئ إلى أن الكثير من تصرفات البشر تنطوى على نوع من الشر الكامن.

وليست الشرطة الصغيرة وحدها هى من يملكها هذا الشعور، إنه المتفرج أيضاً.. يخرج من مشاهدة الفيلم وقد اهتز يقينه فى إنسانية الإنسان، يتساءل: هل يمكن أن يكون

تحت جلود البشر وحوش كاسرة إلى هذا الحد؟ حد التهام
لحم البشر وهم أحياء ! هل فى دواخل البشر غابة مرعبة إلى
هذه الدرجة؟

أسئلة يطرحها فيلم «صمت الحملان» المبني على رؤية
نفسية مريرة. وأسئلة مماثلة تطرحها علينا عمليات التعذيب
التي مارسها عسكر الغازى فى لحوم البشر.. فى معتقل
المشاتل، وسجون البصرة، وزنزانات بغداد الانفرادية. ولعله
مازال يمارسها فى لحوم أسرانا فى سجن أبو غريب ومعتقل
الرضوانية والراشدية وسجون تكريت وبيجي، بل ويمارسها
على مواطنيه وشعبه.

إنها أسئلة لابد أن ترد إلى أصولها حتى يستقيم البحث.
فإذا كان مسعانا هو الحديث عن الآثار النفسية والاجتماعية
للغزو الصدامى للكويت، فإن الغزو نفسه فى حاجة لأن نتأمل
أغواره المظلمة والثنايا التى خبأت ما تمخض عنه من ملهاة
ضربت الحس العربى فى الصميم، ومأساة دفع ثمنها
البشر، لا فى الكويت الجريح وحده، وإنما بشر هذه الدنيا
العربية من الخليج إلى المحيط، بل وغيرهم ممن تقطعت بهم
سبل الرزق، أو فقدوا كريم العيش.

الغزو.. علامات استفهام وتعجب :

الغزو.. كلمة تعنى فى قاموس التاريخ البشرى أن يجتاح

فصيل من الناس فصيلا آخر، فى انتهاك للأرض وحقوق البشر على هذه الأرض وإذا بحثنا عنها فى عالم الحيوان فإننا نتعجب. فالغزو لدى الحيوان أمر مختلف تماما، وهو تعبير متوحد مع كلمة الهجرة، وتضعه كتب سلوك الحيوان كمرادف عندما تعالج ظاهرة الهجرة، لدى الحيوانات. وهى هجرة تملئها ضرورات الحاجة إلى الماء والطعام والبيئة المناسبة لاستمرار الحياة. فطيور الشمال تهرب من صقيع الشتاء إلى دفء الجنوب، والجاموس البرى يقطع مسافات هائلة فى قلب إفريقيا عندما يداهم الجفاف ويستطيع أن يحس بالماء الذى يهطل على مبعده مائة كيلومتر من موقعه. حتى الجراد الذى تسمى هجراته غزوا، يهاجر أيضا بحثا عن الطعام. أما الغزو الذى يمارسه البشر لأرض البشر وضد إرادات البشر وولوجا فى دم البشر، فهذا نوع من العدوان لا تعرفه مملكة الحيوان. فالثعبان لا يلدغ ثعبانا، والنمر لا يطارد نمرا، والضبع لا ينهش جثة ضبع، ولا ينقض النسر الكاسر على نسر من بنى جلدته. هذا السلوك «الحيوانى» يضع الغزو البشرى فى مأزق السؤال: ما هى الدوافع والحوافز؟ ولا مفر من الاجتهاد، وفى هذه الحالة سيكون اجتهادا مزدوجا لأنه بحث فى حالة خاصة من السلوك العدوانى لدى الإنسان.

ثمة مدخل فى كتاب «سيكولوجية الإرهاب» للدكتور عزت

سيد إسماعيل وإشارات متفرقة فى كتب علم النفس وغيرها فى كتب علم الاجتماع. ومن المدخل والإشارات تتكون محاولة الإجابة.

لقد لجأ علم النفس وعلم الاجتماع إلى الإيثولوجيا Ethology أى علم الدراسة المقارنة لسلوك الحيوان وبخاصة فى بيئته الطبيعية. والهدف هو تحديد طبيعة العدوان Agression والسلوك العدوانى لدى البشر، أفرادا وجماعات. فالغزو (البشرى) عملية تدميرية تتضمن العدوان وتستخدم العنف بهدف إلحاق الأذى بالآخر. وجاءت محاولات التفسير الإيثولوجى للعدوان لتبحث ادعاء أن العدوان سلوك غريزى، ومن ثم تكون اجتياحات الغزاة وهجماتهم جانبا لا مفر منه فى الطبيعة البيولوجية للبشر. ولقد تبنى هذا الموقف، من علماء النفس - أتباع فرويد - كل من روبرت أرنشوى، وديزموند موريس، وكونراد لورنز. لكن سرعان ما وجهت الانتقادات إلى آرائهم على اعتبار أنه لم تلاحظ أية شواهد على قيام غريزة العدوان لدى الإنسان.

صحيح أن الإنسان شأنه شأن الثدييات جميعا يأتى إلى الوجود ولديه مقدرة ولادية موروثة، على العنف والسلوك العدوانى. إلا أن التعبير عن هذه المقدرة معلق على عامل خارجى. ثم إن الشئ الملحوظ فى السلوك البشرى أنه متعلم.

وعلى خلاف من سيادة الاستجابات الموروثة فى سلوك الحيوان فإن الإنسان يتحرك فى نطاق من التكيف بحيث أصبح سلوكه محكوما بما تعلمه من استجابات. ثم إنه - أى الإنسان - أخذ ينمو وينتهج طريقة ككائن حى فى إطار من الظروف الحضارية القيدة للغرائز المدمرة. كانت الاعتراضات على غريزة العدوان تحاول الانتصار للإنسان بما هو إنسان يرقى عن حضيض الحيوان، الذى لم نر فى حضيضه تدنيا يفوق انحدار البشر أكلى لحوم البشر، والبشر غزاة البشر. لكن صنفا آخر من العلماء كان أكثر تشاؤما وشكا فى الإنسان، أبرزهم - من بين علماء الايثولوجيا - لورنز الذى يوصف بأنه الأب لهذا العلم المقارن وأحد الحاصلين على جائزة نوبل، فهو يصر على أن العدوان ينبع من غريزة للمقاتلة يشترك فيها الإنسان مع الكائنات الأخرى. وحتى يبرهن على صحة افتراضاته، أشار لورنز إلى أن إنسان بكين البائد الذى اكتشفت بقايا منه فى الصين عام ١٩٢٩ والذى كان من أوائل البدائيين الذين تعلموا الاستفادة بالنار إنسان بكين هذا استخدم النار فى شواء بنى جنسه. وكان دليل لورنز على ذلك وجود عظام مشوية لأفراد من إنسان بكين نفسه. لكن هذا البرهان دحضه عالم آخر هو «مونتاجو». مثبتا أن العظام البشرية المشوية كانت لأفراد من إنسان بكين

قتلتهم المجاعة وطالتهم النيران . وأكد مونتاجو أن تاريخ البشرية لم يقدم دليلاً على أن الإنسان ثبتت فيه عادة قتل رفاقه أحياء للاغتذاء بهم.

لم يثبت أن عدوان الإنسان على الإنسان قدر مقدور ولا غريزة لا يمكن مقاومتها . حتى لورنز المتشائم فى لحظة من لحظات شكه فيما وصل إليه من سوء الظن بالإنسان، قرر أن مشاعر المحبة الإنسانية قد تعادل تعابير العدوان وتعيق حدوثه. ورأى لورنز أن الألعاب التنافسية يمكن أن تشكل مخارج جماعية للعنف وأنه من خلال طقوس الفرح والإعلاء يمكنه استئناس العدوان.

فأى عدوان هذا الذى يمكن تنفيسه ببعض من المحبة واللعب؟! إنه لاشك عدوان لا يصل أبداً إلى حد فقء العيون ونشر أطراف الأحياء بالمناشير واغتصاب العجائز وثقب جماجم الأطفال بالرصاص ونقع الأحياء فى أحواض الأحماض الكاوية، وهذا غيض من فيض التعذيب الذى ابتلى به أهلنا فى ظل الغزو والاحتلال العراقى.

فى إطار الغزو، إذن، كصورة من صور العدوان، لم يجد لورنز (مع عالم آخر هو روبرت أربيرى) أية دافعية غريزية حقيقية، إلا فى حالة واحدة يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، هى غريزة دفاعية توظف العدوان للذود عن «المنطقة» التى

يسكنها من الأرض. فالإنسان يمكن تعريفه كمعظم الكائنات بأنه مخلوق منطقة محدودة A Territorial Being فالميل العدوانية عنده ترتبط بمساحة محددة من الأرض والمكان. أى بلغة أخرى غريزة الدفاع عن البيت والوطن. وفى مجال السلوك المقارن لدراسة هذه الغريزة الدفاعية ذات الشكل العدوانى وجد أن دخول حيوان غريب إلى أرض آخر من النوع نفسه يؤدى إلى نشوب معركة يكون البادىء فيها هو مالك الأرض ويكون أكثر شراسة فى مهاجمة الدخيل. بينما إذا جاء حيوان مختلف عن نوع مالك الأرض، من حيث العادات الغذائية والطبيعية، فإن المبادرة الدفاعية ذات المحتوى العدوانى لا تحدث، ذلك أن المسألة تتحدد فى الخوف من فقد المأوى والأنثى. وبلغتنا: الأرض والعرض. ومعروف أن الذكور تحارب عن منطقتها وعن الإناث فى فترات التزاوج. فمن أين تنبع دوافع الغزو البشرى إذا لم تكن غريزة موروثة!^{١٩}

شماعة الديموغرافيا، وغيرها:

فى كتاب نشر فى فرنسا عام ١٩٦٣ وترجم إلى العربية تحت اسم «الحرب والمجتمع» قام بتعريبه الأستاذ عباس الشربيني وراجعته أستاذ علم الاجتماع الدكتور محمد على محمد. قدم المؤلف - عالم الاجتماع - «جاستون بوتول» محاولة

رائدة لتأمل جذور «النزعة الحربية»، وتحليلاً اجتماعياً نفسياً للحروب ونتائجها. نتوقف أمام ملامح بارزة لهذا التحليل ونحن مثقلون بوطأة ذكرى الغزو المشؤم، لعلنا نتخفف من بعض المرارة عندما نفهم النوازع الشاذة التي يخالف فيها الإنسان فطرته التي فطره الله عليها. فبدلاً من الدفاع عن بيته وآل بيته كسائر مخلوقات الله، حتى تستمر الحياة ولا ينقطع النوع، نراه يهاجم بيوت إخوته وجيرانه!

يطوف جاستون بوتول بساحة الحروب، من حروب الأساطير القديمة، والحروب اللاهوتية، حتى الحروب في عرف الفلسفة. ورغم تعارض الآراء فإن النتيجة التي نخلص منها هي أن النزوع إلى الحرب ليس غريزة ولا حتماً. وتحت عنوان الوظيفة الأولية للحرب ينتهي بوتول إلى أنها: التدمير البشرى، وأن الهدف المقصود منها هو التوازن الديموغرافى (السكانى). فالحرب تستأصل من الجماعة عدداً من الرجال عن طريق الإبعاد والتدمير.. فالحرب هي «تهجير مسلح للسكان». فهل كان هذا (التهجير المسلح) كامناً فى العقل الباطن لصدام وهو يدفع بشعبه إلى حرب أشعلها ومكثت ثمانى سنوات دون انطفاء. وما كادت هذه النار تهجع حتى استدار ليغزو بيوت جيران وإخوان مشعلاً نارا أخرى مازال لظاها مشتعلاً فى الذاكرة ورمادها يملأ الحلق.

إن التعمق فى استكشاف أغوار الظواهر البشرية عبر التحليل الاجتماعى والنفسى يمكن أن يصيبنا بدهشة بالغة. فنرى أن الغزو كملح غير فطرى، وضمنه النزوع الحربى والعدوان، ما هو إلا تعبير عن تشوه نفسى عميق فى تركيبة قائد الغزو وسلطان «أم المعارك». أما مسألة الضغط الديموغرافى (السكانى) وإزالته عن طريق الحرب فهى ذريعة هتلرية ملفقة تماما. والأرجح أن صدام حسين قرأ كتاب هتلر «كفاحى» واستمع إليه وهو يقول: «ومتى احتوى الرايخ أبناء جميعا يمسى عاجزا عن إعالتهم، ومن العوز ينشأ حق هذا الشعب فى الاستيلاء على أراض أجنبية». وكشف زيف هذه المقولة يسير تماما، فهل كان هتلر عاجزا عن إعالة أبناء الجمهورية الألمانية بينما هو قادر على تجهيز وتسليح جيش كونه! مثله صدام حسين.. يعسكر أمة تمتلئ أرضها بالخيرات، محولا ثروتها إلى بارود وحديد وسموم وجراثيم، ثم يتكلم عن توزيع الثروة كأنه من المعوزين.

ومن الغريب أن تتحول هذه الذرائع الملفقة (كعلة الديموغرافيا) إلى عقيدة لدى مشعلى الحروب، وليس أدل على ذلك مما جاء فى كتاب «حرب تلد أخرى» على لسان سعد البزاز أحد المقربين للنظام العراقى إذ يقول: «كيف ينبغى التصرف بجيش المليون؟ كانت هذه هى المشكلة، فبقاء

جيش بهذه الضخامة بدون فعالية هو ضرب من التعطيل
لقدره الشعب وهدر مادي. لابد من واجب ميداني لهذا الجيش
والا تحول إلى عبء على المجتمع وحضور مقلق للنظام». فهل
هناك إجرام أبشع من أن تحل الأنظمة الديكتاتورية مآزقها
بإشعال نيران الحروب؟!

إن قراءة التركيبة النفسية لقائد كارثة الغزو، في ضوء
معطيات الفصل السادس من كتاب جاستون بوتول (السمات
السيكولوجية للحروب)، ستضع يدنا على تشوه في شخصيته
ببالغ الانحراف يجعلنا نقرر أن صدام حسين لم يكن يريد
تدمير الكويتيين وحدهم، بل إنه في الأساس، منذ حرب
الخليج الأولى حتى غزوه للكويت، وإلى الآن، كان يريد تدمير
المزيد من شباب العراقيين بإلقائهم في نيران حروب لم يكف،
ولعله لن يكف، عن اختلاقها والحلم بها. إن التحليل
الاجتماعي والنفسى يقول إن صدام كان يكره جنوده إلى
درجة القتل.. ويالها من مفاجأة .

صدام وعقدة الأب الحاسد:

رغم تنوع الدوافع التي تغذي النزعة الحربية، والتي تمثل
مجرد «علل اتفاقيه» أو ذرائع، فإن الثابت هو ارتباط هذه
النزعة بمركبات النقص والشعور بالفشل والشعور بالذنب،
مما يدعو إلى القول بأنها حالة نفسية فمن الشعور بالفشل

تتولد الرغبة فى إلقاء تبعات الخيبة على الآخرين. بينما تتجه عقدة الشعور بالذنب إلى نوع من التسامى يُظهر بطولة كاذبة، أما الشعور بالنقص فإنه يحرك الأفراد والجماعات باتجاه التعويض. وعندما تكون الذات الفردية أو الجماعية مشوهة فإن الشعور بالنقص الحضارى - على سبيل المثال - يجد شفاءه الكاذب فى تنمية قوة الشراسة والعدوان.

وعلى مستوى رجال الدولة من النوع الذى يعانى كل ما سلف من تشوه تبدو الحرب أو الغزو - بدينامياته الحربية - حلا أسهل للتعويض عن كل نقص وفشل وشعور بالذنب. فالحرب تعفى من عناء البحث عن حلول وسط تتطلب جهدا فى حساب التوازنات الدقيقة. وكما يقول «جاستون بوتول»: «تعتبر الحرب فترة راحة للحكومات فهى تفرض الصمت والخضوع واحتمال الحرمان، لأن المواطنين يتحولون خلالها إلى رعايا ويصير الزعماء قابلين للعزل». بل يصير الزعيم موضع حب حتى عندما يكون قاسيا ومنحلا مثل يوليوس قيصر، أو ماكرا ميت القلب مثل هانيبال، أو جاهلا مخادعا مثل صدام.

لقد كانت إرادة الله، خالق النفوس جميعا وعالم أسرارها وخباياها، أن يعالج نوازع النفس البشرية بما يحفظ للإنسان

كيفونته كأشرف مخلوقاته. أما البشر المشوهون فإنهم يعالجون نوازعهم بما يحط من شأن الإنسان ويحيل الوجود إلى غابة تصخب فيها وحشية هذه النوازع. ولعلنا نجد في حديث جاستون بوتول ما ينطبق تماما على شيطان غزوة أغسطس صانع كارثة الخميس الأسود، ومهندس نكبة العرب الثانية: «ونجد لدى قادة الحرب، أولئك الذين يمارسون القيادة المطلقة، ظاهرة يمكن أن نطلق عليها عقدة الأب الحاسد». فالقيادة المطلقة تملئ مواقف سيكولوجية أبوية إلى الحد الذي يكون فيه الأب هو الرئيس المطلق السلطات والحبر الأكبر لأتباعه. ويصير ذبح الأبناء قربانا ممتازا أو ضحية لا مثيل لها عند التكريس لعمل ما أو سياسة ما. هكذا كان إيفان الرهيب قيصر روسيا ويطرس الأكبر وأجا ممنون الذين قتلوا أبناء وبنات لهم. وتنوب الحرب، بطريق غير مباشر، عن هذه المهمة إذ يرسل الزعيم إليها أفضل أبنائه. ويبدو أن عقدة الأب الحاسد تمثل معنى آخر يختص بإبراز النزاع بين الأجيال (وهذا النزاع بين الكبار والصغار من الذكور معروف تماما عند الحيوانات) ذلك أن جيل الآباء الأمرين يجدون أنفسهم إزاء شباب قائر ذي طموح يتجاوز إمكانات إرضائه وتوظيفه، ومن ثم يميل الزعيم - الأب المسيطر - إلى الحرب

كحل مثالي، عن وعى أو بدون وعى، لهذا المأزق الخطير.

إنه ذبح للأبناء يرتدى ألف قناع وقناع بينما حقيقته: كراهية الأب المتسلط المريض لأبنائه. الأب مشوه النفس الذى ألقى بأبنائه ثمانية أعوام فى حرب مهلكة - كان يمكن تحاشيها - وما كادوا يخرجون منها ويلتقطون بعض أنفاسهم حتى تملكه الرعب منهم فابتكر لهم حرباً أخرى - كان يمكن تحاشيها بكل تأكيد - وكانت مقامرة ومحرقة.

ولاعزاء للبراءة:

إن وجود هذه النماذج المشوهة، من القادة الذين يحلون مآذق سلطاتهم كلية الهيمنة بذبح الأبناء عن طريق المغامرات العسكرية، تكون حلقة شريرة تنتشر التشوه حيثما حلت أو غزت. وإدراكها لهذه الحقيقة، وفى محاولة لتلمس الجراح التى خلفها الغزو، بغية علاجها أو محاصرتها. عقد فى الكويت فى شهر أبريل الماضى* «المؤتمر الدولى لدراسة الآثار النفسية والاجتماعية والتربوية للعدوان العراقى على دولة الكويت». وجاءت بحوث المتخصصين لتشير إلى حقيقة مرة، هى أن التشوه الروحى الذى حرك الغزو أوشك أن يشوه

* نشر هذا المقال فى مجلة العربى - العدد ٤١٧ - أغسطس ١٩٩٢

صفحات نقية فى كتاب البشر. أصابع شيطانية راحت تعبث
ببراءة الصغار، يعد أن بددت طمأنينة الكبار، ومضت تاركة
آثار مخالبتها على ذلك كله.

فمن مجمل الظروف التى صنعها الغزو وما تلاه، الاحتلال
الحاد والمفاجئ، فى الحياة اليومية والضغط الناجمة من
الخوف على أفراد الأسرة والإرهاب المفرط وشراسة العسكر
الغزاة وافتقاد الكويتيين للشعور بالأمان، تولد الخوف والتوتر
والكبت والاكتئاب. وعرف الإنسان الكويتى أنماطا سلوكية لم
يعهدها تشير إلى طبيعة الحياة النفسية التى دفع إلى
جحيما إبان الغزو. وكان الأطفال هم أول من تلظى فى هذا
الجحيم. لفحت نار الشر كياناتهم الطرية الهشة. وتحول
الكثيرون منهم، بين يوم وليلة، بين عشية الأربعاء وصبيحة
الخميس الأسود، إلى نوع استثنائى من الأطفال المعرضون
للخطر الهائل Children at Risk بل: الأطفال المعرضون
للخطر الهائل High Risk Children فقد تلقوا الصدمة
مضاعفة، صدمة ذويهم بكل انعكاساتها المؤلمة، وصدمتهم هم
إزاء ما وقعت عليه أعينهم البريئة المرعوبة. وظهرت على
الأطفال أعراض تعتصر القلب مثل أعراض «عصاب الطفولة»
و«ذهان الطفولة» أى أمراض نفس الطفولة، وأمراض عقل

الطفولة. وعرف عالم البراءة مرارات كإعاقة السلوكية والعاطفية. ويات كثير من الأطفال كالشيوخ والمحاربين القدماء فى حاجة إلى «إعادة تأهيل». ومن بين هؤلاء كان أطفال مرحلة الروضة الذين تتراوح أعمارهم بين ٢ و ٦ سنوات!! ناءت كواهلهم الصغيرة بعبء جنون ثقل رماء عليهم مشوه كبير لم يهنا له العيش إلا بتشويه العالم من حوله وعبر حدود الجيران.

الوحش سائب والأعزاء مقيدون :

لقد امتلأت بحوث المؤتمر الدولى لدراسة الآثار النفسية والاجتماعية للغزو بكثير من التفاصيل عن الحصاد المرما زرع الشيطان مر من هنا، والذي مازال طليقا يمارس شروره حتى لحظتنا هذه . ومأساة الأسرى والمحتجزين الكويتيين فى السجون العراقية مثال لذلك. لن يستطيع عاقل أن يفهم بعد كل ما حدث مغزى الاستمرار فى أسرهم واعتقالهم، إلا أن يكون ذلك جزءا من عدوانية الشخصيات «السيكوباتية» المريضة، مرضا نفسيا إجراميا.

وفى هذا الشأن يلح أيضا البعد النفسى والاجتماعى فى مشكلة الأسرى والمفقودين. وإذا كان هؤلاء غائبين فإنهم حاضرون بكل الألم فى حياة ذويهم اليومية وفى توتر

نفوسهم. فتجاه اعتقال الأسير أو احتجازه يتملك شعور بالذنب ذويه الذين لا يكفون عن التردد فى دواخلهم: «لو كنت منعه من أن يخرج من البيت».. «أه لماذا لم أفعل شيئاً لمنعهم من اعتقاله». ثم التصور المستمر لمعاناة الأسير مما يقود إلى الاكتئاب، والشعور باليأس من فعل شىء يفك قيد الأسير، والعزلة عن الآخرين الذين تبدو حياتهم الطبيعية اجتراحاً لجلال مصاب أسرة الغائب. آلام لم ينج منها صغير أو كبير، حاضراً أو غائب. وما كان أغنانا عن كل هذه الآلام التى صنعتها إرادة نفس، أو نفوس، مشوهة.

هل من عودة إلى صمت الحملان؟!

بعد مطالعة هذه الأغوار فى ثنايا كارثة الغزو. أجد المشهد الختامى لمجموعة العواقب الاجتماعية والنفسية لفعلة صدام، يستدعى المشهد الختامى فى فيلم «صمت الحملان» وبين المشهدين تتصاعد صرخة ينبغى أن تتردد أصدائها حتى تلامس أقصى الأفق. فبعد أن تكررت فى الفيلم جرائم اختطاف أخرى سلخت جلود ضحاياها وأكلت بأسنان بشرية أجزاء من لحومهم، ضجت الأسئلة وتشابكت الخيوط، وهىء لنا أن المجرم المجنون على وشك السقوط وإطلاق سراح آخر الضحايا فى هذه اللحظة تمكن الطبيب النفسى - الوحش

السجين - من الهرب بعد أن أكل وجه واحد من حراسه.
وعندما نجح الكمين الأخير وبدا لنا، ولبظلة الفيلم، أن
الرصاصات التي أطلقتها قد نالت من المجرم الشامل الذي
كان سجيناً وطليقاً في آن واحد. وبينما يجرى احتفال قومي
لتكريم الشرطة الصغيرة، البطلة، إذ بمكالمة تليفونية تأتيها،
وعلى الطرف الآخر من الخط حيث يتحدث الصوت الثابت
المخيف، كان الإنسان الوحش.. الطبيب المجنون المجرم
الهارب، غير هيئته ومضى مختفياً في قلب الزحام.
إنها صرخة تقول لنا إن البشر الذين توحشوا - مع
الاعتذار لوحوش الحيوان بكل عمق الاعتذار - مازالوا مطلقى
السراح وإن الخطر ماثل. علينا أن ننقبه إلى ذلك الشذوذ
الوحشى ونفضحه، خاصة عندما يرقى سدة الحكم، فإنه في
هذه الحالة لا يأكل لحم ضحايا منفردين من البشر، بل ينفش
لحم مجتمعات بكاملها، ويهدر دم أمم وقيم وأحلام باتساع
أرض الإنسان الإنسان، وعمق قلب الإنسان الإنسان.



حتى لا تموت
فاطمة !

مرة أخرى.. تأملات
وأحزان بعد ثلاث
سنوات من التحرير

سوف أحدثكم عن فاطمة، فرغم مرور سنوات ثلاث على مرارة الغزو وفرحة التحرير لم تترك ذاكرتى.

لم تكن فاطمة عبد القادر الفتاة التى تهتم بما يخبئه المستقبل، فهى وقد تفتحت عيناها على حياة سهلة، توفر لها ما توفر لأقرانها. فى كويت الستينات من دعة واستقرار وأمل بالمستقبل فهى تلتحق بالمدرسة منذ السادسة وتنتقل من فصل إلى آخر فى سهولة ويسر، يؤهلها لذلك ذكاؤها فوق المتوسط، وعندما اجتازت إلى الجامعة كانت شعلة متوقدة من النشاط فى اتحاد الطلبة، وتحول هذا النشاط بفيض من نفس مرهفة إلى بعض الجمعيات الخيرية. وجدت نفسها تهتم بالجانب الاضعف من المجتمع والمعوقين على وجه الخصوص، ولم تجد أن هناك تناقضا بين عملها كمدرسة للغة الإنجليزية وبين نشاطها الاجتماعى، بل لقد يسرت لها الوظيفة والراتب الذى لم تكن تحتاج منه الكثير أن تكون أكثر نشاطا فى المجال الاجتماعى، لم تفكر بالزواج، لأنه قادم ولاشك، كانت فقط تنتظر الرجل المناسب. فوق ذلك كله فإن نشاطها فى الجامعة وما قبلها وحتى فى جمعية المعلمين التى انضمت إليها بسبب عملها لاغير.. كان كل ذلك بعيدا عن السياسة، وفجأة وجدت نفسها وسط أتون السياسة. بل وفى الجانب المظلم والمعتم منها.

فقد استيقظت فى اليوم الثانى من أغسطس ١٩٩٠ على حركة غير عادية لم تتبين كنهها . وكعادتها فى صباح الإجازة كانت تذهب إلى الجمعية الخيرية التى تقضى فيها وقتها الصباحى، وفى الطريق استرعى انتبهها على غير العادة طابور من السيارات العسكرية، لم تكن فاطمة وقتها تفرق بين ناقلة الجنود أو العربات المصفحة كانت فقط تعرف شكل الدبابات لكثرة ما شاهدتها فى الأفلام الحربية التى تعرضها الشاشة الصغيرة، لم يسعفها ذكاؤها لتتبين ما يحيط بها، حتى وصلت إلى قرب أحد مداخل المدينة فاستوقفتها ثلة من الجنود أحست لأول وهلة أنهم جنود من وطنها وتكلم أحدهم بلهجة أمرة أن تعود من حيث أتت، وتبينت من تلك اللهجة أنها عراقية.

منذ تلك اللحظة وقد أفاقت فاطمة عبد القادر على وعى جديد بأن وطنها محتل، وأنها أمام خيارين أحلاهما مر، أن تخضع للاحتلال وتعيش تحت الخوف المضاعف الذى يفرضه على نفسها وأسرتها المكونة من والد ووالدة طاعنين فى السن، وأخوات وإخوة يعيشون متناثرين فى أحياء المدينة، أو تترك بيتها ووطنها إلى أرض أخرى.

بعد مراجعة للنفس قررت فاطمة أن تأخذ منحى آخر.
لن تعرض أسرتها وأخوتها لخطر لا تستطيع رده، ولن

تغادر وطنها أيضا، ولكنها سوف تقوم بالدور الذي يفرضه عليها إحساسها بالواجب الإنساني، وانخرطت بعد أيام من احتلال وطنها، وبعد مرور الصدمة الأولى، في مجموعة من الأصدقاء والصديقات من أجل المقاومة، ليست السلبية فقط وإنما الإيجابية أيضا، فبعد تشاور مع الإصدقاء ومعرفة ردود الفعل التي كانت تأتي من الخارج بدا كأن العالم كله يصحو من الذهول عريا وأغراباً وأن بلادا مسالمة وصغيرة كبلدها لا يمكن أن تلغى من الجغرافيا والتاريخ بنزوة ديكتاتور متسلط، وتتراكم في الأجواء نذر مقاومة على مستوى الدولى والإقليمى وفى الجوار.

بدأت فاطمة مقاومتها بطريقتها الخاصة، وهى أن تواصل عملها الإنسانى تجاه المعوقين الذين التزمت برعايتهم. كان الموقف مرعبا فقد رحل معظم الأطباء والمرضى وانقطعت إمدادات الادوية والغذاء، وبدأت هذه المخلوقات غاية فى التعاسة، فقد تخلى عنها كل الذين تعودت أن تعتمد عليهم فهى لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تنظف نفسها .وتولت فاطمة هذا الأمر هى ومجموعة من صديقاتها، بدأت تنقل الطعام والأدوية وأدوات التنظيف..وتداوم الاتصال بالأطباء وتحافظ على الإنارة والمياه وتدفع الجنود العراقيين المتلصصين وتخبيء كل ما تعتقد أنه جدير بالسرقة بواسطة

جنود الاحتلال . كان هاجسها الأساسي هو ألا تدع هؤلاء المعوقين يذوون من الإهمال ويدفنون في صمت عجزهم . وفي الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٩٠ أوقفتها مجموعة تفتيش حول أحد المحاور، واكتشفوا معها كمية كبيرة ومتنوعة من الأدوية والأطعمة المحفوظة. وكان أول ما تبادر إلى أذهان الجنود أنها تنقل هذه الأشياء لرجال المقاومة، لم يقبلوا منها أى عذر، ولم يقتنعوا بأى مبرر، وكانت الأدوية فى نظرهم لاتقل خطورة عن الأسلحة المهربة. وهكذا اقتادوها إلى أحد مراكز الاعتقال، لابد أن التحقيق كان قاسيا ومريرا فبعد ثلاثة أيام أخذوها إلى منزلها وهى بين الحياة والموت، ودعوا أبويها وجيرانها إلى الخروج من المنزل وعلى رأى من رأى منهم ومن بقية أهالى الحى شدوا فاطمة بملابسها الممزقة إلى أحد أعمدة النور، وتقدم ثلاثة من الجنود ومزقوا جسدها بالرصاص تحت أعين الجميع.

كان الجميع شهودا على مجزرة هذه الفتاة وكانوا يعرفون كيف بذلت من ذات نفسها من أجل الآخرين، لذا كانت قتلتها مروعة مثيرة للفرع والخوف.

العراق ونزيف الخسائر:

لماذا أتذكر هذه القصة الآن، ولماذا سوف أظل أتذكرها؟
ليس فقط لمجرد إثارة العاطفة أو للتباكى على مصير هذه

الفتاة التعسة التي تولاها الله برحمته، ولكن لأن حكايتها هي تجسيد حي لمرض الاحتلال .. اغتصاب أراضي الآخرين وبيوتهم تحت وطأة الاحتلال، وهو مرض يشوه الجميع ويصيب برذاذه القاتل أعماق النفس الإنسانية . فكل الفظاعات التي ارتكبها جنود الاحتلال سواء أثناء الحكم النازي أو في الأراضي العربية المحتلة أو أثناء الغزو العراقي للكويت، تجعل الجنود يتصرفون بوحشية أكثر من حد احتمال النفس البشرية وبعض الجنود يظلون يعانون من كوابيس هذه الأعمال لفترات طويلة . وهكذا نجد أن الجلاء وضحيته في حاجة .. معا - إلى العلاج، فالإحساس بالذنب والخوف المبالغ فيه من الضحية . وإحساسه بأنه قد تحول إلى قوة قاهرة تنزع الأمان عن الآخرين كل هذا كفيل بأن ينزع الأمان من نفس المحتل ويحول تصرفاته إلى أشبه بالتخبطات الحيوانية بعد أن افتقدت المنطق الإنساني .

ولن تستطيع تجنب تكرار مثل هذه المأسى إلا بتحكيم العقل وتوجيه النقد القاسى إلى النفس قبل أن توجهه إلى الآخرين . ولعلنا نتساءل - حتى لا يحدث ما حدث مرة أخرى - ما الذى دفع النظام العراقى للقيام بالغزو؟ إنه سؤال لا يبدو قديما كما يتبادر إلى الذهن، فقد تكشفت الصورة الآن، وزالت كل مبالغات الانفعال لتترك الفرصة للحقائق الباردة كي تعبر عن

نفسها، هل كانت حقاً دوافعه هي ما زعمه النظام من أن الكويت - وبقية الخليج - قد زادوا من إنتاجهم النفطي بحيث أوصلوا أسعار النفط إلى الحضيض؟ وهل كان هدف النظام - كما زعم - هو إعادة توزيع الثروة؟

قبل وقوع الاحتلال مباشرة، أوردت وكالة رويتر تقريراً مهماً عن خسائر العراق في الحرب العراقية الإيرانية، وكانت جملتها حوالي ١٥٠ بليون دولار، ثمن الأسلحة والذخائر، وبلغ الاقتراض العراقي الخارجى «غير العربى» ٣٥ بليون دولار، ومثل الاقتراض العربى من السعودية والكويت رقماً مماثلاً.

وكان على العراق أن يغطى ذلك الثمن الباهظ الذى تستهلكه آتة العسكرية، لذلك فقد قرر أن يرفع مستوى إنتاجه النفطى إلى أعلى سقف ممكن للإنتاج، وقد أعطته الأوبك حصة عالية تبلغ ٢.٨ مليون مليون برميل يومياً تحت مبرر احتياجاته الشديدة، ولكن الطاقة التصديرية العراقية وقتها كانت تصل إلى الضعف تقريباً وتتراوح بين ٤-٥ مليون برميل يومياً - وفى ظل هذا السباق المحموم للإنتاج هبطت الأسعار إلى أدنى مستوى لها.

وبعد انتهاء الحرب مع إيران واجه العراق أزمة من نوع جديد، هي عودة آلاف المجندين وتوقف عمليات التنمية وهروب الاستثمارات الأجنبية، وكان التحدى الذى يجب أن يواجهه

هو إحداث نقلة نوعية فى إدارة الاقتصاد تكفل له حسن استخدام الموارد، بحيث تنقل الدولة من الاقتصاد العسكرى إلى المدنى، ولكن هذا الأمر لم يكن مقبولا من وجهة النظر السياسية، فقد كان مطلوبا لتحقيق ذلك نوع من الانفتاح السياسى والتعددية وتخفيف قبضة الديكتاتورية بحيث يمكن كسب ثقة المستثمرين الخارجيين وأن يستعيد القطاع الخاص عافيته، وكل هذا يعنى فى نهاية الأمر فقدان السلطة على حد تصور النظام الحاكم، وكان هذا هو المستحيل بالنسبة له.

وليست الحرب فقط هى التى أحدثت كل هذه التشوهات فى بنيان الاقتصاد العراقى، فالنظرة الأحادية للديكتاتورية جعلت كل الاحتمالات تسير فى الاتجاه الخاطىء بحيث دفعت البلاد إلى حافة الهاوية.

فقد كان عدد سكان العراق عام ١٩٧٠ حوالى ٩,٥ مليون نسمة، وارتفع حسب إحصائيات ١٩٨٧ إلى أكثر من ١٦ مليوناً بزيادة قدرها ٣.٣ - ٣.٥٪ سنوياً وهى واحدة من أعلى النسب فى العالم، وكان جزء من الدوافع وراء هذه الزيادة سياسياً، فقد شعر النظام أن كبر حجم السكان هو الاتجاه الأفضل لتلقيح ماكينه الحرب، وكأن القضية فى نهاية القرن العشرين هى قضية عدد وليس نوعية، وتحول الأمر من منع تعدد الزوجات بموجب قانون إلى إباحة هذا الأمر وتحبيذه بواسطة

قانون آخر.

وفى مواجهة هذه الزيادة فى عدد السكان لم يكن فى خطط النظام العراقى أى نية لتطوير الإنتاج أو تنويع النشاط الاقتصادى، بل إن المؤسسة العسكرية لعبت دورها المدمر فى إهدار الطاقات العراقية، حيث أفرغت الطاقات المؤهلة بالتعليم من كفاءتها وقدرتها على كسب المهارات وشنت الحروب غير المبررة كى تقضى عمليا ونفسيا على ملكات التعليم المهنى لدى الأفراد.

وهكذا نمت فى مخيلة النظام العراقى أوهام أوصلته إلى أن دخوله الكويت هو الحل الوحيد لكل مشاكله المتفاقمة ، أو أنه البديل الواقعى للأزمة الاقتصادية والسياسية الطاحنة التى يواجهها ، حتى أن سعدون حمادى نائب رئيس الوزراء العراقى فى ذلك الوقت تحدث إبان الاحتلال العراقى للكويت عن «القدرات الاقتصادية الهائلة التى أصبح العراق يمتلكها بفضل الاحتلال» .

هكذا بدأت الكارثة بمثل هذه التخيلات المرضية .. وتواصلت وراء الإصرار الأعمى من دمار البنية الأساسية إلى حريق النفط إلى نزيف البشر دون أى مراجعة للنفس حتى هذه اللحظة .

ولن أركز هنا على الخسائر المادية التى منيت بها الكويت،

وهى كثيرة ، ولا الخسائر النفسية والاجتماعية التى أصيب بها أفراد الشعب وهى جسيمة ، ولكن لنر المسألة فى إطارها الأوسع فى تلك الخسارة الاقتصادية والسياسية التى أصابت معظم البلدان العربية بسبب هذا الغزو.

العالم العربى وخسائره الباهظة :

تفيد تقارير صندوق النقد الدولى أن خسارة البلاد العربية من جراء الاحتلال العراقى للكويت بشكل مباشر أو غير مباشر تفوق قيمتها ٦٥٠ بليون دولار ، أو ما يكفى لبناء ٢٥٠ مليون منزل تسع ملايين الأسر العربية ، وهذا المبلغ يعادل قيمة كل الأموال العربية المستثمرة فى الخارج .

لقد أدت هذه الخسائر الى تداعيات كثيرة دفعت الأوضاع الاقتصادية إلى الوراء وخلقت فى البلاد العربية ضغوطا مالية أدت إلى تباطؤ النشاط الاقتصادى بشكل عام والاستثمارى بشكل خاص ، وأصبحت المنطقة العربية بالنسبة إلى العالم الخارجى وفق المنطق الاستثمارى منطقة «ذات مخاطر» والتنمية فيها غير مأمونة ، ووضعت ظلال من الشك حتى على العملة العربية حيث بدأت بعض البنوك وأسواق المال العالمية فى التحفظ على التعامل بها .

وقد تأثرت دول بعينها بأيام الاحتلال الطويلة ، فحسب تقرير البنك الدولى فإن مصر وحدها قد انخفضت مواردها

من النقد الأجنبي عام ١١ بنسبة ٣٠٪ دفعة واحدة من جراء
فقد التحويلات النقدية الخارجية ، بجانب انخفاض إيرادات
السياحة وقناة السويس .

وقد بلغ إجمالي خسارة مصر ولبنان والأردن وسوريا
وفلسطين المحتلة حوالي ٢ ، بليون دولار ، بسبب عودة مليوني
عامل إلى بلادهم من النشطين اقتصاديا فما بالك بالعدد
الكلي للعائلات المختلفة .

هذا هو الجانب المنظور فقط من الخسارة ، غير أن هناك
جوانب أخرى غير قابلة للحساب والتقدير ، فقد اهتز النظام
العربي ، وأصبحت العلاقات العربية - العربية إصابات
مباشرة ، وحلقت في سماء المنطق ظلال الشك والتخوف
والحذر ، ولقد كشفت أزمة الخليج ضمن ما كشفت عن
هشاشة النظام الأمني العربي وطفولية اتخاذ القرار السياسي
المصري ، وجعلت المنطقة برمتها نهبا لأطماع الآخرين .

ماذا أخذت التجربة من الكويت :

ربما كان هذا رقدا مطولا لنزيف الخسائر الذي ما زال
مستمرا ، وكان من الممكن أن نتجنب مثل هذا الرصد المؤلم لو
أن خالق الأزمة والمتسببين فيها قد راجعوا أنفسهم ووجهوا
إليها بعضا من النقد الذاتي ، وكان من الممكن الرثاء لحالة
العراق الذي ما زال يعيش تحت حالة الحصار لولا إصرار

قادة نظامه على ممارسة نفس الأساليب الديكتاتورية الشرسة، فهو مازال حتى الآن لا يعترف بوجود الأسرى الكويتيين لديه، قبل ذلك لم يعترف أيضا بوجود الأسرى الإيرانيين، كأنما لا يكفيه ملايين العراقيين المعتقلين تحت قبضته، وما زال يرواغ في الاعتراف بترسيم الحدود العراقية الكويتية الذي أقرته الأمم المتحدة، وما زالت التضاريس العراقية وشعاب الجبال تكشف عن المزيد من مخابيء الأسلحة الكيميائية وبالتالي مازال الحصار متواصلا.

وإذا كنا قد ألقينا هذه النظرات المطولة على كل ما يحيط بهذه الأزمة وملابساتها التي ما زالت آثارها مستمرة، فإن الحديث يستلزم أيضا نظرة مطولة وتحليلية على البيت الكويتي من الداخل، وعلى آثار الأزمة وتداعياتها.

إنها آثار بعضها واضح غاية الوضوح وبعضها رابض تحت الجلد الكويتي الذي التهب وسط أتون الأزمة، وما زال يعالج جراحها حتى الآن . ولعل السؤال الذي يفرض نفسه الآن على الجميع هو؟ ماذا أخذت منا التجربة وماذا أبقت؟

سؤال حائري دور في أذهان أهل الكويت بعد سنوات ثلاث من عمر التحرير. ودائما ما تبقى هذه الأسئلة التي تعلق بالمصير والهوية والانتماء تحيط بها الحيرة. فهي ترسم ملامح الكويت - الدولة، والكويت - الانتماء، والكويت - الناس وكل

ملمح من هذه الملامح يثير إشكالية خاصة.

فالكويت - الدولة تعودت دائما أن يكون دورها السياسى أكبر من حجمها الجغرافى، وما يحدث الآن هو محاولة لتقويم طموح هذا الأمر . وكما قال سمو أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح فى إحدى خطبه: «لكى تكون خطواتنا نحو أهدافنا ثابتة، فعلىنا أن نتوخى الواقعية، وأن ندرك حجمنا، وأن تكون طموحاتنا فى حدود قدراتنا حتى لا نصاب بخيبة أمل، وأن تكون تطلعاتنا فى حدود إمكانياتنا حتى لا نشعر بالإحباط، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه» فهل تعود الكويت إلى زمن الدولة - الديرة حيث كانت الأمور أكثر بساطة وأقل تعقيدا؟ أم عليها أن تظل تمارس الدولة - الدور بكل ما يحمله هذا الأمر من تبعات؟

والكويت - الانتماء عملت دائما على أن تكون وسيطا وعاملا مهدئا بين كل الخلافات العربية - العربية، التى كثيرا ما تثور ونادرا ما تهدأ وها هى الآن تجد نفسها رغما عنها طرفا فى واحدة من أشد هذه الخلافات مرارة. فهل يمكن أن تضمد جراحها وتعلو على ألامها وتعود إلى زمن التوازن مهما كان حرجا .. وكيف يتأتى لها أن تتجاهل أنه على حدودها الشمالية يربض جار حائق وطامع لا يريد أن يستمع إلى صوت العقل رغم كل ما أريق من دماء

وما احترق من أمال؟

والكويت .. الناس ألفت ربح الديمقراطية مهما كانت لافحة، فلا يكفي ذلك البرلمان الذى أقرته جموع الناخبين تحت اسم مجلس الأمة، ولكن تجربتها الديمقراطية تمتد إلى عشرات البرلمانات الصغيرة التى تأخذ كل ليلة شكل «الديوانيات» ويكون للمناقشات التى تدور فيها نفس التأثير الذى يحدثه البرلمان الكبير على صانع القرار، وفى كل هذه المقتديات لا يطرح الناس أسئلتهم حول مؤسسات الدولة الحاضرة فحسب، ولكن النقاش يمتد أيضاً ليشمل كل المؤسسات المستقبلية التى كان طموح الكويت أن تنفذ من خلالها إلى عالم الغد.

فهل يمكن أن تتنفس الكويت ربح الديمقراطية الطيبة دون أن تحرق أصابعها فى رمضائها المحرقة؟
أسئلة حائرة الإجابة عنها لا تبتغى الراحة المؤقتة أو اليقين الزائف بقدر ما تسعى إلى سبر أغوار الحقيقة، مهما كانت قاسية على النفس.

الكويت تغيرت :

هل تغيرت الكويت كثيراً؟ وهل استطاعت أن تستعيد ملامحها القديمة؟

سؤال أواجهه كلما سافرت إلى الخارج فى مؤتمر أو ندوة

علمية، وهو سؤال يحمل أحياناً نوعاً من محاولة الاطمئنان، وأحياناً يكمن في طياته نوع من التشفي الخفى. وتكون الإجابة بعد ثلاث سنوات من الغزو: «لقد تغيرت ولم تتغير» لأنه لا شيء يعود لسابق عهده القديم.

في كل مكان بالكويت يوجد شعاران .. الأول هو شعار فرحة التحرير «الكويت حرة» والثاني شعار مازال يعبر عن آثار الحزن الإنساني الذي مازال باقياً وهو «أين أسراننا؟» وما بين الشعارين تعيش أزمة من انعدام الثقة لا يبدو أنها سوف تنتهى بسهولة.

فعلى المستوى الخارجى مازال النظام العراقى يواصل تهديداته واختراقاته للحدود. ولا تزال أصداًء أجهزته الإعلامية تصم أذان أهل الكويت وأشقائهم العرب وعلى امتداد الساحة الدولية تؤكد أطماعها وتواصل تهديدات العودة إلى الغزو من جديد .. آلة جهنمية مشحونة بكل نوايا الشر والعدوان موجهة ضد شعب صغير ورقعة ضيقة من الأرض تحاول أن تنزع أمنها الخاص ليلاً ونهاراً.

وعلى المستوى الداخلى هناك افتقاد لروح العمل الجاد الذى ولدته ظروف الاحتلال فى نفس الإنسان الكويتى فخلال هذه الأيام العصيبة لجأ آلاف من الكويتيين إلى العمل

اليدوى، وبرزت بينهم درجة عالية من روح التعاون والاندفاع إلى العمل التكافلى والتطوعى، وكان الهدف الأساسى من وراء هذا هو الإبقاء على درجة «تشغيل» الدولة والدفاع عن الوجود والبقاء ضد محاولات التغيير والطرء إلى الخارج. إن هذه الروح التى كانت طفرة ونقطة أساسية قد ربطت تلك الأجيال الحالية بروح الماضى البعيد عندما كان أهل الكويت ينزعون رزقهم من ركوب الخطر مسافرين بعيدا فى مراكبهم الشراعية أو غوصا فى أعماق الخليج.

هذه الروح مهددة بالضىاع وفى ظل مشاعر الخوف والتوتر تمتد آثار الصدمة كى تقضى على كل ما هو إيجابى والذى يمكن أن تخلفه أى تجربة إنسانية مهما كان ثمنها فادحا.

ولا يمكننا إنكار أن المستوى الاقتصادى الذى تعود عليه أهل الكويت والوافدون بها قد تغير بعض الشئ، فبالإضافة إلى فاتورة الحرب الباهظة، وكلفة إعادة البناء فإن إنتاج النفط لم يعد بعد إلى مستواه الطبيعى قبل الغزو، ولم تعط الأسعار المردود المتوقع منها، ولكل هذا تأثيره الحاد على عمل الدولة وعلى نظرتها للمستقبل. إن تقرير صندوق النقد الدولى يدعو الكويت إلى تخفيض الرواتب وزيادة أسعار الوقود ووضع أسعار للخدمات التى تقدمها الدولة بالمجان مثل

الصحة والتعليم والاتصالات، ولكن الحكومة لا تريد أن تلجأ إلى هذه الوسائل الآن، على حد التعبير القائل «إننا نستطيع أن نقطع من الدهن، ولكن كيف يمكن أن نمس العظم؟»، وهذا ما دعا سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح إلى اتخاذ إجراءات فعالة قال عنها: «لقد تم تكليف الجهات المختصة بإعداد دراسة وافية للوضع الاقتصادي في البلاد لمواجهة العجز في ميزانية الدولة مع مراعاة الظروف المعيشية لأصحاب الدخل المحدود، لإنعاش الاقتصاد الوطني واسترداد عافيته».

فهل يمكن أن تعود مرة أخرى لمجيب عن سؤال: هل تغيرت الكويت؟ إنها نفس «الديرة» العزيزة ذات التوجة العربى الاصيل. ولكنها تعاني من جروح عربية كثيرة وهى تحاول أن تتغلب عليها، وربما تستطيع خلال هذا أن تعيد اكتشاف نفسها وأن تواصل الإجابة عن الأسئلة الصعبة المطروحة عليها.

ريح الديمقراطية الساخنة :

تطرح الديمقراطية نفسها كقضية ساخنة على الساحة الكويتية وفى كل الأوقات كانت هذه التجربة تكتسب سخونتها من حرارة الجو ومن الاختلاف فى الآراء والاجتهادات فى الرؤى ولكن من يراقب تجربة مجلس الأمة الحالى الذى يحمل الرقم سبعة والذى تم انتخابه منذ أكثر من عام

تقريباً يكتشف أن درجة السخونة بالغة الارتفاع هذه المرة.
إنها مسيرة طويلة أخذت جذورها من تراث الحكم العربى
الرابض فى هذه المنطقة.

وإذا كنا نتمسك أحياناً بالمصطلح الغربى الذى يتحدث عن
حكم الشعب بالشعب، فإن الديمقراطية فى الكويت تستمد
الكثير من أصولها من مبدأ الشورى الإسلامى. وهو الأمر
الذى يبرر كثيراً عوامل نشأتها وربما يوضح أيضاً الدروب
التي سارت فيها فيما بعد.

ففى أتون محنة الغزو العراقى للكويت وبين أخبار تحركات
الجيش والأساطيل وصرخات القتال برزت الديمقراطية
كقيمة أساسية ومستقبلية أيضاً فعلى مدى يومين وفى الفترة
من ١٣ إلى ١٥/١٠/١٩٩٠ اجتمع ما يزيد على ٥٤٠ شخصية
قيادية كويتية، فكرية واجتماعية واقتصادية وإدارية، فى
مؤتمر شعبى فى مدينة جدة بالملكة العربية السعودية،
ليعلنوا تمسكهم بالشرعية الدستورية وليضعوا معاً تصوراً
لبناء كويت جديدة.

كان هذا المؤتمر الذى عقده الأمير وولى عهده مع هذه
الشخصيات الكويتية المختارة بمثابة عقد جديد، يعيد إحياء
كل التعاقدات السابقة التى أبرمت بين حكام الكويت وشعبها
يعلن الأولون تمسكهم بالشرعية والدستور.

ويعود هذا التقليد إلى حوالي ٧٠ عاماً إلى الوراء مع بذور الديمقراطية الأولى، عندما تنادى كبار التجار والأعيان في الكويت في فبراير من عام ١٩٢١ إلى اجتماع للنظر بشأن المشاركة الشعبية في إدارة شئون بلادهم، لقد أصدروا وثيقة أشبه «بالمأجنا كارتا» الانجليزية تحدد هذه العلاقة بين الأمير ورعيته، وتمخض عنها قيام أول مجلس للشورى عام ١٩٢١ وتبعه قيام المجلس التشريعي عام ١٩٣٨، ثم تلتها التجربة الديمقراطية الحديثة.

هذا التقليد الكويتي أثبت أنه مازال مرعياً حتى وسط أحلك الظروف. وهو اليوم يؤكد نفسه من خلال هذه المناقشات الساخنة التي تتعرض لتداخل السلطات ومحاسبة الوزراء ومناقشة الاستثمارات الكويتية في الخارج.

ومهما شطت هذه المناقشات فقد أثبتت تجربة الطائف أن أساس فكرة الشرعية الدستورية راسخ في أعماق النخبة الكويتية، وأن مبدأ تبادل الحوار ولو كان ذلك بالصراخ أحياناً له إقراره في ضمير الحاكم والمحكوم لأنهما أسرة واحدة.

جرح العلاقات العربية:

«لقد حطموا الجامعة العربية، وزادوا الفرقة، وأبعدوا المصالحات. وقبل أي مصالحات كان يجب أن نحل مشاكلنا

ولم نفعل شيئاً من ذلك حتى الآن».

هذه بعض كلمات الشيخ صباح الاحمد النائب الاول لرئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي، وأقدم وزير خارجية عربي. لقد عاش الرجل كل المحن العربية وكان عاملاً للوساطة في معظمها، ولكن محنة الوطن الكويتي كانت أمرها على النفس، لأنها حولته إلى طرف متشابك لا يقدر كر الليالي على مداواة جروحه .

فلم تشق قضية الكويت الوطن العربي فقط، ولكنها شقت المنطق العربي والعقل العربي أيضاً. فلم يتعرض العرب في تاريخهم الحديث إلى قضية بهذا الوضوح والحسم، ومع ذلك لم تكثر البلبلة والشكوك والاختلافات حول قضية مثلما كثرت حول هذه القضية.

ومشكلة الكويت أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس، فقد اكتشف أن العديد من الدول العربية التي طالما وقفت معها في نفس الخندق أصبحت تقف ضدها، وأصبح عليها أن تضع تسمية جديدة للوطن العربي تقسمه إلى نصفين: نصف الـ«مع»، ونصف الـ«ضد». وهي تسمية لم يرض عنها الكثير من المثقفين الكويتيين الذين كانوا يودون بشدة عبور نفق الأزمة المظلم، ولكن أحداً لم ينر شمعة هادية حتى الآن.

لقد كانت أصوات الشعب الكويتي والإدارة الكويتية متشددة في أول الأمر، كانت تصر على أن تقدم كل دول الضد اعتذار رسميا وواضحا عن كل موقفها إبان الأزمة، وفي وقت لم يقدم فيه أي من الأطراف نقدا ذاتيا، فما بالك بالاعتذار؟

بعد ثلاث سنوات خفت حدة التشدد، وبدأ البحث عن معايير موضوعية لعودة هذه العلاقات، فقد طالبت الحكومة الكويتية هذه الدول التي اختلفت عنها بالاعتراف فقط بكل القرارات السبعة والعشرين التي أصدرتها الأمم المتحدة، بما في ذلك قرار ترسيم الحدود بينها وبين العراق. وقد عبر عن هذا الموقف سمو ولي العهد مرة أخرى عندما أكد أن الكويت قادرة على تجاوز مواقف هذه الدول التي انحازت للنظام العراقي «إذا أكدت تأييدها ودعمها لقرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالعدوان العراقي الآثم على الكويت بما في ذلك القرار رقم ٨٣٣ الخاص بترسيم الحدود الكويتية العراقية، وطالبت العراق بالتنفيذ الكامل لجميع تلك القرارات وإطلاق سلاح الأسرى والمرتهنين الكويتيين، أما أولئك الذين ما زالوا على تأييدهم الأعمى للنظام العراقي ضد الكويت رغم انكشاف حقيقته العدوانية وثبوت بطلان مزاعمه، واتضح طبيعته الإجرامية، فإن الشعب الكويتي لن تنسى إساءتهم ولن

يتجاوز مواقفهم المشينه»

والكويت عندما تفعل ذلك لا تطالب فقط بالحق الذى أقرته أكثر من ١٥٠ دولة من دول العالم، ولكنها تسعى أيضا لتضميد الجراح العربية التى طال نزيفها، فهى تدرك أنها جزء من هذه الأمة جزء من «غزية» رشدها بعض من رشد هذه الأمة، أما الغواية فإن ثمنها يكون دائما باهظا.

فاطمة.. وبقية «الفواطم» :

فاطمة الكويتية العربية يجب ألا تغتال مرة أخرى. لا فى الكويت ولا فى أى عاصمة أو مدينة أو قرية عربية. وعلينا أن نتعامل مع خلافاتنا العربية بوعى وعقلانية حتى لا يتكرر هذا الأمر، وحتى نوقف الاغتيالات اليومية التى تتعرض لها «فواطم» الأرض الفلسطينية المحتلة وفواطم الشعب العراقى . هاجس الكويت أنها عربية ولها دور عربى مصرى عليه، وراغبة فيه، وساعية نحوه، وهى على استعداد لأن تتحمل أعباء هذا الدور ولكنها تطالب الآخرين أيضا بأن يساهموا معها فى رفع الأحمال العربية. وما أثقلها .



الكويت والاحتفاء
بالتقافة العربية

وأنا على قرب زمنى من أحداث شهر ثقافى ثرّ عقد فى الكويت بين العشرين من نوفمبر وحتى العشرين من ديسمبر ١٩٩٥ - وهو مهرجان القرن الثقافى الثانى - أردت أن أتحدث هذه المرة فى الثقافة، الثقافة العربية المعاصرة، حديثا خاصا يقود إلى العام، وحديث وطن يقود إلى أوطان، ولكن قبل ذلك دعونى أنقل لكم بعض الشهادات، فقد كتب كاتب عربى مصرى كبير هو المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود معترفا بأنه لولا قدومه للكويت لما أتيح له من الوقت للنظر فى تراث الثقافة العربية القديمة، وقد فعل وترك لنا - رحمه الله - كتابين على الأقل نتيجة هذه الخبرة، هما «هموم المثقفين» و«قشور ولباب».

وعندما كتب كتابه الأخير «غناء البجعة» أعاد ما أكده قبل ذلك. وحتى أنقل للقارئ إحساس هذا الفيلسوف العربى فإننى أنقل ما أشار إليه فى «حصاد السنين» إذ يقول: «وعند تلك الغضبية وما صاحبها من صدر يضيق وقلب أثقلته الهموم تلاقى رأس السنة الهجرية مع رأس السنة الميلادية فى يوم فاستبشر صاحبنا خيرا «يشير إلى نفسه» وإذا بذلك اليوم نفسه يحمل إليه برقية من جامعة الكويت تطلب استعارته لفترة، وهواه الله سبحانه إلى المسارعة بالقبول،

وهناك فى جامعة الكويت وجد الفرصة سانحة لأداء ما كان شديد الرغبة فى أدائه وهو أن يتعقب طريق «العقل» فى تراث العرب الأوائل، وذلك لأنه على يقين من رجحان العقل فى كثير جدا مما شغل به السلف من مشكلات تتصل بالحياة الثقافية». هنا تنتهى شهادة المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود.

أما الشهادة الثانية فهى قادمة من مواطن سورى ومن الكاتب كريم الشيبانى إذ يقول: «فالدور الثقافى للكويت فى الوطن العربى كان كبيرا. وإذا ما أردنا التوقف عند جوانب الشخصية الكويتية فى نوازعها المختلفة يمكننا اختيار جانبين يشكلان عاملين شديدى التأثير، هما: الحس القومى والنزعة الديمقراطية...».

ونختم بشهادة لأحد المثقفين العرب الذى خبر الكويت من الداخل وساهم فى تكوين تدفقها الثقافى العربى وهو الدكتور فؤاد زكريا، إذ يقول: «وأستطيع أن أقول إن التجربة التى أضافتها الكويت فى ميدان الثقافة تعد تجربة ذات سمات فريدة تثبت بوضوح قاطع قدرة الثقافة على تجاوز الحواجز الأيديولوجية، والسير فى طريقها المستقل... ارتكزت تجربة الكويت على التدخل النشط للدولة فى قطاع الثقافة، وكانت

ثمار هذا التدخل إيجابية إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك من أجل فرض وجهات نظر معينة إذ تنعكس على هذا الإنتاج معظم ألوان الطيف الثقافى».

تلك شهادات متعددة المداخل، فمن وقت وفرص للدراسة تتيحها جامعة الكويت للأساتذة الجادين فى تتبع دراساتهم دون تدخل أو فرض، إلى اعتراف بالعناصر الفاعلة لتهيئة جو ثقافى حر ومتشبع بالثوابت، إلى انعكاس ألوان الطيف الثقافية العربية من نقل وعقل، معاصرة وتراث، أنتجت فى النهاية ما يمكن أن نصفه بالواحة الثقافية المزدهرة بين واحات عربية أخرى.

الرافد النشاط :

الثقافة فى الكويت هى جزء من تيار كامل ومتدفق هو الثقافة العربية، وهى رافد من روافدها ولكنه الرافد الأكثر والأرحب ضفافاً، تماثله الحركة الثقافية فى بيروت والقاهرة ودمشق، وهو مع العديد من روافد الثقافة العربية يصب فى هذا النهر المتدفق، ولعل النشاط الثقافى فى الكويت قبل الاحتلال العراقى غيره من حيث المضمون والأهداف بعد التحرير لقد كانت الثقافة فى الغالب قبل ذاك الفاصل الحزين فى تاريخ أمتنا العربية منفعة فأصبحت فاعلة، وكانت

تتعامل مع شعارات جاهزة يميل قطاع منها إلى اليسار الثقافي وقطاع آخر إلى اليمين الثقافي، وأصبحت بعد ذاك التاريخ - كجزء من الثقافة العربية الجديدة - تطرح الأسئلة ولا تكتفى بالمسلمات، تستخدم العقل وتتجنب العاطفة معترفة بقدرة الإنسان العربي على الإضافة واستخدام العقل للتمييز بين الخبيث والطيب.

وفي تجربة مهرجان القرين الثقافي الأولى ١٩٩٤ والثانية ١٩٩٥ صقل لهذا المسار الجديد، فقد التقى على أرض الكويت نخبة من المبدعين العرب في الرواية والقصة والسينما والمسرح، على خلفية معرض كتاب عربي ناجح دولياً، وعلى امتداد مجموعة من الندوات المتخصصة في محاورات جادة لنقل العلاقة بين قطاعات المثقفين العرب من التوتر والصراع إلى الحوار والمشاركة، وإلى صراع الأسئلة وعدم الاكتفاء بالأجوبة الجاهزة، إنه مسار مطلوب من قبل النموذج السائد في الثقافة العربية الآن. لقد استنزفتنا الشعارات السابقة وتحيزنا إلى درجة العمى إلى هذا الطرح أو ذاك، وقد آن لنا أن نرى الواقع كما هو، وأن نستخلص منه العبر والدروس.

وخلف مهرجان القرين. وخلف العديد من إنجازات الكويت

فى مجال الثقافة يوجد جهاز لابد من الإشارة إلى جهوده فى هذا المجال وهو المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الذى يبلغ من العمر الآن ٢٣ عاما استطاع خلالها أن يرسى أسسا واضحة للثقافة والفنون والآداب وأن يصبح جزءا أساسيا من تلك السياسة الثقافية التى تبنتها الكويت. ولقد مثل إنشاء المجلس فى عام ١٩٧٣ إحدى الركائز الأساسية لحلم الكويت بأن يكون لها دور ومنهج فى مسيرة الثقافة العربية، يعرف اسمه جيدا من هم خارج الكويت من خلال المطبوعات التى تحمل اسمه.. أما من فى داخلها فقد كان البعض يفتقد دوره الطموح فى تطوير الفنون ورعايتها، حتى جاء مهرجان القرين الأول والثانى ليترجم نظرتة الشاملة للعملية الثقافية بجوانبها المختلفة، فقد استطاع أن يقدم الكتاب وقيم المعارض التشكيلية ويحيى الليالى المسرحية والموسيقية بجانب الندوات الأدبية التى شارك فيها العديد من رجالات الأدب والثقافة. وبذلك فقد لعب دور وزارة الثقافة المصغرة وهو الدور الذى أنشئ من أجله منذ البداية. وقد ساهم أمينه العام الدكتور سليمان العسكرى فى إعطاء هذا المهرجان بعده التكاملى والقومى أيضا.

الأفكار الممتازة :

تقول الحكمة: إن الأفكار الممتازة ليس لها عمر، فقط لها مستقبل. وأمامنا مجموعة من الأفكار الثقافية الممتازة التي تحتضنها الكويت كإصدارات ثقافية، فبجانب مجلة «العربي» التي تطالع فيها ما تنتجه نخبة المثقفين في الأقطار العربية العديدة دون تمييز إلا الأفضل والأحسن والأجود، هذه المجلة التي تصل بعد أقل من سنتين من الآن للاحتفال بمرور أربعين عاما على إصدارها، وتسعى العربي إلى استعادة الدور الذي كانت تقوم به قبل الغزو، فسوف تصدر قريبا كتاب العربي الذي كان يعد مرجعا لكل المقالات المهمة التي تنشر على صفحات المجلة الأم وكذلك سوف تصدر «العربي الصغير» التي كان المهتمون وخبراء التربية يعتبرونها واحدة من أهم مجلات الأطفال في الوطن العربي، هناك إصدارات أخرى عديدة تتوزع بين جامعة الكويت، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وللتذكير فقط فإن جامعة الكويت تصدر اليوم عشر مجلات علمية متخصصة اثنتان منها بالإنجليزية هما مجلة «العلوم» ومجلة «العلوم الطبية» وثمانى أخريات باللغة العربية هي مجلة «العلوم الاجتماعية»، ومجلة «دراسات الخليج والجزيرة

العربية»، ومجلة «الحقوق»، و«حوليات كلية الآداب»، و«المجلة العربية للعلوم الإنسانية»، ومجلة «الشريعة والدراسات الإسلامية»، و«المجلة التربوية»، و«المجلة العربية للعلوم الإدارية». ويصدر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكتاب الشهرى المنتشر «عالم المعرفة»، والمجلة المتخصصة الفصلية «عالم الفكر»، والعدد الواحد من هذه المجلة كتاب ضخى بحد ذاته وهو مرجع مهم للمتخصصين فى القضايا التى طرحها وي طرحها فى كل عدد. و«سلسلة المسرح العالمى» وهى أضخم مشروع لدعم الثقافة العربية عن طريق ترجمة المسرحيات العالمية، وقد صدر عددها الأول فى أكتوبر ١٩٦٩ وما زالت مستمرة، ثم مجلة «الثقافة العالمية» وتصدر كل شهرين منذ نوفمبر ١٩٨١، وهى مجلة تترجم الجديد فى الثقافة والعلوم وتقدم ما ينشغل به العالم ثقافيا للقارىء العربى.

أما مؤسسة الكويت للتقدم العلمى التى تأسست سنة ١٩٧٦ من أجل (دعم التطور الفكرى والحضارى فى الكويت والأقطار العربية) فهى بجانب تشجيع ودعم مشاريع البحوث والبرامج العلمية الكويتية والعربية والدولية، فإنها تقدم جوائز سنوية تقديرية مجزية للبارزين فى مجالات العلوم والثقافة،

كما تقوم المؤسسة بنشر الكتب والمجلات المتخصصة مساندة لحركة التعريب والترجمة والتأصيل فى البحوث العلمية والاجتماعية.

ويقدم مركز البحوث والدراسات الكويتية مساهمته فى نشر الثقافة العربية من منظور مختلف، فاهتمامه الأساسى ينصب حول إبراز الدور الذى قامت به الكويت فى ماضيها وحاضرها. وقد فرض العدوان العراقى الذى وقع على الكويت عام ١٩٩٠ أولوياته على اهتمامات المركز فأصدر حتى الآن حوالى خمسين كتابا تتناول الكويت وجودا وحضارة وواقعا وشعبا. وقد صدرت بعض هذه الكتب باللغة العربية وترجم العديد منها إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية. وهو يتبنى ترجمة كل إصداراته إلى اللغات الحية بعد أن لمس إقبالا متزايدا على منشوراته.

وهناك العديد من المؤسسات غير الرسمية التى ترعى الثقافة العربية فى الكويت، وتضيف إليها الجديد والمبتكر. ولأن هذه الأفكار - كما قلنا - هى أفكار ممتازة فإن تطلعها إلى المستقبل لإثراء الثقافة العربية - مع روافد عربية أخرى - قابل للتوسع والنمو.

وتكاد تكون هذه الإصدارات نموذجا رائعا للعمل العربى

الثقافى المشترك، فالكويت تتحمل مسئولية تمويل هذه الإصدارات والأنشطة، فيما يشارك فى إنتاج هذه الخدمة الثقافية جميع المثقفين العرب من كل الأقطار العربية تقريبا، وبينهم بالطبع مثقفو الكويت والخليج العربى لتقديم هذه الإصدارات للقارئ العربى وكل قارئ للعربية، فتصل إليه فى مدينته وقريته عبر شبكة توزيع حديثة وبسعر رمزى زهيد. بجانب ذلك فإن هناك حصيلة معرفية ناتجة عن المؤتمرات والندوات الثقافية والفنية التى تؤمها نخبة من كبار المثقفين ليناقشوا أهم القضايا الفكرية والثقافية والفنية والأبحاث والدراسات. وهو زاد وفير للثقافة العربية ولو جمعناه وصنفناه لرسم خريطة حقيقية لحركة الثقافة فى العقود الثلاثة أو الأربعة المنصرمة، لكان مرشدا لمن أراد استنباط الجوهرى والعام والمشارك فى الثقافة العربية حتى لا نعيد إنتاج ما سبق أن أنتجناه، بل نبدأ من حيث انتهت الجهود السابقة، ولتكون هذه الخريطة بمنزلة مرآة تعكس بصدق تطور الثقافة والفكر بلا قيود، وأساسا لبناء نوع من التراكم الكيفى فنعرف أين نقف من الماضى ومن الحاضر ونستشرف طريق المستقبل.

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هو: لماذا اختارت الكويت

الاضطلاع بهذا الدور؟ هل يعود السبب إلى بنية الإنسان الكويتي نفسه، ورغبته في الانتماء وإحساسه القديم بالديمقراطية؟.

إن الكويت تلك الدولة الصغيرة في أطراف العالم العربى كانت تبحث دوما عن شرايين متدفقة تربطها بالجسد العربى الكبير وليس أفضل من شرايين الثقافة التى تستخدم اللغة المشتركة والتوجه المشترك دون أن تقع فريسة للتناقضات السياسية والفروق الاقتصادية.

وقد ساهم فى صنع هذا التوجه العديد من مثقفى الكويت ورجالاتها من ذوى التوجه القومى الذين أكملوا دراساتهم العليا فى العديد من العواصم العربية الحافلة وعادوا يحملون فى أعماقهم قبسا من زخمها الثقافى. إن هذه التجربة لم تُثَرِ فقط أفاقهم الفكرية ولكنها أزالَت كثيرا من الحواجز التى تحيط بالروح. لقد أحسوا دوما بأنهم جزء من كل شامل وأن عليهم جميعا أن يتشاركوا فى التوزيع العادل للثروة الثقافية. على حد تعبير الدكتور فؤاد زكريا - كما أن الحس الديمقراطى الأصيل فى داخل نفس كل كويتي جعل من طرح هذه الثقافة وجعلها حقا للجميع أمرا فعليا. وإذا كانت المخطوطة هى تجسيدا لثقافة النخبة، فإن انتشار الكتاب هو أفضل دليل على ديمقراطية الثقافة.

لقد آمنوا بأن الكتاب هو وسيلتهم لتوحيد المثقفين العرب والارتفاع بمستوى اللغة العربية وأداة للتنوير الحضارى.

الوسائل الاستراتيجية للثقافة :

الثقافة لها وسائلها، منها الوسائل التكتيكية، والوسائل الاستراتيجية، وفى ظنى أن الوسائل التكتيكية هى التليفزيون والإذاعة والأشرطة، وهى تكتيكية لأن تأثيرها مؤقت أو قل غير دائم، إنها الثقافة العابرة أو ثقافة اللحظة، أما وسائل الثقافة الاستراتيجية فهى الكتاب والمجلة وإلى حد ما الجريدة، حيث إنها - أى الأخيرة - تقع فى منزلة بين المنزلتين. الكتاب والمجلة فى واقعنا العربى محدودا الانتشار، بل إن مفاجأة أصبت بها عندما علمت فى إحدى الندوات المتخصصة التى عقدت هذا العام فى إطار مهرجان القرين الثقافى وهى (ندوة حقوق النشر والتأليف فى الوطن العربى) أن مجموعة ما يصدر من عناوين فى الوطن العربى من أقصاه إلى أقصاه لا يتجاوز العشرة آلاف عنوان فى العام، وهذا عدد ضئيل جدا يُشعر المهتم بالثقافة العربية بالحسرة، وإذا أضفنا إلى هذه الحسرة أن العديد من هذه الكتب لا تعبر الحدود بين بلاد المنشأ وبلاد الطلب، وإذا أضفنا كذلك أن بعضها لا يرقى إلى مستوى التأليف العلمى المطلوب أو غير مطبوع طباعة جيدة تتضاعف الحسرات مرات.

ولقد تنبّهت الكويت منذ فترة طويلة لأهمية وضع خطة شاملة للثقافة فاستضافت على مدى عامين - وبالتعاون مع الجامعة العربية في مطلع السبعينيات - مشروعاً لدراسة وضع هذه الخطة شارك فيه نخبة كبيرة من المثقفين العرب في تخصصات كثيرة، ولعلّ لا أجد عبارة دالة على ضخامة المشروع الحيوى والضخم إلّا تلك التى نقلها الدكتور محمد حسن عبد الله عن محبى الدين صابر وكان الأخير هو الرجل الأول فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) إذ قال: «إن هذا الجهد التاريخى الذى ظل حلماً قومياً غالياً فاستوى عملاً صالحاً، امتلكت به الأمة العربية - وهى تواصل مسيرة التقدم الحضارى - وثيقة فكرية بينة، فى هذا المستوى للثقافة العربية».

لقد صدرت هذه الخطة فى ستة مجلدات، وكان خلفها ومحركها مثقف عربى كويتى بارز هو الأستاذ عبد العزيز حسين، شفاه الله. ولقد كانت محاولة جادة لرصد التحولات الكبرى فى العالم وتأثيرها فى المجتمعات العربية، فقد كان هاجس القائمين على وضع تلك الخطة هو الفجوة التى تتسع بين الثقافة العربية والثقافة العالمية، ومع ثورة الاتصال التى ضربت الوطن العربى فى التسعينيات كانت تلك الخطة الإنذار

الأول الذى طالب فى خمسة محاور بحفظ الهوية الثقافية، وإبداع الثقافة وقيمها وإدارتها إدارة حديثة وربطها بالثقافة العالمية.

لقد كانت خطة طموحاً وستبقى وثيقة تاريخية لمن يتمكن من قراءتها وتحليلها.

لقد قالت تلك الخطة فى معوقات الثقافة العربية وسبل تطويرها ما لا يستطيع فصيح الزيادة عليه، إلا أن المؤسف أن هذه الخطة الطموح لم تترجم إلى عمل فى كثير من الدول العربية.

اكتشفت تلك الخطة فى مقدماتها ومضمونها أن الفكر العربى - وقتها - لا يعبر عن الواقع الحقيقى المعيش. لقد كانت شعارات عالية الرنين دون نتيجة تذكر على الأرض، وكأن معظم المفكرين العرب يعبرون عن واقع آخر، واقع حلم وصعيد خيال، وما حدث بعد الكارثة سنة ١٩٩٠ هو ما حذرت منه الخطة الشاملة، واكتشفه البعض واقعا بعد فوات الأوان.

الحقوق الثقافية :

العالم لا يتوقف، فاهتمام البشرية بالثقافة كان وسيظل موجودا ويكفى أن نشير إلى أن الثقافة أصبحت من الحقوق

التي تحرص عليها الشعوب ولها إعلانات وديساتير، كما هي حقوق الإنسان، فهي جزء من حرياته، ولعلني أذكر أن إعلانا عالميا للثقافة صدر في مكسيكو في أواخر سنة ١٩٨٢، حدد الثقافة في إحدى فقراته بالآتي:

(إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائنا يتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية، والقدرة على النقد، والالتزام الأخلاقي، وعن طريقها - الثقافة - نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والترف على ذاته..).

وتقوم على خدمة الثقافة في مجتمعات أخرى العديد من الإصدارات الرصينة والمنشورة - وتتسابق فيما بينها - حتى في الثقافة الواحدة. وإن أخذنا على سبيل المثال الثقافة باللغة الإنجليزية فإننا نجد أن هناك مصدرين يتنافسان: الأول المصدر البريطاني والثاني المصدر الأمريكي، فإن كان الإنجليز كما هو معلوم - ومتفق عليه - ويتميزون في فكرهم بالتقريبية أو الاحتمالية التي تناسب إدراكات الحواس وهي الإدراكات التي يعولون عليها، فإن الأمريكيين قد بنوا فكرهم على قاعدة المنفعة، فالفكرة تقاس بنفعها، فهي صواب إن نفعت وهي خطأ إن لم تنفع، والكفة في هذه الثقافة المشتركة

تميل إلى الإنتاج الأمريكى، فالمجلات الخمس الأكثر رواجاً فى بريطانيا الثالثة والرابعة منها أمريكيتان هما: «ريدر دايجست» (المختار) و«الفاشيونال جوغرافيك» (المجلة الجغرافية)، فى حين أن الأولى والثانية والخامسة هى مجلات تسلية، وهى على التوالى: مجلة الراديو، ومجلة التليفزيون، ومجلة السيارات! وكان الإنجليز يتهمون الأمريكيين حتى وقت متأخر بأنه ليس لديهم تاريخ ولا طبقات ولا ثقافة! ثم جاءت موجة الأفلام الخيالية! فزاد اتهامهم اتهاماً آخر هو أنه ليس لديهم عقل أيضاً...!!

ولكن هذا التصور كان الخطأ الذى بنى على صورة نمطية تركتها هوليوود، كما هى صورة العربى فى الخليج لدى العربى الآخر هى الصورة التى غرسها خيال آبار النفط. لقد نشطت الحياة الثقافية الأمريكية ونتاجت عنها مجموعة من الأفكار والرؤى المهمة، لقد شغل مثلاً فرانسيس فوكوياما الحياة الثقافية فى العالم فى بداية التسعينيات بأطروحاته «نهاية التاريخ» التى ناقشتها أقلام من كل اللغات الحية تقريباً، والتى ادعى فيها أن صراع الأفكار الذى احتدم عبر التاريخ قد انتهى وأن الديمقراطية الليبرالية لم تنتصر فقط على الشيوعية بل إنها الحقيقة المطلقة للتاريخ لقد سيطرت

التعاريف السياسية الأمريكية على الثقافة السياسية الغربية من «العزل الإيجابي» إلى «ما تحت الطبقة» إلى «الاعتماد المتبادل» و«الرعاية المتبادلة» فقط للإشارة إلى بعض التعابير الثقافية السياسية. وتعج الساحة الثقافية الأمريكية بمجموعة من المجلات الأدبية والثقافية التي أصبحت راسخة ودولية في آن، فمجلة مثل «التايم» توزع أربعة ملايين نسخة في أمريكا في الوقت الذي توزع فيه مجلة مثل «الإيكونوميست» Economist البريطانية أقل من نصف مليون نسخة في بريطانيا (عدا توزيع الاثنين خارجا). «الأميركان سبكتاتور» American Spectator و«نيو ريبليك» New Republic توزعان على التوالي ٣٠٠ و ١٠٠ ألف نسخة، أما مجلة مثل «ناشيونال جيوغرافيك» National Geographic فإن المشتركين المباشرين فيها في الولايات المتحدة ستة عشر مليون قارئ.

باختصار يتحول إنتاج الثقافة وتوزيعها في العالم الغربي المتحدث بالإنجليزية من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، وفارق الإنتاج في الكم كما هو الكيف كبير. إن ذلك لا يمثل تحديا لقطاع من الثقافة الأنجلو سكسونية لقطاع آخر، إنما يمثل تحدي غلبة مكان ما في إنتاج الثقافة على مكان آخر.

وهنا تبرز أهمية المساهمة الثقافية تأصيلاً وترجمة. في الكويت وفي القطاع الأخير تتصدى مؤسسات الدولة بشكل منظم لأخطر القضايا التي تواجه الثقافة العربية ألا وهي الترجمة، فلم تحدث نهضة فكرية في التاريخ لأمة وثقافة ودول في مثل ظروفنا العربية لم تسبقها نهضة في الترجمة.

وقدّمت الكويت جهوداً متميزة في هذا المضمار، فـ «سلسلة المسرح العالمي» هي ترجمات مباشرة واختيارات من أهم ما أنتجه المسرح العالمي. كما أن بعض كتب «عالم المعرفة» هي ترجمة أيضاً، كما أن مجلة «الثقافة العالمية» ترجمة للحديث مما أنتجه الفكر في العلم والإنسانيات والأدب، كما أن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بجانب ترجمتها لبعض أمهات الكتب بشكل غير دوري، فإنها تصدر مجلة «العلوم» المترجمة عن مجلة العلوم الأمريكية، إنها مساهمة لا يدعى أحد أنها كاملة وشاملة لأن هذا الجانب يحتاج إلى تضافر الجهود الرسمية والشعبية في دول عربية عديدة لعمل مشترك، حيث إن مجال الترجمة في بعض مناطقنا العربية وبعض خياراتنا هزيل بل وضار. إن العمل الثقافي المشترك والمطلوب هو في ترجمة أهم الكتب العلمية والأدبية وكتب العلوم الإنسانية ترجمة منضبطة ومحددة التعاريف للاحقة الطفرة المعرفية في

عصرنا هذا، عصر المعلومات، مما يؤدي في النهاية إلى
تعريب العلوم وتعريب التعليم الجامعي الذي يعاني غربة في
بعض أقطارنا.

ولا يقتصر الأمر على الجهود الحكومية في مجال الثقافة
ولكنه يمتد إلى القطاعات الأهلية أيضا ويكفي أن أشير في
هذا الصدد إلى مؤسستين كويتيتين حققنا انتشارا ملحوظا
على مستوى الوطن العربي وأعنى بهما دار سعاد الصباح
ومؤسسة البابطين للإبداع الشعري.

أما دار سعاد الصباح للنشر فقد نشرت حتى الآن سبعة
وثمانين كتابا في مختلف فنون المعرفة والإبداع وقد حظيت
الترجمة منها بنصيب وافر. وهي تستعد الآن لمرحلة جديدة
فيما يسمى بالنشر الثقيل وأعنى به نشر الموسوعات الضخمة
ومنها موسوعة الكويت الثقافية وموسوعة المسح الثقافي،
بالإضافة إلى دورها في إحياء نتاج الرواد من مختلف الدول
العربية.

وتسعى مجموعة من دور النشر الأهلية الأخرى للاستفادة
من أجواء الحريات العامة لرفد عملية النشر بمجموعة متنوعة
من العناوين.

فهل يمتد الدور الثقافي الكويتي إلى عصر المعلومات
والتطور التكنولوجي الذي نعيش فيه؟

لقد تحررت الكتابة والمعلومات من سيطرة الورق وتمردت على أغلفة الكتب الضيقة. وأصبح الدور الآن للاتصال الآلى عن بعد وجلب أى معلومة مهما كانت صعبة. ولكن العديد من الدول والأفراد مازالت تكلفه هذا الاتصال عالية بالنسبة إليهم، لذلك جاءت فكرة الكتاب الإلكتروني حتى تحل محل الكتاب الورقى. فالقرص الوحيد من أقراص الليزر يمكن أن يحتوى على ما يعادل ٢٥٠ ألف صفحة مطبوعة. أى أننا يمكن أن نحصل بواسطة قرص واحد على مكتبة عامة كاملة ومفهرسة أيضا.

وهى ليست كتبا جامدة. ولكنها مرنة تتيح للقارئ فرصة الاختيار والتدخل أحيانا إذا كان يود ذلك. أى أنه يستطيع أن يقطع فقرات من أى كتاب وأن يعيد جمعها فى ترتيب جديد وإضافة أى تعليق عليها. وهذا الكتاب الإلكتروني الجديد يفتح أمامنا آفاقا جديدة من آفاق ديمقراطية الثقافة. وتضاءلت عوائق الوصول إلى المعلومات إلى حد كبير. فهل يمكن أن يمتد دور الكويت للمساهمة فى توفير هذا الكتاب؟ لقد زادت الهوة المعرفية وأصبحت الثقافة رغما عنا وقفا على أجزاء من العالم. فهل يمكن أن تساهم الكويت فى كسر احتكار الكتاب الإلكتروني كما فعلت من قبل مع الكتاب العادى؟

إن جوهر رسالة الكويت الثقافية هو الدعوة إلى تنوير العقل وهو رسالة إنسانية - بعيدة عن الهوى - منفتحة تدعو إلى مستقبل أفضل للحياة العربية، وهي أيضا عربية إسلامية وتشهد تطورا متسارعا يؤكد الحرص الرسمي والشعبي على المساهمة في هذا الحقل، حيث إن نشر الثقافة جزء من رسالة الكويت وأهلها إلى إخوانها وذويهم، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

٩

ثلاث مشاكل
العرب
والمسلمين: بأي
الأوضاع
يبدأ الحل؟

فى الأسبوعين الأخيرين من شهر مايو (أيار) الماضى كنت فى الولايات المتحدة بدعوة من مؤسستين الأولى كانت القيادة المركزية للقوات الأمريكية التى نظمت ندوة سنوية هى الثالثة فى سلسلة ندوات فكرية لمناقشة الأوضاع الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية فى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا - وهى المنطقة الجغرافية التى تهتم بها القيادة المركزية، وهى ساحة عملياتها - وعقدت الندوة فى مدينة تامبا فى ولاية فلوريدا، والثانية من مؤسسة الديمقراطية والتغيير السياسى فى الشرق الأوسط، وهى مؤسسة أهلية تعنى بهذا الأمر فى واشنطن وقدمت أوراق دراسية عديدة فى هاتين الندوتين، من متخصصين، كما أتيح لى فيما بين انعقاد الندوتين الأولى والثانية الوقت كى أقابل العديد من المهتمين بالشأن السياسى من الأمريكان، رسميين وأكاديميين، وكانت حصيلة تلك المساهمات من الندوات واللقاءات بعض الانطباعات التى أريد أن أشارك القارئ فيها.

حروبنا وسلامهم:

بادئ، ندى بدء فإن الهم الأمريكى فى السياسة الخارجية

(*) نشر هذا المقال فى «العربى» العدد ٤٢٨ - يوليو ١٩٩٤ .

هم كبير ومتعدد ويناقش على نطاق واسع فى الولايات المتحدة، وجزء من هذا الهم ما يحدث أو ما سوف يحدث فى الشرق الأوسط وبلاد العرب والمسلمين. ما يجرى فيها وما يجرى حولها، انطلاقاً من اهتمام الولايات المتحدة بالوضع الدولى ككل.

وحتى لا يفهم أحد خطأ أن منطقتنا العربية الإسلامية هى بؤرة اهتمام الولايات المتحدة، فإننى أسارع بالقول، بأن ذلك ليس صحيحاً على إطلاقه، فالولايات المتحدة خرجت بعد نهاية الحرب الباردة - أو ما اصطلح على تسميتها كذلك - وهى تحمل مسئولية دولية كبرى - وحقا أو باطلا، رغبة منها أو بالمصادفة المطلقة - وأصبحت بذلك القوة العالمية الكبرى والوحيدة، ووقع عليها تبعات حفظ الأمن العالمى وهى ليست قادرة عليها قدرة مطلقة وإن كانت رغبة فيها. من هذا المنطلق فإن الولايات المتحدة تهتم بمناطق (التوتر) على أساس الحفاظ على الأمن الدولى، فما بالك إذا كانت هذه المناطق (المتوترة) ومن بينها منطقتنا العربية والإسلامية، تمثل بؤرة مصالح مباشرة للولايات المتحدة سواء كانت هذه المصالح استراتيجية أو اقتصادية أو الاثنين معا؟

هناك أكثر من مستوى يستطيع المتابع أن يرى اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأوسط والعالم الإسلامى من خلاله،

الأول هو مستوى الصحافة اليومية، وهي بالمناسبة - خاصة الصحافة القومية - لها تأثيرها البالغ في رسم الأحداث وتزويد المؤسسات السيائية بالحقائق، وفي بعض الأوقات تكون الحقائق منقوصة. هذا المستوى من الاهتمام كان مُركّزاً - أثناء فترة زيارتي - حول السلام الفلسطيني/ الإسرائيلي، وهموم الحرب الأهلية في اليمن، ثم الاهتمام بالقوى السياسية الإسلامية. وفي المجال الأكاديمي والسياسي، وهو المستوى الثاني، تجد الصدى واضحاً لما تنقله الصحف لكنه أكثر تجذيراً وعمقاً، ويضاف إلى القضايا السابقة على هذا المستوى قضايا مثل الاقتصاد في الدول العربية ومستقبل العلاقات الأمريكية العربية.

ولابد من ملاحظة أن هناك كثرة كاثرة في القطاعين، الأكاديمي، والسياسي، لا تعرف ولا تريد أن تعرف عن الشرق الأوسط والعرب والإسلام، إلا ما يقوله لهم في التو واللحظة مساعدهم (إن كانوا سياسيين) أو ما تنشره الصحف ونشرات أخبار التليفزيون (إن كانوا غير ذلك)، إلا أن القلة المتخصصة في شئون الشرق الأوسط على اطلاع ودراية كافية بتلك الشئون وتتاح الفرص لهم لمناقشة الأوضاع بحرية كاملة.

أمريكا تناقش اليوم بسياسيتها وصحفها موضوعا استراتيجيا يهملها فى الأساس ويهمنا أيضا، هو السلام العالمى ودور الولايات المتحدة فيه، ثم تكلفته الاقتصادية والسياسية. وعندما نتحدث عن السلام العالمى فإن نقيضه هو عدم السلام أو الحرب أو حتى إبقاء الأوضاع مضطربة غير مستقرة. لذلك فإن الشرق الأوسط والمنطقة الإسلامية تأخذ موقع الصدارة فى هذا الاهتمام، وهى منطقة (مضطربة) بكل المقاييس ومناطق منها معرضة للاضطراب فى أى وقت. هناك حوالى عشر حروب ساخنة أو قابلة للتسخين فى منطقتنا، ونذكر بعضها منها مثل الصومال، واليمن، وفلسطين، والعراق، والسودان، وإذا أضفنا لها ما تشنه بعض القوى السياسية التى تقول بانتمائها إلى الإسلام من حروب أهلية خطيرة فى بلدان أخرى، نجد أننا كنا متواضعين فى تحديد رقم العشرة.

يناقش الأمريكيون دورهم العالمى الجديد بعد انتهاء الحرب الباردة تبعا لمصالحهم، أو لصالح أيديولوجياتهم فى تفوق السوق الرأسمالى، والليبرالية الاقتصادية، والديمقراطية. ولكن هذا (الانتصار) إن أريد له البقاء والاستمرار يحتاج إلى (قوة) يعتمد عليها، وهى بدورها تحتاج إلى مصادر مالية

واقتصادية وجب أن توفرها هذه الدولة القائد.

مآزق السياسة فى ساحة الاقتصاد :

النقاش الدائر فى واشنطن أن أمريكا بوضعها الاقتصادى لا تستطيع أن تأخذ على عاتقها لوحدها حماية السلام العالمى. فلا بد والأمر كذلك من المشاركة فى الحمل من جانب أولئك المستفيدين من استتباب السلام. ولكن القضية ليست بهذه البساطة، فهناك من يرى أن قيادة دولة واحدة للعالم تعتمد النظام الرأسمالى سوف يقود إلى تناقض بينها وبين الآخرين خاصة فى نفس معسكرها الرأسمالى.

فالنظام الرأسمالى ينتعش أكثر عندما تكون مصادر العمل والتقنية ورأس المال متحركة ومنقلة بمرونة دون حواجز بين أسواق العالم، فى الوقت الذى يدفع فيه التنافس كل دولة إلى احتكار المصالح الاقتصادية، ومحاولة إقفال سوقها على حساب منافسيها، وهذا يحد من فتح الأسواق وبالتالي لن يكون الاقتصاد عالميا. هذا ما تحاول الولايات المتحدة أن تحله مع شركائها مثل اليابان والسوق الأوروبية المشتركة، وحتى مع الصين التى تقف عقبات أيديولوجية بينهما، لكنها ليست عقبات كأداء بدليل ما أعلنه الرئيس الأمريكى أخيرا عن تجديد سنة لوضع الصين كدولة أولى بحق الرعاية التجارية،

حيث إن المصالح التجارية الأمريكية تأتي في المقدمة.
سيطرة دولة رأسمالية على العالم شهدت عصرها الذهبي
في فترتين، الأولى هي الفترة التي أعقبت الحروب النابليونية
في أوروبا، عندما تفردت فرنسا لفترة بالسوق الرأسمالي
المعروف وقتها، ثم فيما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية،
كانت دول أوروبا المنتصرة والمتحالفة هي القائدة. مفتاح
هاتين واحد وهو قدرة ورغبة دولة واحدة، أو تحالف، كي
تكون قوة مهيمنة، تأخذ على عاتقها عملية استتباب الأمن
والسلام الدوليين، وتحقيق الأمن للدولة الصغيرة حتى لا تلجأ
الأخيرة إلى تحالفات إقليمية أو دولية سياسية أو تجارية
لحماية مصالحها.

والتاريخ في حوادثه السابقة يؤكد لنا أن فترة سيطرة دولة
واحدة على العالم هي فترة قصيرة نسبياً لأنها سرعان ما
تعجز اقتصادياً وعسكرياً عن القيام بما نذرت نفسها للقيام
به، وهو الحفاظ على الأمن العالمي. ويتابع الذين يناقشون
النظرية أن الاقتصاد الأمريكي غير مؤهل لفترة طويلة لأن
يأخذ على عاتقه ضمان السلام العالمي، فالولايات المتحدة
يمكن أن تقود ولكن بالتعاون مع آخرين عليهم ألا يشتركوا
العبء المالي والاقتصادي فقط، ولكن أن يعملوا من داخل

مجتمعاتهم ودولهم على تهيئة الأجواء المناسبة للسلام الاجتماعي الداخلي والإقليمي.

ومن هنا ترتبط نظرية الدولة الفائدة بالأمن الإقليمي، فكلما كان هذا الأمن الإقليمي سائدا قلّت تدخلات الدولة الكبرى المباشرة. وكلما عملت القوى الإقليمية على الوصول إلى أمن فيما بينها خففت الحمل الدولي العسكري والاقتصادي. وهذا الأمن الإقليمي كما يراه المختصون في واشنطن له قاعدتان هما التنمية الداخلية والمشاركة السياسية.

العرب والمسلمون :

النظرية السابقة والتي مفادها أن يسود السلام العالم وأن تخف حدة التوتر بل وتنعدم إن أمكن، تناقض ما يحدث في الشرق الأوسط. فهناك خلافات إقليمية واقتصادية وسياسية تغذي التوتر، وتجعل هذه المنطقة بؤرة استنزاف لموارد اقتصادية كان يمكن أن يستفيد منها أبناء المنطقة. وكذلك العالم، ويرى المراقبون أن مشكلات الشرق الأوسط هي مثلثة الأضلاع يغذي كل ضلع منها الضلع الآخر. وهذه الأضلاع اقتصادية وسياسية وأيديولوجية، ودون فهمها الفهم الصحيح، والعثور على حلول منطقية لها، يشارك الجميع فيها، فإن الاضطراب سيظل معلقا ومستنزفا للطاقات،

وخطيرا على سلام العالم واستقراره.

الوضع الاقتصادى يأخذ الأهمية القصوى من جانب المهتمين والمناقشين فهو أساس كل الصعوبات أو معظمها فى منطقة الشرق الأوسط، ودون حلول جذرية للوضع الاقتصادى تظل الحلول الأخرى السياسية أو الأيديولوجية مؤقتة وغير فاعلة.

والوضع الاقتصادى بأرقامه المعروضة والتي يتبناها المختصون صورته مخيفة وسنورد بعضها فقط لمجرد الإشارة، فقد انخفض الناتج العربى بين ١٩٨٠ - ١٩٩١ من ٤٣١ بليون دولار إلى ٤٢٠ بليون دولار، فيما تزايد عدد السكان العرب من ١٦٥ مليوناً إلى ٢٢٠ مليوناً! وبالتالي انخفض دخل الفرد العربى فى نفس الفترة من ٢٦١٢ دولار إلى ١٨٢٦ دولارا وهو انخفاض يساوى ٣٠٪ ، وبالتأكيد فإن هذه أرقام صماء حيث إن معظم العرب قد انخفض مستواهم المعيشى أكثر من ذلك بكثير، وكما تدل الأرقام المعلنة فإن الدين العربى الخارجى بين ١٩٨٥ و ١٩٩٠ قد ارتفع من ١١٥ بليون دولار إلى ٢٥٠ بليون دولار.

هذه بعض الأرقام، أما مشكلات الغذاء والماء والمساعدات المصروفة من الدولة لدعم أسعار السلع الأساسية، فهى

تشكل الضغط الأكبر على الاقتصاديات العربية، والتي تعاني من مشكلات هيكلية هي بقايا الأنظمة والسياسات الاشتراكية من جهة، وغياب التنافس والسوق الحرة من جهة أخرى فالوضع الاقتصادي العربي يواجه مشكلتين حادتين، الأولى هي أهمية وسرعة الإصلاح الاقتصادي الكلى والذي إن اتخذت خطوات فى سبيل تحقيقه فسوف يسبب مشكلات سياسية ثمنها سيكون باهظا. وأما المشكلة الأخرى فإنه فى غياب إصلاح اقتصادى وتنمية حقيقية فإن الحديث عن العدالة يبقى حديثا عاطفياً بعيدا عن الواقع، ومعناه تقسيم أصغر لكعكة هي فى الأساس صغيرة وتصغر كل يوم.

لقد قال لى أحد المختصين إن اتخاذ قرار بالإصلاح الاقتصادي فى بلدان الشرق الأوسط هو أقصى حتى من اتخاذ قرار بالحرب.

إلا أن السؤال هو: هل الإصلاح الاقتصادي الذى تأخر كثيرا فى البلاد العربية بالضرورة سوف يسبب فى المدى المتوسط والطويل مشكلات سياسية يشير البعض إلى أن ذلك ليس ضروريا، ويضربون مثلا بكارلوس منعم فى الأرجنتين الذى قام بإصلاحات اقتصادية كانت فى نهايتها شعبية إلى درجة سمحت له بتعديل الدستور لإعادة انتخابه.

إلا أن السؤال في الدول العربية: إذا كان هذا التأخير في الأخذ بالإصلاحات الاقتصادية خوفاً من نتائجها السياسية، فكيف يمكن أن يطرح في هذه الأجواء الحديثة عن الإصلاحات السياسية! إنها دائرة مغلقة ومغلقة.

الإصلاح السياسي:

تسمع لفظة الديمقراطية والحث على تبنيها في كل ركن من أركان المنتديات واللقاءات الفكرية والسياسية في العاصمة الأمريكية، على أساس أن الأمن والسلام العالمى المطلوبين يتحققان بشك أفضل في منطقة الشرق الأوسط عندما تتمتع شعوبها (بالديمقراطية) اعتماداً على افتراض قاعدة أن الشعوب الديمقراطية لا تشن الحروب، ولا يحكمها شخص واحد يُسيرها حسب ما يريد ويشتهي. وهناك مدرسة سياسية في الولايات المتحدة تعتقد أن ثلاثية الديمقراطية والإصلاح الاقتصادي والتسامح الأيديولوجي هي ثلاثية لازمة لاستتباب السلام، ومن ثم فوجود هذه العناصر فيه شيء من الضمان ضد انفجار التوترات وبالتالي إجبار الولايات المتحدة على التدخل وإهدار الموارد النادرة لإطفاء الحرائق التي يمكن أن تسببها الدكتاتورية والفقر. هذه نظرية مقبولة على نطاق واسع وهي في حقيقتها منطقية إلا أن

المشكلة هي : أية ديمقراطية وما هي آلياتها وأى إصلاح اقتصادى؟

الديمقراطية مفهوم مثقل بدلالات الثقافة الغربية، وهى كقوس قزح هناك آراء مختلفة وقد تكون متصارعة، مثل أن الديمقراطية لا تنضج ولا تعطى ثمارها المرجوة - مهما اختلف شكلها - إلا فى مجتمع يحقق تنمية اقتصادية حقيقية، أما الأولوية - تقول هذه المدرسة - إن أردنا استتباب السلام فيجب أن تعطى للتنمية. فكل الذى نشاهده من أزمات وتشنجات لها مظهر السياسة والأيدىولوجية هى فى حقيقتها إحباطات شديدة نتجت عن فشل التنمية الاقتصادية الموعودة. هذه المدرسة تقول إن التنمية مطلب سابق على الديمقراطية، وهى حجر الزاوية فى السلام والأمن المنشودين.

وفى دراسة نشرها أحد المختصين الاقتصاديين الكنديين من جامعة برتش كولومبيا، هو (جون اف هول ول) بحث فيها العلاقة بين الديمقراطية والتنمية فقام بمقارنة نتائج اقتصاديات مائة دولة بين ١٩٦٠ إلى ١٩٨٥ ووجد أن هناك تراجعاً نسبياً بين الدول الديمقراطية فى الإنتاج الاقتصادى مقارنة بالدول غير الديمقراطية، وهذه النتائج التى توصل إليها أكدت وجهة النظر القائلة بأنه فى المدى القصير فإن

الحكومات غير الديمقراطية خاصة تلك التي تضمن لمواطنيها (الحقوق الاقتصادية) مثل حماية الملكية الشخصية وحرية رأس المال، يمكن أن تحقق نتائج اقتصادية أفضل. ولكن في النهاية يصل المؤلف إلى نتيجة هي أن التنمية تقود إلى الديمقراطية، بل تستقر الأخيرة بشكل أفضل في وضع اقتصادي مريح. على كل حال فإن إجابة سؤال: أيهما يسبق وأيها يلحق مازالت إجابة أكاديمية، ولكن موضوع الديمقراطية لا يزال موضوعا ساخنا في مناقشات وندوات الأمريكيين.

وتظهر مؤسسات جديدة لدراسة الديمقراطية في الشرق الأوسط كالفطر كل يوم، في واشنطن، وفي مراكز البحث الأمريكية الكبرى، ويزداد النقاش حول الشكل الأمثل للديمقراطية المأمولة في بلدان العالم الثالث خاصة في الشرق الأوسط، إنه زمن «السوق الديمقراطية» وكل يشتري ما يرغب! الإسلام:

لعل البحث الثالث الذي يُعرض يوميا في المناقشات وحلقات البحث هو موضوع الإسلام، وليس من كونه عقيدة، ولكن من حيث كونه محركا لوضع سياسى، كما هو فى بعض البلدان العربية والإسلامية. وكذلك علاقة الإسلام بالديمقراطية .

ويخلط البعض هناك بين الأمور إما لنقص فى المعلومات، أو لوجود معلومات مشوشة بين هذين المفهومين. واحد من كل خمسة أشخاص فى العالم مسلم، والمسلمون يعيشون فى ٤٥ دولة فى إفريقيا وآسيا وعدد كبير فى أوروبا والولايات المتحدة ودول كانت تشكل الاتحاد السوفيتى السابق.

ويخلط البعض بشكل قوى بين الإسلام كعقيدة وبين ممارسة بعض المسلمين للسياسة، وتصوراتهم لشكل المجتمعات والعالم المرغوب فى تحقيقه. ولأن بعض هذه التصورات ليست ناضجة، يقود الأمر إلى تكوين صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين معاً. ويتصور البعض أن هناك صراعاً لا شك قادم بين الغرب وما يمثله من قيم وبين المسلمين. على أساس أن الغرب يبحث عن (عدو)، وهى مبالغات تجد صداها لدى أطراف مختلفة فى كلا المعسكرين، موضوعات الإسلام والمسلمين مثل ما يحدث فى إيران والجزائر ومصر وبلاد أخرى لا تخلو منها ندوة، ويحاول بعض القادة السياسيين الأمريكان بصعوبة أن يفك التشابك فى الفهم لدى قطاعات مهتمة بين الإسلام كعقيدة للملايين المسلمين وبين بعض مظاهر التصرفات السياسية لحركات

سياسية. هذه المحاولات لا تجد صداها لا فى الجمهور العام ولا فى الصحافة.

هذا التشابك له على كل حال بعض الجذور الفكرية، فعلى الرغم من أن هناك مؤسسات ومراكز بحث فى الولايات المتحدة تقدم تصورا حديثا سياسيا للفكر الإسلامى ويساير التفكير الغربى فى الديمقراطية والتعددية، إلا أن هناك كتابات وآراء حول نقد الحقوق السياسية للمرأة وعدم قبول التعددية والتسامح مع الآخرين، يراها البعض من وجهة نظر غربية بعيدة عن مسار الديمقراطية الحديثة.

هناك الذين يرون أن الحقيقة متعددة وإنسانية، وهناك الذين يرون أن الحقيقة واحدة. ومشكلة تفسير النصوص القادمة من كتابات كثيرة بهذا الخصوص من الشرق الأوسط تجعل المعلقين الأمريكان يختارون النصوص التى تؤيد وجهة نظرهم، فإن كان الواحد منهم يريد أن يبنى قضية فى التسامح والتعددية وجد نصوصا فى هذا الاتجاه، وإن أراد أن يبنى قضية فى عدم التسامح ورفض الآخر وجد نصوصا قادمة تؤكد ذلك. لذلك تجد هذا التفاوت الكبير فى التفسير.

ومما يزيد الطين بلة أن البعض، محاولا تفادى بعض المصطلحات الحديثة مثل فصل الدين عن الدولة أو التعددية،

يأخذ بمصطلحات أخرى مثل (تمييز الدين عن الدولة) أو مفهوم (التنوعية) بدلا من التعددية، وهي مفاهيم قد تشبع نهم بعض المثقفين العرب، ولكنها لا تغنى كثيرا عن آليات الديمقراطية المعروفة فى الغرب، حيث إن التجربة الإنسانية فى هذا المجال متقاربة كما شهدنا فى أماكن أخرى من العالم وليست متناقضة.

هناك بعض الكتابات التى ترصد مساهمة الأحزاب الإسلامية السياسية فى بعض تجارب الانتخابات والديمقراطية فى البلدان العربية، ولكن هذا الرصد مقرون بتخوف أن ينتهى الأمر بأن يكون (صوت واحد لشخص واحد .. لمرة واحدة) ! أى بتعبير آخر أن (تُختطف الديمقراطية) وهو تخوف له صدهاء الواسع فى الكثير من الكتابات والتعليقات التى قرأتها أو استمعت إليها، ولكن أيضا هناك من يقول إن الأحزاب السياسية الإسلامية سوف تستقر فى نهاية المطاف كأحزاب سياسية معقولة تقدم عن حسن نية على تطبيق الديمقراطية والقبول بلعبتها السياسية.



المثلث الحرج للإصلاح الاقتصادى والديمقراطى بمعانيها المتعددة والمختلفة، والشكل الأيديولوجى الذى سوف تتخذه

منطقة الشرق الأوسط، ذلك هو محور أحداث المهتمين والمتخصصين في واشنطن. وعلى الرغم من أن هذا الشرق الأوسط الذي تتفاعل فيه وحوله متغيرات عديدة وكثيرة هو موضوع دراسة (من الخارج) إلا أن مستقبله في الأمن والتنمية والديمقراطية سوف يتحقق أساسا من اللاعبين الرئيسيين والأصليين في داخله، وهم أهله، فمستقبل إخفاق أو نجاح مشروعاتهم الاقتصادية والسياسية والأيدولوجية يعتمد بدرجة كبيرة عليهم (كلاعبين رئيسيين في ساحته)، وعلى الاستراتيجيات التي يتخذونها لا على تصورات وجهود غيرهم.

إن المستقبل نحققه نحن!

أليس كذلك؟!



هل يخاف
الغربُ المسلمين؟

يوم ١٧ سبتمبر (أيلول) الماضى نشرت صحيفة «هيرالد تريبيون انترناشيونال» تعليقا كتب به الباحث السياسى بريان بيهام، قال فيه: «إن الحرب مع الشيوعية كانت ثانوية قياسا إلى الحروب مع الإسلام، فالحرب مع الشيوعية استغرقت ٧٠ عاما بينما حروب الغرب مع الإسلام بدأت منذ ١٣٠٠ عام، وما زالت مستمرة».

وقبل أسبوعين، ومع تدشين مسجد جديد فى سلطنة بروناي، دعت إحدى الجماعات الإسلامية الحكومية إلى منع استيراد أنواع من إطارات السيارات، وقالت الجماعة فى بيانها إلى الحكومة «إن الغرب يستخدم وسائل خبيثة فى «التبشير» من بينها صنع أنواع من إطارات السيارات تترك على الطرق التى تسير فيها علامات أقرب إلى شكل الصليب وبالتالي لابد من منع استيراد هذه الإطارات المعادية للإسلام».

والحرب، من هذا المنظور، بين الإسلام والغرب تبدو أقرب إلى حروب «دون كيشوت» مع طواحين الهواء، وهى طواحين متوافرة فى الناحيتين، وتزدحم ساحاتها بالكثير من الفرسان، ولكنها فى الوقت نفسه حرب حقيقية، لا تقتصر

(*) نشر هذا المقال فى مجلة العربى - العدد ٤٠٦ - سبتمبر ١٩٩٢

المشاركة فيها على الأحياء وحدهم بل إن أمواتا كثيرين يبعثون من قبورهم ليخوضوا غمارها، وعندما يكتب المؤلف الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه الشهير «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» أن «الإسلام الأصولى هو أحد فروع الفاشية التى قامت فى أوروبا وأدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية»، وعندما يصرح ديبلوماسى غربى بارز فى طاجيكستان لصحيفة «لوس أنجليس تايمز» بأن «المسلمين فى هذه الجمهورية يفضلون الإسلام العلمانى على الإسلام الأصولى» وعندما تصل الأمور إلى حد أن يطرح أعضاء بالكونغرس الأمريكى على وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية عشرات الأسئلة حول «مدى الأخطار التى يمكن أن يشكلها المسلمون الراديكاليون على مصالح الغرب فى الوقت الحاضر وفى المستقبل» فإن القضية تصبح جادة، ولابد من طرحها للنقاش على أوسع نطاق، ومحاولة تشخيصها وتحديد أعراضها، قبل محاولة الخوض فى البحث عن وصفة حضارية لعلاجها، بعد أن باتت تقترب من حدود المرض.

سلاح.... مآذن:

فى منتصف يونيو (حزيران) الماضى خرجت مجلة «القايم» الأمريكية الواسعة الانتشار وعلى غلافها صورة لمئذنة مع يد

تحمل رشاشا، وكان عنوان الغلاف الرئيسى: «هل يجب على الغرب أن يخاف الإسلام؟» وتكشف المجلة فى تقرير شارك فيه أكثر من مراسل فى أكثر من عاصمة عربية وغربية عن اتساع رقعة البلاد الإسلامية وتوسط بلدانها فى العالم خاصة بعد إضافة جمهوريات إسلامية جديدة فى وسط آسيا، خرجت أخيرا من أسوار الإمبراطورية السوفيتية. ويقارن التقرير بين ظهور القوة الإسلامية واهتزاز قشرة الأرض التى تكونت على أثرها القارات، ويقول إن العالم كله يراقب ويانتظر نتائج هذا التغير الكبير، كما فعلت أوروبا القرون الوسطى عندما دق المسلمون أبوابها وهم فى قمة قوتهم.

سبقت هذا التقرير الذى يبدو أقرب إلى قرع نواقيس الخطر جلسة عقدها الكونغرس الأمريكى يوم ٢٥ فبراير (شباط) الماضى، استمع خلالها إلى تقرير أعده مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى. إى. إيه» روبرت غيتس، أوضح فيه، ردا على أسئلة وجهها عدد من أعضاء المجلس أن «الإسلام الأصولى» لا يشكل خطرا على الغرب ومصالحه، وقال «إننى حتى الآن لا أسلم بأن «التعصب» الإسلامى بطبيعته هو معاد للغرب»، وأكد «إن هناك بعض

العناصر والجماعات الإسلامية فى الشرق الأوسط خارج الحكم، وهى ليست معادية لنا». واستغرب مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية الدعوة إلى الاستعداد لمواجهة خطر الإسلام الأصولى، بعد نهاية الحرب الباردة مع الشيوعية.

أما صحيفة «نيويورك تايمز» فقد أوضحت بدورها فى افتتاحيتها يوم ٧ فبراير (شباط) الماضى، وكانت تحمل عنوان «لا شياطين فى آسيا الوسطى» إنه، «خلال الشهور القليلة الماضية تحررت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية كثيرا مع آسيا الوسطى من تحريض الإمبريالية الروسية والأيدولوجية الشيوعية، ولذلك فإنه لا يوجد أى مبرر للاستعجال فى تشويه هذه العلاقة استنادا إلى فرضية تقول إن هناك تهديدا إسلاميا موحدا يواجه الغرب».

ومع أن هذه «الأعراض» تبدو وكأنها المرة الأولى التى يتصدى فيها الغرب على نطاق المسئولين والإعلاميين والأكاديميين ودور الأبحاث للإجابة عن أسئلة تحدد علاقاته مع ما يسميه «الإسلام الأصولى» إلا أن هذه الأعراض قديمة، وربما تعود إلى مطلع هذا القرن الذى شهد انهيار «الإمبراطورية العثمانية».

صراع حضارات لأديان :

ليس هناك صراع بين الأديان ولكن هناك صراعا بين

الحضارات، ففي عام ١٩٢٢ حاول مصطفى كمال أتاتورك عبثاً إقناع المجلس الوطنى الأعلى بالتخلى عما أسماه عبء الخلافة الإسلامية، وبعد سنتين تخلى أتاتورك عن «الشورى» ولجأ إلى القوة العسكرية لفرض إلغاء الخلافة الإسلامية وبناء الجمهورية مع تقييد الحريات الدينية والسياسية. أتاتورك اعتبر أن مواجهة التحدى الغربى تقتضى استخدام السلاح نفسه الذى يستخدمه الغرب، فتخلى عن الخلافة الإسلامية لاستنهاض الدولة القومية، ولكن القومية الطورانية نشأت ليس فى عصر بسمارك، بل فى عصر الرئيس الأمريكى ولسن، فى عصر إطلاق الحريات للشعوب وليس تقييدها، ودفعت القوميات الأخرى تحت الحكم العثمانى وقتها بمن فيهم العرب والأرمن الثمن غالياً. مع ذلك فإن الشعب التركى الذى استبدل بالطربوش القبعة حافظ على إسلامه واحتفظ بإيمانه، وما زالت مساجد اسطنبول وأنقرة تموج بالمصلين، وهو ما يدفعنا إلى التوقف أمام حقيقتين: الأولى هى أن هناك خلطاً فى الغرب بين الإسلام والمسلمين، والإسلام بما هو دين وأسلوب حياة يستجيب لتحديات العصر ويحاول استيعابها، وبين المسلمين فى علاقتهم فيما بينهم من ناحية، وداخل مجتمعاتهم، وعلاقاتهم مع الشعوب

الأخرى من ناحية، وهى علاقات فى نهاية المطاف ليست دينية بقدر ما هى سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية. الحقيقة الثانية هى أن خلطا مشابها يقع لدى الطرف الآخر وكأنه ردة فعل على هذا الالتباس الغربى، حيث تخط بعض الجماعات الإسلامية بين أشكال من التغيير السياسى والاجتماعى تتخذ من الإسلام شعارا لها ويبن الإسلام كدين، فيسعى هذا البعض إلى تكفير المجتمعات والدول الإسلامية التى لا تأخذ بهذه الأشكال من التعبير السياسى والاجتماعى، وهذا الخلط قد يكون بريئا فى جزء منه ولكنه متعمد فى معظمه، ففي الغرب مازال بعضهم عاجزا عن استيعاب معركة تروز أو سقوط القسطنطينية أو حصار فيينا (١٦٨٣م) بجيوش قوات الفتح الإسلامية، وهذا التيار الذى وجد فى محمد على باشا، محاولة لتجديد الإمبراطورية الإسلامية يرفع اليوم الشعارات نفسها، فى أوروبا الصليبية لدوافع دينية متعصبة وفى الولايات المتحدة لدوافع سياسية واضحة، يقودها اللوبى الصهيونى.

إن الصراع الحضارى هو السمة الملزمة للتاريخ البشرى، وهو نتيجة للتمازج والتواصل بين المجتمعات الإنسانية، وفى عصرنا اليوم كما فى العصور السابقة فإن هذا الصراع

محتوم ولا يمكن إلغاؤه ولا تجنبه، ورغم أن جماعات من الانعزالية الأمريكية حاولت فى مطلع هذا القرن عزل الولايات المتحدة عن العالم والابتعاد عن مشاكله وما يجرى فيه، إلا أن الحرب العالمية الأولى برهنت على أنه لا مكان لهذه الانعزالية، فى عالم تتمازج فيه المصالح وتتشابك فيه الأفكار والتيارات وتحكمه شبكات اتصال ومواصلات لا يمكن لأية أسوار حجبها أو منعها.

إن صراع الحضارات متى اعتمد الحوار هو آلة للتطوير، أما متى اعتمد منطق الاستعمار والقوة والبطش والإرهاب فإنه يتحول إلى آلة للتدمير.

لا تناقض بين القومية والدين :

يروى الضابط صبحى العمرى فى «أوراق الثورة العربية»، وقد صدر أخيراً فى ثلاثة أجزاء، كيف شارك فى الثورة العربية الكبرى ضد القوات التركية تحت قيادة الأمير فيصل. ويبدأ مذكراته بالتعريف بنفسه كالتالى: «إن أسرتنا تحمل لقب «العمرى» لأنها تنحدر من نسل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولدينا ما يثبت هذه النسبة»، ويضيف فى المقدمة «أيها القارئ العزيز إننى أدون لك فيما تقرأه أحداثاً لنحو ستين سنة مضت، وأعتقد أن هذه الحقية من

الزمن كانت ولا تزال أعظم وأخطر فترة مرت على أمتنا العربية، باستثناء الحقبة التي رافقت البعثة المحمدية واتصلت بزمان الفتوحات الإسلامية خلال المائة الأولى من سنى الهجرة التى انتقل العرب خلالها من الوثنية والفوضى الأخلاقية والفرقة إلى أمة ذات دين وشرائع وأخلاق وأهداف ورسالة سامية... إن الرسالة المحمدية بعد أن وحدت العرب فى جزيرتهم، حملوها إلى الشرق والغرب يدعون الأمم الأخرى إلى الله وإلى الحق وإلى الحب دعوة القوى الصادق المؤمن، ولم تمض على هذه الدعوة مائة سنة حتى كانت كلمة الله تعلو فى أكثر بقاع الأرض سكانا وعمرانا...».

أقتطف هذه الفقرات من مذكرات العمرى لأنها تكشف عن اعتزازه بدينه الإسلامى وقوميته العربية، من دون أى شعور بالتناقض بين الاثنين: الدين والقومية، فالاثنان معا هما نسيج حضارته، ومع أنه ثار على القوات التركية الإسلامية إلا أنه قاتل قوات الغرب الفرنسية فى موقعه ميسلون ومواقع أخرى، وهو على الجبهتين متفق مع نفسه اتفاقا تاما ولا يعانى من أى غربة أو تغريب لا فى الدين ولا فى العقيدة ولا فى الانتماء، وعندما يستوقفه البدو فى وادى موسى فى الأردن، ويبدأ أحدهم بضربه، يقول العمرى: «قلت له: أما تخاف الله، ألسنت

مسلماً؟ أنا مسلم عربى مثلكم كيف يجوز لكم من الله أن تعملوا بى هكذا؟» قال البدوى «أخس والله إنك مو مسلم، إنك ألمانى، جيتون تدبحون العرب مع الترك وتقولون حنا عرب، لعن الله أبوك» «قلت له: شوف كيف أننى «مطهر» وأريته ذلك لأننى كنت تقريبا مشكوف العورة....».

وهذه البساطة فى التعريف بالذات إسلاميا وعربيا لدى العمرى تميز جيلا كاملا شارك فى الثورة العربية الكبرى باعتبارها استجابة حضارية لتحديين: التحدى العثمانى الذى أقفل على القوميات سجن إمبراطوريته ومنعها قسرا من التطور، والتحدى الغربى الذى حاول القيام بالدور نفسه ولكن تحت شعار «الانتداب» على الشعوب المتخلفة تمهيدا لتطورها، وكانت سمة ذلك الجيل هى المصالحة بين الدين والقومية دون إكراه ولا قسر، وعبر السلوك اليومى المعيش من دون تنظير أو تعسف.

فوكوياما.. الخطيئة القاتلة :

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحيّز «السياسة» يبدو وكأنه ظفر باستقلاله الذاتى عن الدين، وتحقق بذلك واحد من أبرز مطالب رواد عصر التنوير فى فصل السياسة عن الدين، وفى هذا السياق، فقد جاهدت الكنيسة فى الغرب لاحتواء ما

كانت تعتبره نفور الرعية من طقوسها، واجتهدت فى تفصيل رؤيتها لقيم المجتمع الحديثة، وأشهر هذه المحاولات ما قام به مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى حيث أطلق مقولة «الأرجورنا منتو» أو «مماشاة العصر»، وكانت تلك أبرز محاولات الكنيسة للحدث بلغة العصر، ولكن منذ منتصف السبعينيات بدأت هذه المحاولات تنقلب إلى ضدها، وظهر خطاب دينى مسيحى لا يهدف إلى التكيف مع القيم السائدة «الحديثة»، وإنما إلى العودة بالمجتمع إلى القيم الدينية، واشتد النقد الكنسى على «الأرجورنا منتو» باعتبار أنها خسرت الماضى دون أن تكسب الحاضر والمستقبل، وبدأت هذه الظاهرة فى منتهى الوضوح فى بلدان أمريكا اللاتينية، حيث خرجت الكنيسة إلى الفلاحين، وخرجت منها قيادات فلاحية خاضت مع حركات المعارضة معارك ضد الديكتاتوريات العسكرية الحاكمة وعرفت باسم: «القديسون الحمر» أو «الآباء الحمر» حيث تعامل رجال الكنيسة مع حركات اليسار، وهو ما اضطر البابا فيما بعد إلى إعلان «الحرمان الكنسى» على أكثر من كاهن.

وهذه الظاهرة فى العودة إلى الدين اتخذت بعدا كونيا وشملت المعمورة وانبعثت فى حضارات مختلفة، وجاء

اندلاعها كردة فعل على «الإفلاس الروحي» للمجتمعات الصناعية التي فشلت، رغم عظم إمكاناتها، فى توفير السعادة الداخلية للإنسان وفى القضاء على «غريته» حيث بدا معزولا فى كون معاد وبارد.

وفى المجتمعات الإسلامية، ورغم أن هذه المجتمعات تفتقر إلى القاعدة الصناعية الضخمة التى تحول الإنسان إلى ترس فى آلة صناعية ضخمة، إلا أن هذه الظاهرة أفرزت حركات اعتمدت على «التصنيع الدينى»، وأعضاء هذه الحركات ليسوا بالتأكيد، كما يصفهم بعض الغربيين، قوى ظلامية، أمية ومتخلفة، بل على العكس، فإن فيهم كثيرين من أصحاب الشهادات الذين درسوا فى النظام المدرسى العلمانى الحديث، وبعضهم تخرج فى الجامعات الغربية، وكثير منهم يميل إلى دراسة العلوم التقنية، وفيهم أطباء ومهندسون وأساتذة جامعات، وتأخذ هذه الحركات على المجتمع تفتته وفوضاه وافتقاده لمشروع متكامل يؤمن به وينتسب إليه ويوفر له دفء التواصل ونعمة التكافل، وتعتبر هذه الحركات بالتالى أن «الحداثة» هى نتاج لعقل من دون إيمان، وهى تكشف عن البؤس البشرى ولكن من دون أن تكون قادرة على منعه أو تحرير الإنسان من قبضته.

المفكر الغربى ميتشيل بيفون يحاول إيضاح هذه الظاهرة فى مقال نشرته صحيفه «التايمز» البريطانىة، فيقول «إن الإسلام اليوم، وبعد مرور ما يزيد على ١٤ قرنا على رسالته، يمر وبعد فترة من الجمود، بمرحلة من اليقظة الروحية، شبيهة بمرحلة التجديد التى مرت بها الكنيسة فى الغرب، وما نطلق عليه اليوم اسم «الأصولية الإسلامية» قد يكون شبيها بالهجوم المضاد الذى شنته الكنيسة الأصولية على حركات التجديد التى أنتجت الكنيسة الحديثة» وبالتالى، يستنتج الكاتب، فإن المسلمين قادرون على بناء نظام يواكب العصر من دون أن يتخلوا عن إيمانهم ومعتقداتهم الإسلامية.

وعلى النقيض من هذا التوضيح يقف المؤلف الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه الذى أثار ومازال يثير ضجة واسعة، وهو بعنوان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، فهو يعتبر أن المجتمعات الإسلامية «مجروحة فى كرامتها»، ويقول بعمومية غامضة إن «الأصولية الإسلامية» هى أحد فروع الفاشية التى قامت فى أوروبا وأشعلت الحرب العالمية الثانية بعد سيطرة الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا وسعيهما للسيطرة على العالم (!). ولا يفسر فوكوياما كيف يمكن أن تكون الأصولية الإسلامية فاشية أو نازية والأخيرتان انبعثتا

من أيديولوجية واحدة هي «الرأسمالية» الصناعية، كما لا يوضح أسباب هذا الجرح في «كرامة المسلمين»، وهو بالتأكيد عاجز عن ذلك، لأنه ليس دارسا للفلسفة ولا للتاريخ، وتعامل مع المسألة الإسلامية بحس الصحافي وليس بمنهج المؤرخ، ويتحيز السياسى وليس بعمق الفيلسوف، وأنتج بالتالى كتابا يضع «الليبرالية» - بعد سقوط المواجهة مع الشيوعية ونهاية الحرب الباردة - فى تعارض مع الدين ومع الإسلام، ويرتكب بذلك خطيئة قاتلة لأنه لا يكتفى بإنهاء التاريخ، بل يبعث الحروب الصليبية لتكون مستقبلا بعد أن تحولت إلى ماض.

ليس الدين بل السياسة :

الأمريكيون ليسوا كلهم «فوكوياما» ومع أن إحدى ساحات المعركة بين الحزب الجمهورى الحاكم والحزب الديمقراطى المعارض هو الموقف من الطقوس الدينية، فإن الحزبين معا مشغولان بدراسة ظاهرة الإسلاميين الأصوليين وانعكاساتها السياسية فى المستقبل على مصالحهم ومصالح الغرب عموما، وأسباب هذا الاهتمام المفاجئ، بعضها طبيعى وبعضها مصطنع. وفى الحالتين فإن الأمريكيين لا يعيدون اكتشاف الإسلام كدين، بل كسياسة، وينظرون إلى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى باعتبارها مركز ثقل

جديدا يضاف إلى العالم الإسلامي. وهو ما عبرت عنه افتتاحية صحيفة «نيويورك تايمز» يوم ٦ فبراير الماضي عندما قالت «إن تلك الدول الجديدة هي محط أنظار الجميع، الكل يتسابق باتجاهها وما علينا نحن إلا أن نضمن أن تلك الدول سوف تتطلع إلى الشمال والغرب وليس إلى الجنوب والشرق» أى ليس إلى طهران وبكين، وبينما يتحدث بعض الاستراتيجيين - وبسوء نية أحيانا - عن احتمال قيام مثلث إيران - السودان - الجزائر، أو مثلث إيران - الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى كقوة سياسية معادية للغرب، فإن كثيرين آخرين يتعاملون مع «أصوليات» إسلامية، تتباين فى توجهاتها وتطلعاتها فى علاقتها مع المسلمين ومع الغرب، ومن أبرز ممثلى هذا التيار البروفيسور أموس برلماتر أستاذ الاجتماع والعلوم السياسية فى الجامعة الأمريكية فى واشنطن ورئيس تحرير مجلة الدراسات الاستراتيجية، ويعتقد برلماتر أن التجربة التاريخية فى الشرق الأوسط تثبت أن التيار الأصولى التقليدى هو تيار أصولى على مستوى السياسة الداخلية لتلك البلدان لكنه «علمانى» على مستوى السياسة الخارجية، ويتعامل مع حقائق العصر وبوسائل العصر ولغة العصر، ويدعو برلماتر فى مقال نشرته صحيفة

«واشنطن تايمز» يوم ٢٥ يوليو الماضى، إلى التمعن بتلك الخصوصية، حيث يقول: «يجب أن يكون هناك تفريق وتقييم واقعى فى رؤيتنا للبلدان الإسلامية، ولابد من تجنب تعميم الإسلام الأصولى والنظر إلى تلك البلدان كتهديد محتمل أو مصدر تدمير لعوامل الاستقرار الإقليمى والدولى»

ومع ذلك، فإن برلماتر لا يجد حرجا فى التهجم على الأصولية الإسلامية فى إيران باعتبارها مظهر تهديد للغرب. وفى سياق مختلف، وأكثر وضوحا، يحدد رئيس مركز «راند كوربوريشن» غراهام فوللر، الذى شغل لفترة طويلة منصب رئيس قسم الشرق الأوسط فى الـ «سى. آى. إيه» أن «الإسلام السياسى» أمر واقع يجب القبول به والتعامل معه، وهذا التعامل لا ينبغى أن يقتصر على «أصدقاء الغرب» بل المعارضين والمناوئين له أيضا، بمن فيهم جبهة الإنقاذ فى الجزائر مثلا. وفوللر هنا لا يدخل فى الأيديولوجيا ولكن فى السياسة ويتعامل مع الحركات الأصولية باعتبارها حركات سياسية وليست حركات دينية، وهو تيار سائد على مستوى صانعى القرار فى الإدارة الأمريكية، ومن هنا فإن الإدارة لا تخفى تفضيلها للنموذج الإسلامى فى تركيا كى يكتسب مواقع نفوذ فى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى،

وهذا الدور عبر عنه الدكتور «بولنت على رضا» الخبير بعلاقات تركيا مع العالم العربى ودول الجوار الجغرافى، حيث قال فى ندوة أقيمت فى معهد واشنطن فى يوليو (تموز) الماضى «إن مستقبل علاقة دول آسيا الوسطى الإسلامية مع تركيا هو أفضل بكثير من علاقات تلك الدول مع إيران، ذلك لأن تركيا تقدم النموذج الأفضل، قال الشعب التركى يمارس منهجه الإسلامى، بينما الحكومة نجحت فى اتباع أساليب ليبرالية للتعامل مع العالم الخارجى، وبالتالى فإن تركيا سوف تكون هى «الجاذب» لهذه الجمهوريات لأنها تقدم «التكنولوجيا» بينما طهران مازالت تسعى إلى تقديم «الأيديولوجيا».

وبالطبع فإن هذا النوع من «التنظير» يكاد يهمل التغييرات الكبيرة والتحولات الجذرية التى مرت بها الثورة الإيرانية، بعد ١٣ سنة على قيامها، حيث بدأت الحكومة الإيرانية حوارا واسعا وجادا حول بيع القطاع العام للخاص، فى محاولة لإعادة الحيوية إلى الاقتصاد، كما سمح لرجال الصناعة والتجارة الإيرانيين الذين غادروا إيران إبان سنوات الاضطراب بالعودة إلى البلاد للمشاركة فى بناء الاقتصاد، وهذه قد تكون مظاهر اقتصادية ولكنها مؤشر على أن ما

يسميه الغرب «الأصولية الإسلامية» إنما هي مشروع مرن وقابل للتطوير من الداخل من دون أن يتخلى عن قيمه الدينية.

الصهيونية والصليبية الجديدة :

بعيدا عن الفكر التأمري، ومن دون السقوط في نظرية مؤامرة الغرب على الإسلام، فإن هناك شواهد واقعية لا تحصى ولا تعد على أن الصهيونية التي خسرت أكثر من موقع لدى الغرب نتيجة لحرب تحرير الكويت أولا، ولنهاية الحرب الباردة ثانيا، تسعى إلى استعادة دور الحليف الرئيسى والاستراتيجى للغرب، عبر استبدال الإسلام الأصولى بالشيعوية وطهران بموسكو، وهى فى هذا السياق تستخدم السلاحين، السياسى والدينى معا، فعلى الجبهة السياسية، ومنذ انهيار الإمبراطورية السوفييتية، فاضت الآلة الإعلامية للوبى الصهيونى فى أمريكا وأوروبا بمئات المقالات والدراسات عن خطر الإسلام على الغرب، ودعمت هذا الفيض تصريحات لمسئولين إسرائيليين عن القنبلة النووية الإسلامية وعن التمدد الإيرانى فى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية.

وهنا بعض النماذج من هذه الحملة المستمرة:

فى ١٠ فبراير (شباط) الماضى نقلت الإذاعة الإسرائيلية عن رئيس الوزراء وقتئذ إسحاق شامير تخوفه من تأثير إيران

والإسلام الأصولى على الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى، وبعد ذلك بأسبوعين نقل مراسل وكالة «أسوشيتدبرس» رون سانيان من تل أبيب عن أحد المسؤولين فى وزارة الخارجية الإسرائيلية قوله «تعتقد إسرائيل أنه ما لم تكسب الدول الغربية - أو ذات التفكير الغربى مثل تركيا وإسرائيل - السباق مع إيران فإن طهران سوف تنجح فى إقناع قطاعات واسعة من شعوب دول آسيا الوسطى باعتماد الأفكار المتطرفة، وبالتالي فإنه ستكون أمام الغرب ست دول إسلامية أخرى للتعامل معها بدلا من دولة واحدة ممثلة بإيران».

وفى ١٢ فبراير (شباط) أيضا تنشر صحيفة «واشنطن تايمز» مقالا كتبه روبرت ساتلوف، أبرز مستشارى اللوى الصهيونى فى واشنطن، قال فيه «إن الإيرانيين لا يعتبرون مصدرا للإزعاج فقط فى دول آسيا الوسطى الإسلامية كما هم فى لبنان والجزائر والسودان، بل إن إيران تهدف إلى تحقيق أهداف سياسية وعسكرية بعيدة المدى فى تلك المنطقة، وتهدف أيضا إلى وضع يدها على مصادر الثروات الطبيعية فى تلك المنطقة، وفى تركمانستان مثلا التى تعتبر مصدرا رئيسيا لاستخراج اليورانيوم المناسب لصنع القنبلة النووية تعمل إيران جاهدة على استغلال تلك الثروة الاستراتيجية».

ونتيجة الضغوط التي يمارسها اللوبي الصهيونى فى أمريكا يصرح جوردون أوهلر رئيس مركز حظر انتشار الأسلحة النووية فى الإدارة الأمريكية بقوله «إن برنامج إيران النووى مازال بعيد المنال، ويحتاج إلى سنوات طويلة قبل الوصول إلى نتائج على هذا الصعيد» إلا أنه يحذر من إمكان تعاون دول إسلامية أخرى مثل باكستان وسوريا وليبيا مع طهران فى إنجاز برنامج نووى لتلك الدول الإسلامية.

ويرى الباحث العربى عبد اللطيف ريان فى كتابه «الإسلام.... تحدى الغرب الجديد» أنه منذ بداية تفكك الاتحاد السوفىيتى و بروز الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى، وخاصة تلك التى تملك أسلحة نووية، أكترت وسائل الإعلام الإسرائيلية. من تغطيتها للأخبار المتعلقة ببرنامج إسلامى نووى، وخاصة البرنامج الإيرانى.

هذا على الصعيد السياسى، أما على الصعيد الدينى، فإن جماعات «المسيحية الصهيونية» أو «الأغلبية الأخلاقية» فى أمريكا يصرحون، كما قال جيرى فلويل أحد قادتهم، إن «على الغرب مساعدة إسرائيل على جعل القدس يهودية إلى الأبد، لأنه عندئذ تتحقق القيامة، ويخرج المسيح الدجال، حيث تقع حرب تنتصر فيها المسيحية على قوى الشر

والظلام». وهذا هو النوع من المسيحية المتعصبة التي تعمل إسرائيل على إنتاجه.

الإزاحة الاجتماعية.. والتطرف:

التطرف لدى بعض الجماعات الإسلامية هو نتيجة ورد فعل لما يمكن أن نطلق عليه تسمية «الإزاحة الاجتماعية»، فقد فرض الغرب على الشرق في العقود الأربعة الماضية نماذج من التنمية حاولت بعض الأيديولوجيات الحكومية في الدول الإسلامية اتباع قواعدها، ولكن هذه النماذج أثبتت فشلها في تحقيق تنمية متوازنة في إطار بلدان إسلامية يتكاثر سكانها وتنمو مدنها وتشهد زحفاً واسعاً من الريف إلى المدينة وتتضائل فيها فرص العمل للشباب يوماً بعد يوم وتضيق عليهم مساحة العيش، مع ما يوافق كل هذا من النقمة الاجتماعية وعدم الرضا السياسى، وبالتالي يتطلع هؤلاء الشباب إلى الماضى ويسترجعون انتصاراته، خاصة أن مخزونهم التاريخى ومحصلتهم التعليمية تجعل من هذا الماضى ذهباً كله وانتصارات متواصلة وتحقيق حياة مثالية، وليس مهماً أن يكون كل هذا حقيقة فى المطلق، ولكنه بالتأكيد اقتناع ثابت وهى «الحقيقة» الوحيدة التى تعرف إليها هؤلاء الشباب باعتبارهم ضحايا للغرب الصناعى، وبالتالي فإن

التطرف فى الانتماء إلى هذه الاقتناعات هو نتيجة لهذه الإزاحة الاجتماعية أو «الانتداب» الغربى على المستوى الفكرى والأيدىولوجى.

ومع ذلك فإن هذا التطرف ليس أمرا محتوما، ولناخذ قائد المجموعات الإسلامية فى جمهورية طاجيكستان مثلا، فالشيخ قوصى أكبر توران زاده، وفى مقابلة مع صحيفة «لوس أنجليس تايمز» يتحدث عن الحقبة الشيوعية التى عاشها شعبه على مدى سبعين عاما، ويقول «بالتأكيد ليس هو الماضى ما نريد العودة إليه، فخلال السبعين عاما المنصرمة تشكلت لدينا رؤية مختلفة للعالم، واقتناعى هو أن أية جماعة أو حزب أو فرد يحاول أن يفرض قيام دولة إسلامية بالقوة لن يكتب له النجاح.... إننا نستعيد تاريخنا وشخصيتنا، لا لى نرتد إلى الماضى، بل لنملك القدرة على التواصل الحقيقى مع الآخرين من أجل بناء مستقبلنا».

وطاجيكستان هى أكثر الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى فقرا وكانت تعتبر القاعدة الأساسية للشيوعيين «الأصوليين» فى عهد الرئيس بريجنيف، وقد تعلمت من تاريخها أن القوة لا يمكن أن تبنى دولة، مهما تعددت شعارات هذه الدولة

السما لا تمطر ذهباً :

إن الغرب يعيد اليوم اكتشاف قوة إسلامية جديدة تضم ما يزيد على ٥٥ مليون مسلم في آسيا الوسطى.. وهذا المارد الجديد مسلح بأنياب نووية، وليس مهما أن الصهيونية العالمية يمكن أن تخشى هذا المارد الجديد أو تحاول الاستفادة من وجوده لدعم نفوذها لدى الغرب، بل المهم كيف نستطيع نحن العرب المسلمين أن نستفيد من هذا المخزون البشرى كي تتحول معا إلى قوة استراتيجية قادرة وفاعلة في رسم النظام الدولي الجديد. وبالتأكيد أن هذه الجمهوريات راغبة في تقرير مصيرها بعيدا عن الهيمنة «السوفييتية» السابقة، ونحن عربا ومسلمين أصحاب مصلحة حقيقية في أن تستطيع هذه الجمهوريات التأثير في صنع القرار سواء داخل روسيا الاتحادية وريثة الاتحاد السوفييتى السابق، أو على النطاق الدولي. وطرح النموذج الإسلامى العربى الجاذب لهذه الجمهوريات الوليدة هو أمر في غاية الأهمية، فإذا تذكرنا أن هذه الجمهوريات خرجت حديثا من حكم قمعى واستبدادى، فلا بد أن تكون الديمقراطية وحقوق الإنسان هي في طليعة الاهتمامات المشتركة مع شعوب هذه الجمهوريات، وبعد حرب تحرير الكويت، ومعارك المسلمين في سراييفو، فإن الالتزام بالشرعية الدولية وتطوير العلاقات مع الغرب الصناعى على

طريق تحقيق تنمية حقيقية هي أسس لابد منها لإرساء هذه العلاقات على قواعد صلبة. إن شعوب تلك الجمهوريات حرمت طويلا من الحد الأدنى للتنمية والرعاية الاجتماعية كما حرمت من حقوقها الثقافية وحققها في تكريس هويتها المتميزة، وفي هذا المجال فإن لدينا الكثير مما نعطيه، ليس على صعيد الدول وحدها ولكن على صعيد الهيئات الإسلامية الناشطة في أكثر من مكان على اتساع رقعة الكرة الأرضية.

ومع بناء علاقات إيجابية مع هذه الجمهوريات، فإن هناك مهمة ملحة ولا تتحمل التأجيل وهي مهمة إنقاذ المسلمين في البوسنة والهرسك، صحيح أن الغرب يشارك العالم الإسلامي موقفه من المذابح والمجازر التي يعيشها المسلمون هناك، ولكن المبادرة الإسلامية لابد أن تكون السباقة.

إن الغرب الليبرالي والعلماني والصناعي استطاع في عام ١٩٦١ وحده إرسال ٤٠٠ بعثة تبشيرية أمريكية تضم ٣٤ ألف مبشر إلى أنحاء العالم، ووصل عدد الدعاة في إفريقيا في ذلك العام إلى ١٨٣٣٨ مبشرا، بينما تم بناء كليات للاهوت ومدارس للتبشير بلغ عددها ٤٨٩ كلية، وفي العام نفسه أعد الفاتيكان ٢٠٠٠ كاهن تم إرسالهم إلى إفريقيا، أما في عام ١٩٦٣ فقد ترأس الأمريكيون وحدهم ٢٢١ أبرشية في البرازيل و١٢٥ أبرشية في البيرو إضافة إلى مئات المؤسسات الأخرى التي توزعت على أنحاء الأرض.

إن المصالحة بين الدين والليبرالية تستحق منا أكثر من وقفة، وإذا كانت الخلافات داخل العالم العربى والإسلامى تعيق تقديم النموذج المطلوب، فإن هذا لا يمنع أن هناك دولا إسلامية فى جنوب شرق آسيا مثل أندونيسيا وماليزيا نجحت فى إقامة أنظمة تتعايش فيها العرقيات المختلفة وتحقق تنمية حقيقية قائمة على قاعدة الديمقراطية والتعامل الحر فى السوق. وكما أن الخلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين فى أمريكا على ضرورة إقامة الصلاة فى المدارس لا يمنع أمريكا من متابعة مسيرة التنمية وكذلك إرسال بعثات التبشير، فإن هذه الخلافات والاجتهادات فى العالم العربى الإسلامى لا تمنع ضرورة بذل جهود مشتركة لمصافحة اليد التى تمدها الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى باتجاهنا، وإذا لم ننجح فى التقاط هذه اليد فإن التطرف الأصولى لن يكون دعاوى صهيونية أو غربية بل واقعا ربما يجتاحنا جميعا ومعنا تلك الجمهوريات الباحثة لدينا عن نموذج، وهو حديث سياسة وليس حديث دين، وهو حديث تنمية وليس حديثا عن طقوس فى الظلام تمارسها أقليات مازالت تعتقد أن السماء يمكن أن تمطر ذهباً.. لو أنها وصلت إلى السلطة.



العرب من
منظور قريبي
ألم الفشل وأمل الإصلاح

مع دخول العام الجديد (*) يقف المراقب برهة ليستعرض الماضي ويمد بصره - إن أمكن - للمستقبل. هذه الوقفة ليست - ويجب ألا تكون - وقفة الرجل الذي يرى الشجرة ولا يرى الغابة، بل من ينظر إلى الشجرة والغابة معا. بعد أشهر قليلة سوف تحتفل الجامعة العربية بعيدها الخمسين، مرور خمسين سنة على هذه المؤسسة العربية السياسية الأولى، وبعد ذلك سوف نستعد نحن في «العربي» للاحتفال بعيدها الأربعين. خمسون سنة وأربعون سنة تلاقى فيها المؤسستان في محاولة لخدمة الإنسان العربي، الأولى من منظور سياسي، والثانية من منظور ثقافي، فهل تكامل هذان المنظوران؟ وهل استطاعا أن يمهدا السبيل أمام العالم العربي إلى مشارف القرن الواحد والعشرين؟. إن العرب يشدهم إلى المستقبل أمل ويعوقهم في الماضي ألم، وبين الأمل والألم يدور حديثنا في مطلع سنتنا هذه.

ولأن الهم العربي قد عولج من داخله من أقلام وكتاب كثير فإن الحاجة تبدو ملحة إلى أن يعالج هذا الهم من خارجه، لقد نظرنا في المراة كثيرا لأنفسنا وأن لنا اليوم ألا نرى أنفسنا ونعجب بها، بل ننظر كيف يرانا الآخرون.

مايكل فيلد Michael Field صحفى بريطانى يعمل فى

(*) نشر هذا المقال فى مجلة العربى - العدد ٤٣٤ - يناير ١٩٩٥

جريدة الفاينانشيال تايمز وهو مهتم بالشأن العربى وله كتابات سابقة على هذا الكتاب الذى أريد أن أقدمه اليوم، وعنوانه «داخل العالم العربى» صدر فى نهاية العام الماضى ١٩٩٤ - وهو كتاب صريح، يمكن أن يوصف بأنه صورة شبه كاملة لوصفة مفادها «كيف يرانا الآخرون؟». وليس بالضرورة أن نقبل كل ما جاء فى هذا الكتاب من تفاصيل، إلا أنه من الخطأ أن نغض بصرنا عنه، وما سأقدمه هنا لا يعنى الإحاطة الشاملة بما يريد الكاتب أن يقول. ولا غنى لمن أراد أن يتابع أن يقرأ الكتاب. يقول الناشر منها إن هذا أول كتاب يصدر بالإنجليزية عن العرب (كمجموع) بعد احتلال العراق للكويت وتحريرها. ويسرد لنا الكاتب قائمة طويلة بأسماء الذين قابلهم من العرب وغيرهم لوضع هذا الكتاب، كذلك فإنه يشير إلى خبرته ومقابلاته السابقة من قسمين سماهما الكاتب: الفشل والإصلاح.

«الفشل» قصير لا يستغرق سوى ثمانية فصول لا غير، ولكن «الإصلاح» عسير يأخذ من حجم الكتاب عشرين فصلا كاملة.

الفشل العربى

لماذا فشل العرب وأين فشلوا؟. هذا هو السؤال الأساسى الذى يطرحه الكاتب فى قسمه الأول.

يعتبر الكاتب أن الفشل العربى السياسى والاقتصادى قد امتد لأكثر من خمسة عقود بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك شعور بين العرب - من وجهة نظره - بالخيبة وعدم الثقة بالنفس، وهو يقدم من التجربة الجزائرية مثالا لهذا الشعور بالخيبة، وهى خيبة عبر عنها الرئيس الراحل هوارى بومدين - قبل المشكلات الأخيرة - قائلا: (لقد عملنا من أجل الاستقلال، ولكن حلاوته سرقت من شفاهنا). ويرى الكاتب أن الخيبة والفشل ظاهرة عامة فى الدول العربية ومن مظاهرها الديون المتزايدة لمعظم هذه الدول لمؤسسات مالية أو دول خارجية، الأمر الذى يقود فى النهاية إلى معادلة طرفها الأول أن الدولة التى لا تستطيع أن تضمن إيجاد عمل لمواطنيها أو تقدم الخدمات التى عودتهم عليها فى السنين الماضية لابد أن تقدم مقابلا لذلك «الطرف الثانى من المعادلة» أن تقدم تنازلات سياسية. إلا أن المعضلة أن هذه التنازلات السياسية قد تقود - فى نظر الكاتب - إلى فوضى إن هى قدمت بسرعة ودون تخطيط تدريجى، حيث ينقل عن أحد الثقات قوله (إن الديمقراطية العربية كالدواء يمكن أن تقتل إذا أخذت بجرعات كبيرة)!

ويلاحظ الكاتب أن تعطيل خطوات الديمقراطية الشاملة هو ما سماه التحدى الأصولى ' فبعض الإسلاميين - كما يقول -

رجال دين مثاليون لا شك في ذلك، إلا أن معظمهم يستخدمون الشعار الدينى للوصول إلى السلطة، ويؤيدهم الكثيرون لا لأسباب خاصة بهم ولكن لأن هؤلاء لهم موقف من الآخرين أو السلطة القائمة.

جذور الفشل العربى

الفشل العربى الذى نرى مظاهره اليوم له جذور تمتد إلى مرحلة الحرب العالمية الأولى، عندما نشط القوميون العرب ضد الهيمنة العثمانية أملىن الحصول على الاستقلال، ولكن كل ما حصلوا عليه بعد ذلك هو الوقوع فى قبضة الاستعمار الغربى وتكريس الانقسام بين الأفكار المختلفة، وأخيرا قيام إسرائيل برغم أنف الجميع.

ويبحر الكاتب فى تاريخ العرب الحديث المعروف للكثير منا، ولكنه يحلله بمنظور آخر. فهو يعتقد أنه ليس الفشل والمرارة هما السبب فى أن القوميين لم يحصلوا على دولتهم الموحدة، فحتى هذه الدولة لم تكن لتسعدهم بل وقد تفتقر أيضا إلى الاستقرار نظرا للتناقضات التى يمكن أن تحتوى عليها. وما اختلف القوميون عليه فى المشرق ليس أن تنشأ دولة عربية موحدة ولكن حول أى مقاطعة من المقاطعات يمكن أن تنضم إلى هذه الدولة مع ما فيها من أقليات عرقية أو مذهبية. فكرة الوحدة التى رفعت شعارا لتخويف أو إرهاب الآخرين لم يكن

رافعوها يرضون بها. ويدلل الكاتب على الخلافات العربية من مراحلها المبكرة، ويلاحظ بشيء من الغمز المبطن أن الوحدة العربية مقبولة فقط من تلك الدول - التي تمكنت من السيطرة على الآخرين - لا مشاركتهم.

ثم يأتي الحديث عن ملابسات الثورة العربية سنة ١٩١٦، وهو يرى أن ذلك تم لأن جمال باشا (الذي سماه التاريخ العربى بالسفاح)، قد اكتشف نية الشريف حسين بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية، وكان يجهز جيشا لاحتمالات العصيان. ويرى الكاتب أن أحد أسباب الفشل العربى اللاحق هو أن العرب لم يفهموا ما حدث فيما بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٢ وهى أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها، فهذه الفترة هى مصدر ظهور معظم الخرافات السياسية والتصور القائل إن خلف كل حدث توجد مؤامرة أو ما يعرف بالتفسير التأمري للتاريخ. مع أنها فى نظر الكاتب مصالح للدول الكبرى تغيرت وتبدلت حتى بمرور سنوات الحرب وسنوات المفاوضات التى تلتها. لذلك فإن اتفاقية سايكس - بيكو (فبراير ١٩١٦) ووعد بلفور للصهيونية (نوفمبر ١٩١٧) ومراسلات الشريف حسين مع مكماهون، كلها كانت ضرورات الحرب والسعى وراء النصر.

ومن الطريف أن الكاتب يفسر الحديث عن الاستقلال فى

مراسلات الشريف حسين ومكماهون بأنه يعنى الاستقلال عن تركيا، ولا يعنى أن العرب - تلقائيا - سوف يحكمون أنفسهم!! ويبرر هذا القول بأن الغرب كان على يقين منذ عقود - قبل الحرب العالمية الأولى - من سقوط الإمبراطورية العثمانية، وكان يشار إليها دائما «بالرجل المريض»، وفي حالة سقوطها فإن الدول الأوروبية سوف تقسم مسئولية الإشراف على الأراضي التي كانت تابعة لها. لقد كان الساسة الغربيون وقتها ينظرون إلى العرب في إطار الأفكار التي استقوها من الكتاب المقدس أكثر من فهمهم للعرب كحقيقة وواقع. ودائما كانت المصالح هي التي تحدد مسار السياسة الغربية، فقد كان هم البريطانيين الأساسي تأمين طريق سكة حديد من موانئ البحر الأبيض إلى شمال الخليج لتسهيل نقل الجيوش من أوروبا إلى الهند، جوهرة الإمبراطورية في ذلك الحين، وأيضا لإبعاد الروس عن المنطقة . وظلت مشكلة البريطانيين لمائتي عام خلت ألا يكون للروسى مواطناء أقدام فى موانئ البحر الأبيض، وألا تكون لهم حاميات عسكرية فى أفغانستان وإيران، والتي من خلالها يمكن أن تصل جيوشهم إلى سهول الهند.

والفرنسيون من جهة أخرى كانت مصالحهم تتمحور حول المسيحيين فى جبل لبنان، والذين تدخلوا قبل ذلك لحمايتهم

فى الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠، ومنذ تلك الحرب كان الجبل اللبنانى يحكم من مسيحى مسئول مباشرة من الصدر الأعظم فى اسطنبول، ولكن هذا كان يتم بالتشاور الدائم مع القوة الغربية. هذا التدخل السياسى الفرنسى تواكب مع الاهتمام بزيادة التجارة، وكانت السفن التجارية الفرنسية تنقل الحرير من دمشق مرورا ببغروت إلى البرجوازىة الفرنسية الناهضة فى نهاية القرن الماضى. وقد ارتبط ذلك بذكرىات فرنسية قديمة ترجع إلى الدولة المسيحية التى ظهرت إبان الحروب الصليبية وكانت عاصمتها دمشق. لذا فقد كانت الخطوة الطبيعية، أنه بمجرد إعلان الدولة العثمانية دخولها الحرب أن تحاول فرنسا احتلال الإقليم السورى.

من هذه المصالح نبتت فكرة تقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية إلى إقليم شمالى يكون بحوزة الفرنسيين، وإقليم جنوبى يحوزه البريطانىون. ذلك كان التخطيط إبان الحرب، أما بعد الحرب فقد اختلفت المصالح. وجد البريطانىون أنفسهم فى دوامة وعودهم المتناقضة مع الفرنسيين، ومع الشريف حسين، ومع الصهيونية.

ومع المناورات السياسية التى تلت، فإن هذه الوعود الثلاثية لم تتحقق كما أريد لها، فاكتفى الفرنسيون بسوريا ولبنان بعد مناوشات وحروب، وضم البريطانىون إقليم الموصل

لمصالحهم فى العراق، إلا أن العرب كانوا مختلفين أيضا. ففى المؤتمر السورى العام الذى عقده القوميون فى نهاية عام ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠، كان هناك اتفاق على أهمية وجود سوريا الكبرى ولكن ليس العراق، فقد أصر معظم ممثلى ما بين النهرين (العراق لاحقا) على أن يرفضوا فكرة التوحيد.

هذه الجذور فى الاختلافات التى يناقشها الكاتب بإسهاب هى التى، فى نهاية الأمر، كانت السبب فى وجود بعض الدول العربية المعروفة اليوم فى بلاد الشام، وظهرت الدولة القطرية التى أخذت استقلالها بعد ذلك تدريجيا من النفوذ البريطانى والنفوذ الفرنسى وتوالى مواقف الاستقلال وتكون الدولة الحديثة.

سنوات الليبرالية ورد الفعل

سنوات الاستقلال الأولى أوجدت حكومات ليبرالية كانت حريصة على القطاع الخاص والمبادرة الفردية، وحرية التجارة وحرية الانتقال، وحرية القول، وامتد العصر الليبرالى منذ الاستقلال حتى نهاية الأربعينيات، بدرجات مختلفة، إلا أن هزيمة سنة ١٩٨٤ وظهور دولة إسرائيل أحدثا العديد من ردود الفعل العربية، وكان سببها المباشر أن الجيوش العربية فسرت تلك الهزيمة بتخاؤل الحكومات العربية التى أدخلت إلى الحرب جيوشا لم تكن مستعدة ولا مجهزة، وتزامنت

الانقلابات العسكرية بتحول العالم إلى حرب باردة. ومن أجل تعبئة الجميع - كما رأى المسئولون الجدد - صار التحول التدريجي إلى الاشتراكية العربية، وهي محاولة لإيجاد صيغة ما تناسب الثقافة العربية ولا تندمج مع الممارسات الماركسية، فقط الدولة الوحيدة التي أعلنت ماركسيته هي دولة اليمن الجنوبي، أما بقية التجارب العربية فقد كانت تعبيراً عن الجو العام الذي أخذ يسود العالم الثالث، وكان الهدف هو البحث عن توليفة سياسية/اقتصادية لتسريع التحديث، إلا أن هذا التسريع ومحاولة تعبئة موارد المجتمع لملاقاة التحدي الذي فرضته إسرائيل سرعان ما وصل إلى مرحلة مخيبة للآمال من جديد، وهي هزيمة ١٩٦٧، والتي تعد بمثابة الكارثة الثالثة للعرب بعد هزيمة عام ١٩٤٨ قبلها، واحتلال العراق للكويت سنة ١٩٩٠ بعدها.

المراوحة الاقتصادية

جزء من الكتاب، سواء في قسم الفشل أو قسم الإصلاح يخصصه الكاتب لمناقشة الاقتصاد العربي. فخلال عشرين عاماً بعد تصحيح أسعار النفط ١٩٧٣، كان دخل العرب من النفط حوالى ترليون دولار، بعض هذا الدخل استغلته الدول المنتجة، وبعضه (أكثر من ١٠٠ بليون دولار) حول إلى الدول العربية الأخرى في شكل هبات أو قروض ميسرة ولم يحدث

هذا المال - فى أى مكان كان - معجزة اقتصادية تماثل ما حدث فى دول جنوب شرق آسيا مثل كوريا وتايوان أو سنغافورة.

ويفسر الكاتب السبب فى فشل هذا المال فى تحقيق معجزة اقتصادية بأن المال وحده ليس بالضرورة مسببا جيدا للتنمية. رأس المال تحتاج إليه الدول لبناء الموانئ والطرق وشبكات الاتصال وبعض البنى التحتية وكذلك المدارس والمستشفيات، ولكن من أجل إقامة صناعة متطورة وخدمات مثمرة فإن الدولة - أية دولة - تحتاج إلى أكثر من المال، تحتاج إلى الاستقرار السياسى وقوة عمل واعية ومنظمة وملتزمة وسوق قريب نشيط. والعديد من الدول العربية تنقصها هذه العوامل. لقد افتقدت المنطقة الاستقرار نتيجة الحروب مع إسرائيل، والحروب الأهلية، والحروب الإقليمية التى لا تكاد تنقطع، الغرب يعرف العرب بالمال النفطى.. وكما يقول الصحفى باترك كوبيرن - من الفاينانشيل تايمز - (إن مشكلة النفط أنه لا يفعل شيئا غير أن يعلم الناس الاستمتاع بصرف مداخيله). وهذا القانون - يؤكد المؤلف - ينطبق على الدول العربية الغنية والمستفيدة منه بشكل مباشر أو غير مباشر.

وبرغم ذلك - يؤكد المؤلف - فإن سوء استخدام المال النفطى ليس هو سبب الفشل الاقتصادى. إن الفشل الحقيقى هو

سوء إدارة الموارد البشرية، تدريب البشر والاستفادة من طاقاتهم. خارج دول النفط في الخليج - يرى المؤلف - أن الدول العربية قد سنت قوانين اقتصادية غير مرنة، ففي ضوء التوجه نحو الاشتراكية العربية منذ ١٩٦١، كانت الفكرة السائدة في الدول العربية هي توظيف وتعبئة إمكاناتها لصالح الشعب، وليس فقط للطبقة الرأسمالية، وكانت دوافع هذا التفكير مبررة سياسيا وإلى حد ما اقتصاديا وقتها، ولكن الدولة في هذا المضممار كانت تفكر في الإمكانيات المادية المعروفة (مصادر الثروة المادية) كالأرض والزراعة، المواد الأولية، الطاقة، الصناعة، القوة البشرية وقاتها التفكير بالمصادر غير المادية للثروة، وهي المبادرات الإنسانية والحوافز، وكذلك فاتها التفكير بربط المشروعات الصناعية بالعمالة المؤهلة وبالطلب في السوق المحلي واحتمال الربح، هذه الأفكار كانت غريبة عن تفكيرهم. ويضرب الكاتب مثالا بتلك المشروعات الضخمة التي قامت بها الدولة - وكانت دوافعها سياسية لا اقتصادية - فشلت كلها في تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها. الحكومات أمتت الشركات الخاصة، وأوجدت مشروعات خاصة بها، وتشكلت شركات للدولة تخصصت في نوع معين من الإنتاج، وحددت بعد ذلك حجم المنتج والسعر الذي يباع به، وما إذا كان المنتج للسوق

المحلى أو للتصدير وكانت فكرة الصناعة والإنتاج للإحلال مكان الواردات فكرة جميلة ومغرية على الورق، ولكنها أجبرت الدولة على أن تخصص رأس مال وقوة عمل فى قطاعات لا تستطيع المنافسة فيها، وكان الإنتاج للخارج يتم عن طريق التبادل السلعى مع الدول المماثلة (الاشتراكية) دون الحصول على نقد نادر.

كل ذلك جر إلى مجموعة من المشكلات الاقتصادية الداخلية، منها تدهور سعر العملة الوطنية وظهور السوق السوداء للعملات الصعبة، وعطل من النتائج الإيجابية المرجوة التشابك البيروقراطى والإهمال الوظيفى والوساطة وكل الأمراض الاجتماعية.

فى أماكن أخرى من العالم العربى والتى لم تقيد بمثل هذه القيود نجد هناك معوقات أخرى لها طابع آخر، فرجال الأعمال العرب - فى معظمهم - لا يتوجهون للاستثمار فى الصناعة بل يرحبون بالاستيراد، وهذا راجع تاريخيا - كما يرى المؤلف - إلى تطور طبقة التجار الذين يرحبون بالاستيراد والتوزيع وأخذ الوكالات للسوق المحلى أو العمل بالمقاولات. وهى مجالات - فى معظمها - لا تتطلب المخاطرة برأس المال، زاد على ذلك أن المجتمع العربى مجتمع مظاهر، فترى الرجل يستخدم سيارة فاخرة ويلبس الملابس الغالية ويزين زوجته

بالحلى، وليس لديه فى نفس الوقت أى نوع من الادخار.
وحتى لو كان رأس المال متوافرا فإن هناك مقاومة مزاجية
لتوظيفه، على عكس ما نجده فى الاقتصاديات الصناعية
الحديثة. أهم استثمار لصاحب المال العربى هو فى العقار،
حيث الضمانات كبيرة (فالعقار لا يمرض ولا يموت).
وعلى الرغم من أن العرب استوردوا فى بداية التسعينيات
من المواد الغذائية بما يساوى تقريبا عشرين مليار دولار، إلا
أن اهتمامهم بتطوير الأرض الزراعية هو اهتمام قليل،
فالفترات ودجلة يجلبان حجما من الماء يمثل ما يجلبه النيل
إلى مصر، إلا أن الاهتمام بالزراعة فيما بين النهرين فى
حدوده الدنيا ولا يستفاد من الأرض القابلة للزراعة فى
السودان، والتى يعتقد الخبراء أنها سلة الخبز ليس للعرب
وحدهم بل لمعظم إفريقيا. أما العناية بالموارد البشرية فإنها
المنطقة المهمة كما يرى الكاتب. فالمال يصرف على المباني
المدرسية، إلا أن مستويات التدريس والتدريب غير معتنى بها،
فهناك مواد جغرافية وتاريخية وسياسية وقانونية لا يسمح
بتدريسها فى الجامعات، ويتكدس الطلاب العرب فى صفوف
التعليم الأدبى والاجتماعى، أما التعليم العلمى المميز أو
التطبيقى فإن نسبته قليلة، ولا يترك الكاتب الموضوع
الاقتصادى إلا بعد أن يستعرض مجموعة من أشكال الفشل

التي انتابت مشروعات الاستثمار العربى/ العربى - خاصة
تلك المشروعات التي انطلقت من دول الفائض المالى (الخليج
فى السبعينيات والثمانينيات) إلى بلدان الكثافة السكانية.
البحث عن استجابة

عدد سكان البلاد العربية حوالى ٢٣٠ مليون نسمة (تقريبا)
موزعين فى بلدان ثقل عربى وبلدان قليلة الكثافة السكانية،
ثلثاهم فى إفريقيا والثلث الثالث فى آسيا، وعدا المصريين فى
وادي النيل وسكان الأهوار فى العراق (قبل التجفيف الأخير
للأهواز) الذين يعيشون بقرب الماء، فإن معظم العرب يعيشون
على حواف الصحراء، وهذا ما أعطاهم النظر إلى الخارج،
ومعظم الاقتصاد السائد فى البلدان العربية هو اقتصاد
الخدمات وخاصة المتعلقة بالتجارة والتوزيع وإدارة المحلات
الصغيرة، والكثير من رجال الأعمال صنعوا ثروتهم من
الاتجار بالعقار، والمقاولات، والاستيراد، والنقل وأخيرا
السياحة. ولقد كان دخل مصر من السياحة فى بداية
التسعينات يساوى مجموع الدخل من النفط والمعونة الأمريكية
وما يرسله المهاجرون المصريون لذويهم.

ولا يوجد بلد عربى لديه قطاع أساسى فى الصناعة غير
صناعة البتروكيماويات فى المملكة العربية السعودية، وصناعة
الملابس فى تونس والمغرب أما المستثمرون الخواص فلا

يستخدمون أموالهم - عدا ما يحدث في السعودية - لأسباب إما سياسية أو مزاجية مما جعل الاستثمار الرئيسى يقوم به القطاع الحكومى - غير الكفو - المقيد بالقيود البيروقراطية.

ويرى معظم العرب هذه الصورة المشوشة من الحروب والهزائم والفشل الاقتصادى، على أنها وضع غير عادل وغير متوقع، وحيث إنه فى ذهن كل عربى تاريخ الأجداد العظام وانتصارات السلف الصالح وما سمع وقرأ من مساهمات كبيرة فى الحضارة العالمية، لهذا كله فإن المسافة بين المأمول والواقع مسافة كبيرة، وهى التى تسبب كل هذا الإحباط.

هناك قيم مشتركة لدى الطبقات العليا فى العالم الثالث منها أنها حديثة، متسامحة، مادية، ودولية. ويشارك بعض العرب فى هذه القيم، ولكن الجماهير العربية الأعرض لا تنسى جذورها الأكثر قدما والأكثر عمقا ولا تنفك عن ثقافتها التقليدية. لذلك فإن ردة فعل هذه الجماهير ليست قبول الأفكار الجديدة والتكيف معها. بل رفضها والبحث فى تاريخهم عن حلول لمشكلاتهم، عربية وإسلامية.

هذا التوجه هو الذى يجعل الجماهير العربية رافضة للغرب وهو رفض ليس بجديد. فقد رفض العرب - تحت الحكم العثمانى - الاحتكاك بالغرب، لذا نجد أن معظم من تعاطى التجارة مع الخارج، وبالتالى حصل على شىء من التعليم،

كان إما من الأجانب القاطنين في البلاد العربية أو من
المسيحيين العرب

في آخر القرن التاسع عشر نجد النفور من نفوذ الغرب قد
ظهر في ردة فعل عرابي باشا ضد حكم الخديو توفيق وضد
الأوروبيين الذين تحكموا في ميزانية الدولة وقتها، وكذلك
خلال العشرين سنة الماضية ظهرت دعوات الإسلام
السياسي.

لقد أضيفت عوامل جديدة إلى العوامل القديمة، فعلاقات
الدول العربية البينية تتغير، وكذلك علاقاتها بإسرائيل تتغير،
وهي متغيرات جذرية لا بد أن تؤثر في ما كنا نعرفه ونتوقعه
من استقرار أو اضطراب، من توجه إلى الأمام أو النكوص
إلى الخلف.

ذلك ملخص لما يريد أن يقوله الكاتب في كتابه، هو بالفعل
جولة داخل العالم العربي - ماضيه وحاضره ومستقبله -
وأفضل ما فيه هو الرصد الموضوعي في معظم الأوقات
للمظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية العربية. وهو
يتركنا على مفترق طرق، إما التوجه إلى الأمام عن طريق
الإصلاح الاقتصادي والسياسي أو النكوص إلى الخلف لمزيد
من الفرقة والتشرذم وربما الحروب.

ولا توجد طرق سهلة للشعوب لاجتياز مشكلاتها، فقط
توجد عقول تنير الطريق إلى الأمام. وكل عام والعرب طيبون.

البحث عن التوازن
العربي المستقر
أمراض العرب السياسية لا
يعرف لها تشخيص
وتستعصى على العلاج

كان أغسطس دوما هو شهر الهروب من قيظ الحر وقسوة الرطوبة، ولكنه أصبح رغما عنا هو شهر الوقوف أمام الذات. ليس وقوفا على الأطلال أو البكاء عليها كعادة بعض العرب الحميمة، ولكن في محاولة لتأمل جروح الماضي والنظر في أسبابها وفتح نافذة على المستقبل.

منذ أربع سنوات - أي منذ الغزو العراقي للكويت - وأنا أشعر أن أغسطس من كل عام يمثل نوعا من مفترق الطرق بين نظام عربي قديم انتهى أمره ولم يعد له وجود.. وبين نظام آخر لم يتبلور بعد تاركا إيانا في حالة من السيولة السياسية علينا أن نحاول أن نبحث لها عن اسم أو صفة ربما يمكن التعامل معها من أجل إيجاد طرق جديدة للتفكير في ذلك النظام العربي المرتجى والمستقر.

في الغرب يطلقون تعبير «أعراض صينية» على الأمراض المزمنة التي لا يعرف لها تشخيص محدد أو يوجد لها علاج ناجع، والنسبة (للصين) هنا تعني المجهول أو الغامض كغموض اللغة الصينية بالنسبة للأوروبي، فأى تعبير يمكن أن نطلقه على أمراضنا العربية المزمنة؟ أجد نفسى ميالا لأن أطلق عليها «أعراض يمنية» ربما لأن الكابوس اليمني مازال قائما ومستمرا، وربما لأن اليمن هي بيت العرب القديم، خرجت منه كل قبائلنا، وفيه استوطنت معظم أمراضنا، و

يمكن أن نسميه أيضاً (أعراض لبنانية) لا فرق، فإذا اقتربنا قليلاً وأزحنا تراب الزمن الذى أصبح الآن له لون البارود والدم لتوصلنا إلى تشخيص الحالة العربية، و«الأعراض اليمنية واللبنانية» هى ليست يمنية فقط أو لبنانية ولكنها حالة تنم عن وضع العرب اليوم، مرض العرب السياسى هو حروب أهلية لا يعرف لها تشخيص ويبدو أنه لا يوجد لها علاج أيضاً.

لا إكراه فى الوحدة

ربما كان «الكابوس اليمنى» الأقرب والأحدث والساخن والذى مازالت آثاره الدموية تتوالى وتتطور وتشغلنا جميعاً يجيب عن سؤال تأخرت الإجابة عنه اثنين وثلاثين عاماً كاملة، وهو سؤال له علاقة بآمال العرب العريضة، ألا وهى (الوحدة). ماذا لو أن عبد الناصر لم يقبل منطق الانفصال فى الوحدة بين مصر وسوريا وقرر أن يلجأ للخيار العسكرى؟ ماذا لو أنه لم يتراجع فى اللحظة الأخيرة - كما قيل - ويأمر بوقف القوات التى شرع فى حشدتها والعتاد الذى كان قد بدأ فى تسييره؟

لقد عشنا طوال العقود الماضية ونحن نرثى هذه الوحدة قصيرة العمر، وتبارى مفكرون القوميون - وهم منتشرون على الأرض العربية - فى لوم عبد الناصر لأنه تخاذل فى مواجهة

عسكر الانفصال، وأخذوا يذكرونه دوماً ويذكروننا أيضاً بأن الوحدة هي أشبه بعمليات (الولادة الصعبة) يجب أن تُعتمد بقليل من الدماء وكثير من الألم، فعل هذا غاريبالدى وهو يفرض الوحدة الإيطالية بالسيف، وأكدّه بسمارك من خلال عشرات الدسائس والمؤامرات ضد أمراء الإقطاعيات الألمانية، وكان هؤلاء المثقفون جميعاً يطالبون عبد الناصر بإلحاح بأن يتحلى بعزيمة غاريبالدى ودهاء بسمارك وأن يتبع أى أسلوب «برجماتى» يراه لأن الوحدة باقية والأشخاص ذاهبون.

لم يفعلها عبد الناصر اعتماداً على حدسه السياسى العميق، وعلى معرفته الواضحة بالمتغيرات، فعرب النصف الثانى من القرن العشرين هم غير إيطالى وألمان القرن التاسع عشر!! لكنه حسب حساب الزمن الذى تجاهله الكثيرون منا، ونجا مؤقتاً من فخ الحرب الأهلية بين مصر وسوريا، وإن لم ينج من فخ الحرب الأهلية فى وقت لاحق فى اليمن، لقد ضحى بتجربة الوحدة كى ينجو بفكرة وحدة الصف التى تحقق أهداف العرب تجاه التحديات المفروضة عليهم سياسياً ومعيشياً، تجاوز الواقع الصعب، فريماً يأتى يوم تتحقق فيه الوحدة بالتراضى بين أطراف عربية استكملت وحدتها الوطنية وأدركت أن مصلحتها المشتركة هي فى الوحدة.

يقدم لنا الإخوة المتصارعون فى اليمن اليوم إجابة واضحة عن مصير الخيار العسكرى لإقرار الوحدة، فباسم هذا الحلم النبيل ترتكب المجازر وتقصف المدن ويتسابق الجنود الذين لا يمتلكون القدرة على ارتداء ملابس عسكرية لائقة فى خوض المعارك وإهدار مئات الطلقات على (إخوانهم/ أعدائهم) من أطفال ونساء وعجائز، وهم بذلك يضيفون حلقة جديدة من مسلسل الحروب العربية الأهلية التى لم تتوقف ولا يبدو أنها ستتوقف.

وإذا كان البعض قد علق ساخرا بأن العرب فى حاجة إلى عدو جديد يحاربونه بعد أن ظهرت قباشير الصلح مع إسرائيل، فإن الصراع اليمنى يؤكد أن الحرب والنزيف العربى لم يكن يوما ضد إسرائيل بقدر ما كان ضد أنفسنا. لقد حدثت بيننا وبين إسرائيل صدامات مسلحة على فترات زمنية متفاوتة، ولكن الحرب الفعلية التى استطلت ودامت وأخذت أشكالاً ومواقع وشعارات وقيادات وضحايا مختلفة هى الحرب العربية - العربية، الحرب التى مزقتنا واستنزفت ثروتنا وشتتت وفاقنا وأضاعت مصالحنا، ولو أن طاقة العداء العربى هذه قد تحولت قليلا لإنصاف أهل فلسطين لما وصلنا إلى تلك الاتفاقيات المجحفة، من نوع غزة وأريحا وغيرها. لقد بترنا غالبا طريق الوحدة دون بوصلة أو خارطة فتاهت

معالم الطريق أمامنا.

روح القبيلة تسود

بماذا يمكن أن نصف هذه الحرب الأخيرة وبقية الحروب بغير الروح القبلية التي مازالت رابضة تحت الأشكال الظاهرية للتمدين العربى، فى العديد من البلدان العربية ترتدى القبائل أقنعة عصرية ولكنها فى اليمن تتصارع بوجوهها الصريحة، فى اليمن مازالت توجد ٢٠٠ قبيلة منها ١٦٨ قبيلة فى الجزء الشمالى، معظمها محصن داخل مناطق جبلية وعرة لا تستطيع السلطة المركزية أن تفرض سطوتها عليها، وهى قبائل عانت كثيرا من ظلم الأنظمة السابقة وتسلطها، ولم تعد تثق فى أى سلطة أخرى غير سلطتها الذاتية، وعندما ثار ضباط الجيش اليمنى، وأقاموا عددا من الحكومات العسكرية المتعاقبة لم تستطع السلطة الجديدة أن تخضعهم بل إن العكس هو الصحيح، فقد خضع الكثير من ضباط الجيش لسلطة القبائل وتوجيهاتها، وكان للعديد منها «ميليشيات» خاصة تسيطر على أقاليم بأسرها، بل وعمدت إلى ابتزاز السلطة المركزية فى العديد من المناسبات، وعلى حد تعبير المستشرق الروسى «الكسندر سيمونوف» الذى عاش طويلا بين قبائل اليمن وعرف خباياها وهو يقول «لعل اليمن الشمالى هو الدولة الوحيدة التى تدفع حكومتها

الضرائب لفئة معينة من السكان وليس العكس، فالدولة تدفع لبعض القبائل التي تسكن الجبال، وإذا لم تستجب لمطالبها قامت بقطع الطريق واختطاف المواطنين الأجانب وسببت لها العديد من المشاكل».

هذه هي الروح القبلية التي يحاول أن يدخل بها بعض العرب القرن الحادى والعشرين، وهى نفس الروح التي يحاول بها اليمن الشمالى أن يقيم وحدة مع شطره الجنوبى الذى يشاركه فى الامتداد الطبيعى والتكوين الإثنى، وإن اختلف عنه نسبيا فى تركيبه الاجتماعى والعمرانى، فقد كانت فى اليمن الجنوبى ٣٢ قبيلة ذابت جميعها فى التكوين الجديد للدولة، ولم يعد هناك كيان قبلى بارز منها فى ظل الدولة المركزية، لقد كانت «عدن» هى الميناء الثالث فى العالم بعد ليفربول ونيويورك، لذا فقد عاشت المدينة حياة مفتوحة دائما مع العالم الخارجى، وحتى عندما دخلت اليمن الجنوبى فى فلك الاتحاد السوفىيتى ظلت حريصة على بنية الدولة العصرية ووفرت ما تستطيعه وفق إمكانياتها الضئيلة من أجل توفير قدر من التعليم ومن الضمان الاجتماعى لمواطنيها.

ومنذ البداية كانت مشاريع الوحدة بين الشطرين محفوفة بالصعوبات، فى كل مرة كانت تبدأ مباحثات الوحدة كانت تدفع البلدين إلى الاشتباكات المسلحة، تحاربا فى عام ١٩٧٢،

ثم عادا للتحارب بعد ذلك بسنوات سبع فى ١٩٧٩، ثم وقفا على حافة الحرب للمرة الثالثة فى عام ١٩٨٨، لولا أن القيادتين اللدودتين وقتها سارعتا بامتصاص مشاعر الحنق داخل صفوفهما، وقررتا أن تتحولا على الفور إلى وحدة اندماجية، فى محاولة لحل المشكلات المعلقة، لقد ظن الطرفان أن الوحدة هى ترياق للصراع، وقد ثبت بعد ذلك أنها دون حساب دقيق أحد مسبباته. كانت هذه الوحدة التى لم تعيش أكثر من ثلاث سنوات ونصف - أى أن عمرها كان أقل من عمر الوحدة المصرية السورية - نوعا من الفرص السياسية المؤقتة، فاليمين الجنوبي كان يحس بفراغ سياسى بعد انهيار الاتحاد السوفييتى حليفه الأكبر، واليمين الشمالى الذى عانى ضائقة اقتصادية مزمنة كان يتطلع مثلما لتوسيع رقعته الجغرافية واقتناص بشائر النفط التى بدأت تلوح فى الجنوب.

جذور الحرب الأهلية

ولا أريد هنا أن أخوض فى تفاصيل هذه الحرب المؤسفة، وهذا الدمار الذى يتألم له كل عربى، ولكنها - هذه الحرب - تقودنا رغما عنا إلى تتبع جذور الحرب العربية والأهلية، تلك المأساة المتكررة عبر تاريخ العرب الحديث، ويمكن أن نقسم الدول العربية إلى ثلاثة أقسام: دول خاضت هذه الحروب ودفعت ثمنها غاليا، ودول مازالت تخوضها حتى الآن وتغرق

فى مستنقعها الدامى يوما بعد يوم، ودول تقف على حافتها وتتأهب لدخولها، الأمر الذى يجعلنا نصاب بالرعب للخطر المستقبلى الذى يقف فى انتظارنا شاهدا على تمزقنا. وربما كان القاسم المشترك الأعظم بين هذه المجموعات الثلاثة هو أن الدولة الوطنية، فى هذه المرحلة تمر بحالة من الضعف والتردى تجعلها عاجزة عن حل مشاكل التخلف السياسى والإحباط الاقتصادى الذى تواجهه، وبالتالي ترى العديد من الجماعات سواء كانت دينية أو عرقية أو قبلية أنه ليس من حق هذه الدولة احتكار السلطة وحدها، لذا فإن أليات الحرب الأهلية تبدأ عادة بالتمرد ضد سلطة الدولة ومحاولة اقتلاع جذورها من الشارع، ثم تقفز على الحكم ببرنامج ضبابى وهى تستعين فى ذلك بقانونها الخاص، قانون القبيلة أو الحزب أو الجماعة الدينية، ذات التوجه الواحد.

وهكذا تفقد (الدولة) خاصية احتكار العنف وإرساء القانون، إنها تواجه هنا بعنف مضاد وقانون آخر، وتضع هذه الجماعات أيديولوجية ضيقة قائمة على مصلحتها الشخصية بحيث تقضى تماما على البقاء الهش للوحدة الوطنية. وافتقاد الوحدة الوطنية عنصر مهم من عناصر النزاعات الأهلية، كان موجودا بشكل حاد فى لبنان إبان الحرب التى استمرت خمسة عشر عاما، ومازال موجودا ومتأصلا فى جنوب

السودان والصومال والعراق وحتى فى بعض الدول التى لم تصل فيها جماعات المتمردين إلى السلطة، وهو - أى افتقار الوحدة الوطنية - يفقد الوطن مناعته.

لقد حولت الحروب العربية والنزعات الأهلية فى بعض الدول العربية، المواطن العربى إلى فأر مذعور، هدفه الوحيد هو البقاء على قيد الحياة، وهى حياة مريرة يقضيها بين الاختباء فى الملاجئ والهجرة من مكان لآخر والرعب من القصف العشوائى، والقتل على الهوية، واللهات المستمر للبحث عن الطعام والدواء قبل أن ينفد كل شىء، وهو يتحول بذلك من مواطن إلى كائن بيولوجى تحركه فقط غريزة البقاء، إنها تشوه روحه وتحط من إنسانيته، ومن قدرته على الخلق والابتكار، وعلينا أن نتصور أطفال هذه النزاعات الطويلة التى شوهت نفسياتهم والمصير الذى ينتظرهم بعد أن ذاقوا الرعب فى أيام طفولتهم الأولى.

وقد تناقلت وكالات الأنباء أن أطفال عدن كانوا يشتاقون الليلة واحدة فقط خالية من القصف العنيف، حتى يتمكنوا من متابعة مباريات كأس العالم، كانوا يريدون أن يتشاركوا مع الملايين من أطفال العالم فى الجلوس أمام التلفزيون، والتمتع برياضة كرة القدم ولكن القصف العشوائى بالصواريخ والموت المفاجئ لم يمكنهم من ذلك.

ومن المثير للدهشة أن الحروب الأهلية التي تقع بين أبناء البلد الواحد تكون أشد مرارة وعنفاً من الحروب التي تقع بين هذا البلد وعدو خارجي، إن عملية تعميم العداء بين فصائل نفس الشعب تكون دائماً مؤلمة وموجعة، إنها أشبه بعمليات بقر الأذرع والسيقان، إنها رغبة من الجماعة المتمردة في إثارة أكبر قدر من الخوف الممتزج بالكراهية، إنه ظلم ذوي القربى، وربما كان هذا هو سر المبالغة في إطلاق كميات كثيفة من النيران دون تمييز بين موقع مدني أو عسكري أو بين مستشفى أو مدرسة أو بناية سكنية، إن هدف النزاعات الأهلية هو دفع الجميع إلى طريق اللاتسامح الدموي، فكل جماعة - أو قبيلة - تغلق فكرها حيال الأخرى وتحاول إلغائها، حدث هذا في لبنان ويحدث في اليمن وتمارسه الجماعات المتعصبة الأخرى بدعوى تكفير كل من يناوئها وتسعى لاستئصاله

في حالة لبنان فإننا نرى حتى اليوم - رغم حالة الهدوء النسبي بعد الحرب الأهلية - أن هناك مناطق سكنية قد هجرها أهلها ولا يريدون العودة إليها من جديد، فذكرياتهم المريرة تمنعهم من العيش مرة أخرى في مناطق شهدت عنف جيرانهم، وتبقى جروح الحرب الأهلية لسنوات لا تندمل، وهي جروح نفسية وثقافية تشرخ الوطن وتقعده عن مسامرة ركب

الحضارة.

من حرب المدن إلى حرب الشوارع

وما زالت «الأعراض اليمينية» مستمرة، من حروب المدن إلى حروب الشوارع، من تصفية الخصوم السياسيين إلى محاولة اغتيال الأفكار.. العنف والعنف المضاد

ورغم الاختلافات الكبيرة بين سلطة الدولة، وبين الجماعات الأصولية التي تناوئها في بعض بلداننا العربية، إلا أنهما - ويا للمصادفة - يتشاركان في الكثير من الصفات والمواقف، فهما معا يقفان نفس الموقف الغامض من المشاركة السياسية والديمقراطية ومبدأ تداول السلطة والحريات الممنوحة للأفراد الذين يخالفونهم في الرأي، وكلاهما - الدولة والجماعات - تعطي لنفسها المرجعية الأخيرة، ولا كلمة فوق كلمتها، ولا رأى إلا رأيها.

فما زالت الدولة المركزية في كثير من أقطار الوطن العربي تعتمد سلطة الرأي الواحد، ولا تتوقف - بواسطة صناديق الاقتراع أو غيرها - عن تهميش دور الأحزاب الأخرى، ورغم هجومها على الأنظمة الشمولية فهي ما زالت تمارس أساليبها ولا تسمح بقيام معارضة حقيقية وفعالة يمكن أن تقوم بدور الرقابة والتوجيه، ناهيك عن أن تكون قادرة على التنافس على الحكم، ولا تأخذ في اعتبارها أي تعددية سياسية تخالفها

الرأى ولا تدع هذا يؤثر فى سلطة اتخاذها للقرار.
وهو نفس الموقف باختلافات بسيطة بالنسبة للجماعات
الأصولية، فهى ترفض مبدأ التعايش على قدم المساواة مع
الرأى الآخر أو الأقليات الدينية والطائفية الأخرى، وتتعرض
فقط لصدام مع أبناء الملة الأخرى قسراً، هكذا كانت الحرب
الأهلية اللبنانية لم تكن جذورها عقائدية فقط، فقد كانت
بجانب ذلك ثورة ضد الحرمان من الامتيازات التى تتمتع بها
طائفة دون الأخرى.

ولا يزال موقف بعض الحكومات غامضاً من الديمقراطية،
فهى تنادى بها ولكنها لا تضعها موضع التنفيذ الفعلى، بل
إنها فى أغلب الأحيان - وكما يبدو من تصريحات كبار
المسؤولين - تراها مرادفة للفوضى السياسية، وتعتقد أن
الجماهير التى تعاني من الأمية ومن التخلف غير مهية
لممارستها، ولذا تلجأ بعض الأنظمة العربية إلى صورة مقيدة
للمديمقراطية لا تخلق مؤسسات شعبية ذات سلطة حقيقية
مؤثرة فى صنع القرار السياسى ووضع آليات للرقابة
الشعبية.

أما الجماعات الأصولية فهى بادية نى بدء لا تترتاح لهذه
الكلمة (الديمقراطية) ذات المدلول الغربى، ثم تتعدى ذلك إلى
رفض بقية آليات هذه العملية من أول صناديق الاقتراع إلى

بطاقات الانتخاب إلى بقية المؤسسات التي تعتمد مبدأ فصل السلطات. كما أنها ترفض وجود أى أحزاب أخرى منافسة بدعوى أنها حزب «الحق» الذى يستمد شرعيته من المقدس. وتتحدث الدولة المركزية عن الشرعية، الشرعية الدستورية أحيانا والثورية فى أحيان أخرى، وهى بهذا تعطى لنفسها الحق فى التحدث نيابة عن معظم التيارات السياسية داخل الدولة، بل إنها تجعل من نفسها نائبة عنهم دون أن تأبه باستشارتهم، وترفض كل انتقاد أو توجيه وتتعامل مع هؤلاء المنتقدين فى بعض الحالات معاملة المتمردين الخارجين على الشرعية.

وهى نفس النظرة بالنسبة للجماعات الأصولية التى تضيف على تصرفاتها طابعا مقدسا وتفرض نفسها على أنها المفسر الوحيد للدين الحنيف والمتسامح، وهى تستخدم المؤسسات الدينية - كالمساجد - مسرحاً لنشاطها السياسى والحزبى، ويعطيها هذا الحق فى أن تتهم كل من يحاول انتقادها بالكفر والإلحاد، كما أنها تلوى عنق النصوص كى تبيع لنفسها سرقة الأموال، واختراع قواعد جديدة للزواج والطلاق، كما دلت على ذلك بعض شهادات أفراد من هذه الجماعات.

الاثنان معا - الدولة والجماعات الأصولية - ينزلقان فى نفس المنزلق، لذا فإن الصراع بينهما يكون مريرا ومحتدما، وكلما

كسبت إحداهما جولة، سارعت الأخرى بفرض جولة أخرى من النزال، وفي بلاد مكتظة بالسكان مثقلة بالمشاكل، لا يدرى أحد كيفية الخروج من هذه الحلقة الرهيبة.

إنها حالة تعبر عن الانفصام بين السلطة وال جماهير. ولو أن الإنسان العربى خلال هذه العقود الماضية استطاع إلى حد معقول أن يشارك فى صنع القرارات السياسية التى أثرت على مصير حياته لتغير كثير من معالم الصورة التى نعيشها الآن.

إن كل ما تمناه المفكرون فى هذه المرحلة هو أن نخطو خطوة أبعد من روح المجتمع القبلى الذى تعيش فيه كثير من المجتمعات العربية إلى المجتمع المدنى، ذلك المجتمع الذى تقوم فيه الجماعات التطوعية والنقابات والاتحادات والأحزاب التى لا تشارك فى الحكم وجمعيات النفع العام بدورها فى أداء خدمات للمجتمع وفرض نوع من المراجعة والرقابة على السلطة التنفيذية. ربما لم تكن مسألة تداول السلطة واردة حتى الآن فى أذهان الذين يملكون مقاليد الحكم، ولكن المؤسسات مثل مؤسسات المجتمع المدنى سوف تكون خطوة متقدمة لامتنعاص الكثير من طاقة الغضب الموجودة فى نفوس الجماعات المعتدلة التى ترغب فى التغيير بشكل سلمى والمشاركة فى تشكيل المجتمع المرجودون أن تجد السبيل

لذلك.

إن على هذه الجماعات الأصولية الغاضبة أن تقدم برنامجا إصلاحيا واضحا تستطيع من خلاله أن تكون جزءا فعالا من نشاطات المجتمع المدني وأن تتبذ طريق العنف الذي قطعت فيه شوطا طويلا بلا طائل. وعلى الدولة أن تتيح لها الفرصة قليلا وأن تعطى الفرصة لمؤسسات المجتمع المدني بعد أن حاصرتها طويلا وسلبتها استقلاليتها وشخصيتها بل وأضفت عليها الطابع العسكرى بدعوى تأمينها من الداخل. إن إنجاز مؤسسات المجتمع المدني ورد الاعتبار والفاعلية إليها يمكن أن يمثل القاعدة الأولى لغاية الديمقراطية التي نطمح إليها وهي الكفيلة أن تتيح الفرصة للجماعات المتناحرة فى المجتمع لأن تخرج من خلف أسوار العزلة الدينية أو الطائفية أو القبلية.

الإنفاق العسكرى والتنمية

وتكشف لنا «الأعراض اليمينية» عن بعد آخر من أبعاد التنمية العربية الآخذة فى التباطؤ فى الوقت الذى تنهض فيه دول فقيرة وتتحول إلى نمور شرسة تبحث عن طريقها المستقل فى التنمية تكشف الحرب اليمينية عن صورة مفاجئة لمصير التنمية العربية. فهذه البلاد التى ظلت طويلا تعاني من نقص الحاجيات الأساسية وتدنى مستويات التعليم والصحة

والخدمة الاجتماعية بها، جاءت هذه الحرب الأخيرة لتكشف عن مخزونها الهائل من الأسلحة. كأنما كانت اليمنان تنتظران هذه اللحظة كي تطلقا ما فيهما من طاقات العنف وتفتحاً أبواب هذه الترسانة المخيفة بكل ما فيها من صواريخ مدمرة ودبابات سريعة ومدافع بعيدة المدى.. وهكذا فى الوقت الذى كانت تتعلل فيه السلطة بندرة الموارد المالية اللازمة لاستيراد الدواء والغذاء والضروريات الأخرى كانت تدفع بسخاء لاستيراد أحدث المعدات العسكرية فى بلد مثل اليمن لا يوجد لها عدو خارجى يهدد أمنها، استيراد مثل هذه الكميات من العتاد لا مبرر له إلا أن هذا النظام يحاول أن يحجب نفسه من مواطنيه.

وسوء استخدام الثروة والمداخيل القومية هو السمة الغالبة فى كثير من دول العالم العربى. فقد بلغ الإنفاق العسكرى فيها حوالى ألف بليون دولار عام ١٩٨٩ ثم انخفض قليلا فى عام ١٩٩٠ أى بعد انتهاء الحرب الباردة إلى ٩٠٠ بليون دولار ثم عاود الارتفاع إلى أرقام فلكية وبعد صفقات هائلة بعد العدوان العراقى على الكويت إلى ١٥٠٠ بليون دولار.

وفى اليمن مثلاً - وهى مثلنا الكلاسيكى الأثير - يوجد طبيب واحد فى مقابل كل ٥٠٠ جندى، ومدرس واحد فى مقابل كل ٤٥٠ جندياً. وعلينا أن ندرك بعد ذلك لماذا تباطأت التنمية

ولماذا أصبحنا نعتمد يوما بعد الآخر على العالم الخارجى فى استيراد مستلزمات الصناعة أولا ثم فى استيراد الغذاء الضرورى اللازم لنا أخيرا..

إن الوطن العربى لا يشكو من قلة الموارد ولكنه بالتأكيد يشكو من سوء إدارتها، ففى الوقت الذى توجد فيه دول عربية على وشك الانهيار الاقتصادى نجد أن استثمارات الأموال العربية فى الخارج ما يقارب من ٧٥٠ إلى ٨٠٠ مليار دولار وهو رقم يدل على أن رأس المال العربى يفضل الهروب إلى الخارج بعيدا عن عوامل الإفساد السياسى والتحكم البيروقراطى وهى ضربة أخرى موجعة لمسيرة التنمية العربية. إننا مقبلون على مأساة اقتصادية حرجة.. فالعمل العربى الاقتصادى أخذ فى التعثر، وبدلا من حلم «السوق العربية المشتركة» توضع المخططات الآن لوضع ما يسمى «السوق الشرق أوسطية» التى يأمل الغرب أن تنضم إليها الدول العربية وتركيا وإيران وإسرائيل، وهكذا نفقد أساسا كبيرا من الأساسيات التى كان يجب أن يقوم عليها النظام العربى الجديد.

عوائق الوحدة

ماذا نفعل.. هل يمكن أن نتغلب على هذه «الأعراض اليمينية» المزمنة.. هل يمكن أن نصل إلى الحد الأدنى لنظام

عربى نتمسك به جميعا، أن نخرج من حالة إطلاق النار العربية على بعضنا، إلى مرحلة التفاهم العربى. إننا لم نعد نطمع فى استعادة حلم الوحدة، ولكننا نريد أن ننفذ أنفسنا من مزيد من التشويهات وأن نوقف هذا المسلسل الفاجع الذى يشل حركة الوطن ويوقف تقدمه، فهل يمكن أن تكون حرب اليمن هى آخر حروب القبائل العربية؟

إن لدينا ذاكرة عربية مثقلة بكل مرارات الماضى وثرات التاريخ، محتشدة بأسباب العصبية والطائفية والنزعات العرقية والدينية، وكلما وقفنا على أبواب المستقبل ردتنا هذه الذاكرة إلى الخلف. والفكر العربى مطالب بأن ينفذنا من هذه الذاكرة، وعليه أيضا أن يعيد التفكير فى كل البديهيات التى كنا نستند إليها. وإذا كنا نستخرج من هذه الذاكرة حلم الوحدة والقومية العربية بشكل عاطفى ووجدانى فإن هذا الحلم كان مثاليا إلى حد كبير. إن علينا الآن أن نفكر فى كل العوائق التى تقف ضد الوحدة. ليس علينا أن ندرس ما يجمعنا فقد اكتفينا من هذا طويلا، ولكن علينا أن نتأمل وبموضوعية كل ما يفرقنا ويقف عائقا دون تكاملنا من أجل البحث عن وفاق مقبول يصون مواردنا البشرية والاقتصادية، يجب أن نسأل أنفسنا لماذا فشلت كل أنواع الوحدات التى قامت. الثنائية والثلاثية والرباعية؟ لماذا تقف المجالس العربية

عاجزة عن دفع التعاون العربى فى أى اتجاه؟ لماذا ترتفع
شعارات الحب والإخاء ثم فى لحظة نلجأ إلى حمل السلاح؟
كيف يمكن أن نرصد هذه «الأعراض اليمينة» قبل أن تنمو
وتتفاقم بين كل فكر وآخر.. وبيننا جميعا؟

إنها دعوة لكتابة فكر قومى جديد وعقلانى بعنوان «عوائق
تحكيم العقل»، لعلنا نصل إلى دراسة موضوعية وواقعية تتيح
لنا الاعتراف بأهمية التكامل رغم الاختلاف وأهمية التنافس
دون أن نصل إلى مرحلة العداء، وبهذا لن نكون قد تخلينا عن
فكرة الوحدة ولكن تخلينا فقط عن هذا الحلم المثالى الذى لا
يقدم ولا يؤخر، وتجاوزناه إلى تفكير واقعى يحقق دماءنا
ويصون ثروتنا البشرية، ويقف بنا فى مكان معقول بين دول
العالم!! إنها مهمة المفكرين، وأنا أدعوهم للتصدى لها.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الخيار الذي يواجهه
المسلمون في البوسنة
والهرسك
إما الشحن كقطيع، أو
مواجهة الذبح
كالخراف

إن شاهدت التليفزيون أو استمعت إلى الإذاعة أو كان لديك الوقت لقراءة الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية، فإن موضوعا واحدا لابد أن تصادفه هذا الموضوع هو ما يجرى فى البوسنة والهرسك، ومن متابعتى للموضوع وجدت أن هناك العديد من الخلط فى الحقائق والكثير من المعلومات، أو بسبب تدخل العواطف وتأججها، أو أسباب أخرى ثانوية عديدة.

لا شك أن الإنسان العادى، والعربى المسلم على وجه الخصوص، تهزه هذه الصور القادمة من البوسنة والهرسك عندما يرى المسلمين وهم شبه هياكل عظمية من وراء قضبان، أو سيدات مسلمات يحملن كالخراف فى سيارات النقل عاجزات باكيات، وعندما يرى الأطفال وقد قطعت أطرافهم راقدين على خرق بالية.

وتزودنا وسائل الإعلام بهذه الصور مع تعليقات مختلفة وتمر أمام أعيننا فتثير الغضب.

إلا أن المطروح هو لماذا يحدث ما يحدث من اقتتال يصل إلى البربرية، وتداخلات إقليمية ودولية تبدو عاجزة وغير قادرة على الفعل، وما هى جذور كل ذلك الصراع؟

شبه جزيرة البلقان

ما يحدث فى يوغسلافيا السابقة من حرب واقتتال، وعلى

(*) نشر هذا المقال فى مجله العربى - عدد ٤١٥ - يونيو ١٩٩٣ .

الأخص ما يحدث فى البوسنة والهرسك هو جزء من تداعيات سقوط الإمبراطورية السوفيتية، التى هيمنت لفترة من الزمن على مسار الأحداث السياسية والاقتصادية فى مناطق عديدة من العالم منها شرق أوروبا، والتى تشكل يوغسلافيا السابقة إحدى دولها. ولست ممن يعتقدون بأن التاريخ يعيد نفسه، إلا أن المرء يستطيع أن يقول إن هذا الاضطراب العرقى الاقتصادى السياسى الدينى وما يصاحبه من عنف نراه اليوم هو الاضطراب نفسه - تقريبا - الذى شهدته هذه المنطقة نفسها عندما سقطت الإمبراطوريات الأربع التى كانت مهيمنة على ما نسميه اليوم أوروبا الشرقية مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت وقتها الإمبراطوريات العثمانية والروسية والألمانية والنمساوية الهنجرية.

إن سقوط الإمبراطوريات يسبب خلافا فى الكيانات التى تفرض على الشعوب من جهة، وكذلك يثير شهية من يعتقد أنه الأقوى والأحق بالهيمنة فى غياب تلك الإمبراطوريات أو القوى الحامية، من هنا يندلع الصراع ويتأجج ويدفع الأبرياء ثمنا فادحا له.

بل وفى بعض الأوقات يدفع العالم - معظمه - ثمنا باهظا لهذه الخلطة السياسية وما تسميه الأدبيات السياسية الدولية

بـ «الفراغ الإقليمي». ومن المفارقات التي تستعصى على التجاهل أن الحروب الدينية والعرقية التي انتشرت في مناطق عديدة في العالم بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت تقاس على ما حدث في شبه جزيرة البلقان. فالبلقنة والقبرصة إشارة إلى ما حدث في لبنان وقبرص وقبلهما ما حدث في أيرلندا الشمالية قيست على مفهوم صك قبل ذلك هو «البلقنة» أي الانشطار العرقي والإقليمي والديني والمذهبي الذي صاحب مرحلة الفراغ الإمبراطوري فيما بين الحربين العالميتين. ولعلنا نعيد التذكير بأن التاريخ يحتفظ لهذه المنطقة وبلدية سراييفوا بالذات المحاصرة الآن، والتي تدور حولها معارك طاحنة، بأن شرارة الحرب العالمية الأولى انطلقت منها عندما اغتيل الأمير النمساوي فرنسوا فردينان في تلك المدينة. وليس من المستبعد أن تنطلق حرب أكبر وأوسع من شرارة ما يحدث في البوسنة اليوم.

منطقة البلقان عرفت بتركيبها البشري والعرقى والقومى والدينى والثقافى البالغ التعقيد، كما عرفت بتضاريسها الجبلية الوعرة التى تكون ملاذا للأقليات المضطهدة أو الخارجين على السلطة، على الرغم من انتماء قاطنيها فى الغالب إلى الجنس السلافى. والبلقان كلمة تركية تعنى الجبل. ويصفها الجغرافيون بأنها أقصى شبه جزيرة فى

جنوب أوروبا ناحية الشرق، إذا حسبنا شبه جزيرة إيطاليا وأيبيريا. ودول البلقان هي اليونان وتركيا (الجزء الأوروبي) وألبانيا وبلغاريا ومعظم يوغسلافيا

ولقد دفعت أيضا هذه المنطقة ثمنا سياسيا وإنسانيا نتيجة محاذاتها لخطوط المواجهة التاريخية، هذه الخطوط المتحركة إلى الأمام وإلى الخلف لعدة قرون بين كيانات كبيرين متنافسين: الإمبراطورية العثمانية المسلمة جنوبا، والإمبراطورية النمساوية المجرية المسيحية شمالا.

وإذا كانت بذور الصراع المتأجج الآن في جزء من يوغسلافيا - البوسنة والهرسك - عرقية ودينية وقومية، فإن بقية دول البلقان، حبلى ببذور صراع قومي وعرقي وديني أيضا.

يوغسلافيا السابقة، وهي تعنى السلاف الجنوبيين، هي أكثر المناطق في البلقان اختلافا قوميا وثقافيا، وكانت تضم ست جمهوريات وإقليمين، وهي جمهوريات سلوفينيا، كرواتيا، الجبل الأسود، مقدونيا، صربيا، البوسنة والهرسك وإقليم فويفودينا وكوسوفو. وتوجد بها ست قوميات رئيسية، هي الصرب، الكروات، السلاف، الألبان، المقدونيون والمسلمون، وتتحدث ثلاث لغات وتتوزع على عدة مذاهب وأديان. يوغسلافيا كانت في الأدبيات الاشتراكية هي نموذج التعايش

القومى والثقافى، ولكن هذا النموذج تبين أنه موضوع فى قفص أجبرت القوميات المتعددة على دخوله، وما انفك قيد القفص حتى تناثر سكانه وأخذت هذه القوميات تنهش بعضها بعضا .

يمثل الصرب أكبر مجموعة قومية فى الاتحاد اليوغسلافى السابق، وهم أقلية بالنسبة لمجموعة الأقليات الأخرى، هم أغلبية فى صربيا والجبل الأسود، وتتفاوت نسبتهم فى بقية الجمهوريات، ويمثل الكروات ثانى أكبر مجموعة قومية فى الاتحاد اليوغسلافى ويتمركزون أساسا فى كرواتيا والبوسنة والهرسك .

بينما المسلمون يمثلون القومية الثالثة ويتمركزون فى البوسنة والهرسك، وبعضهم فى الجبل الأسود. توجد أقليات صربية فى معظم اتحاد يوغسلافيا القديم، كما توجد أقليات كرواتية ومسلمة فى مناطق القوميات الأخرى.

يعتنق الصرب مذهب الروم الأرثوذكسى، فيما تعتنق الأغلبية الساحقة من الكروات المذهب الكاثولىكى، ويستخدمان لغة واحدة هى الصرب/ كرواتية بأبجديتين مختلفتين، فالصرب يستخدمون الأبجدية السريالية، بينما الكروات يستخدمون الأبجدية اللاتينية، فيما السلاف كاثوليك ولغتهم ألمانية.

من هذه الخرائط الثقافية والقومية المتشابكة السابق ذكرها والتي تزخر بالصراع فيما بينها نتبين أن مصادر الصراع هذا هو التناقض العرقي والديني إضافة إلى رواسب الماضي وأطماع الحاضر.

المسلمون فى الاتحاد اليوغسلافى

المسلمون فى يوغسلافيا القديمة ينحدرون من أصول عرقية مختلفة، غالبيتهم من أصل سلافى وبعضهم من أصل تركى وأقلية منهم من أصل عجرى رومى، وتاريخ وصول الإسلام إلى تلك المناطق تاريخ قديم يرجع فى أصوله إلى محاولة المسلمين الانتشار بدينهم فى القارة الأوروبية.

ولقد كانت محاولات هذا الانتشار عديدة، ولكن وجود القسطنطينية (اسطنبول اليوم) تلك القلعة المنيعة بحصونها وقتذاك، ومساعدة الغرب المسيحى لها خوفا من الامتداد الإسلامى لوسط أوروبا جعلها تستعصى على الفتح لمدة طويلة. إلا أن المحاولات العديدة أخذت بعدا جهاديا فى القرن الرابع عشر الميلادى، فأصبح فتح القسطنطينية هو جهاد لإنقاذ الدولة الإسلامية فى الأندلس من السقوط، بعد أن أخذت الأخيرة تترنح تحت ضربات الجيوش المسيحية المتحالفة والقادمة من شمال أيبيرنا. وتاما كما فكر المسلمون بعد فتح الأندلس فى الاندفاع منها واختراق أوروبا لفتح

القسطنطينية من الغرب، قرر العثمانيون الاندفاع من حول القسطنطينية إلى أوروبا وتجاوزها، إلا أن ذلك التجاوز كان محدوداً.

وبعد أن تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح القسطنطينية في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس عشر أزاح من أمامه أكبر مدينة أوروبية مسيحية كانت تقف حجر عثرة أمام دخول أوروبا.

وفي السنوات الخمس والعشرين اللاحقة لسقوط القسطنطينية، استطاع الأتراك المسلمون بسط سلطتهم على معظم شبه جزيرة البلقان.

وأصبحت البوسنة والهرسك ولاية عثمانية في حدود عام ١٤٦٤، وكان يسكنها وقتذاك شعوب من الصرب والمجر والكروات.

وكان العثمانيون يفرغون من فتح منطقة كانوا ينصبون عليها مسئولين إداريين ويحصون الأراضي ويرسمونها ويمنحونها للأهالي على أساس الخراج، وفق نظام كانوا يطلقون عليه التيمار.

في هذا المنعطف تقع أخطاء كبيرة وأساسية حول إسلام البوسنيين. فبعض الكتابات الغربية وأخرى عربية تتبعها مع الأسف من غير استقصاء تقول - وهو قول يردده الصرب

أيضا - إن المسلمين الأتراك قد أعطوا امتيازات لأصحاب الأراضى تلك، وحتى يستمروا فى الإفادة من هذه الامتيازات دخلوا الإسلام. ولكن الاستقصاء التاريخى والمنطقى يدحض هذا الادعاء والذى يقول به الصرب المتعصبون اليوم. فمن المعروف أن الأتراك لم يجبروا أحدا على ترك دينه، وكانت الجزية بالنسبة لهم حدا معقولا للوفاق والتراضى، كما كان التنظيم الاجتماعى للصرب وقوة شعورهم بالهوية القومية يمنع ذلك، كما أن المنطق يفترض أنه لو تم تحويل أصحاب الأراضى والمنتفعين بها إلى الإسلام لكان ذلك صحيحا فى المناطق الأخرى من شبه جزيرة البلقان، والتى كانت تحت حكم المسلمين الأتراك وأقرب إلى ديارهم، فلماذا كان طرفها الغربى هو الذى دخل أهله فى الإسلام؟

أساس الصراع العقائدى

الأقرب إلى التفسير المنطقى ما تقوله المصادر التاريخية المحايدة وهو أن البوسنيين كانوا فى الأصل أصحاب عقيدة مسيحية خاصة تعرف بـ «البوجوميلية» وذلك نسبة لمؤسسها الراهب «بوجوميلى». والمصادر التاريخية حول هذا المذهب قليلة وبعضها غير محايد، إلا أن تميز هذا المذهب عن بقية المذاهب المسيحية مرده إلى إنكار الولادة الإلهية للمسيح، واعتبار معجزات السيد المسيح حدثت بالمعنى الروحى وليس

المادى، ورفض المراسم والاحتفالات الدينية، وعدم الاعتراف بالهيكلية الدينية وإباحة ممارسة الصلاة فى أى مكان، وليس بالضرورة فى الكنيسة، كما يمكن أن يترأس الصلاة أى واحد من المؤمنين.

انتشر هذا المذهب الذى انطلق من بلغاريا وامتد إلى صربيا، إلا أن ارتداد ملك صربيا ستيفن نيمانيا عن «البوجوميلية» واعتناقه لمذهب الروم الأرثوذكس أدى إلى اضطهاد أصحاب مذهب «البوجوميلية» وإعدام الكثيرين منهم ومطاردتهم، فهاجروا إلى مناطق مختلفة منها البوسنة والهرسك، وظل أتباع هذا المذهب يتعرضون لحملات عسكرية حتى دخل الأتراك فتعرف البوجوميليون على الإسلام واعتنقوا الدين الجديد عن طيب خاطر.

وقد وجد البوجوميليون أنفسهم أقرب إلى الإسلام فاعتنقوه، ولو أنهم فعلوا ذلك من أجل المحافظة على أملاكهم - كما يدعى الصرب والكروات اليوم وينقل بعض العرب المسلمين عنهم ذاك الادعاء - لما وقفوا سنوات طويلة ضد الروم الأرثوذكس - وهم الصرب - ولا ضد الكاثوليك - وهم الصرب ولا ضد الكاثوليك - وهم الكروات - ولما أثروا الهجرة بمعتقداتهم الدينية من بلغاريا إلى صربيا، ومن صربيا إلى البوسنة والهرسك، بل لما حاربوا فى بعض الفترات التاريخية

أنفسهم.

وكان اعتناقهم للإسلام أيضا هو انتعاقا لهم من الحروب الدينية التي شنت عليهم، إلا أن الصرب قد أسقطوا الصفة القومية المحلية عن المسلمين الصرب وربطوهم بالقومية التركية، كما اتجه الداخلون في الإسلام إلى التخلي عن بعض عاداتهم وتقاليدهم القومية السابقة وإخلال عادات وتقاليدهم من الإسلام، حتى صارت تشكل نمط حياة واحدا يجمع هؤلاء السكان بصرف النظر عن انتمائهم العرقي السابق.

حرب أرض وعرض

ينزع بعض الكتاب والمحلين العرب والمسلمين إلى تصوير أمر الصراع الدائر اليوم على أرض البوسنة والهرسك على أنه صراع ديني فقط، لذلك فإن بؤرة الاهتمام لكثير من وسائل الإعلام هو الحديث عن هتك الأعراض والاغتصاب، ولكن ذلك - على بشاعته - يجب ألا يخفى حرب الأرض أيضا، فإن الأمل الحاسم وهو محاولة الصرب إنشاء صربيا الكبرى بطمس الهوية الكرواتية من جهة، وطمس الهوية الإسلامية من جهة أخرى. كما أن المسلمين في البوسنة والهرسك متمسكون بحسم بالأرض التي يعيشون عليها، ويرفضون مغادرتها، مما جعل هوية الانتماء إلى الأرض تمتزج بهوية الانتماء إلى الإسلام وتكون هذه الرابطة. وذلك ما يفسر

تمسك المسلمين فى إقليم كوسوفو - الذى يمثل المسلمون المنحدرون من أصل ألبانى معظم سكانه - بأرضهم. والدين الإسلامى يوحد المسلمين فى كوسوفو مع إخوانهم فى البوسنة والهرسك فى وجه عمليات الإبادة رغم التمايز العرقى فيما بينهم.

فالقومية المسلمة فى البوسنة والهرسك هى خلاصة اندماج عرقى وقومى تم خلال مئات السنين وذاب فيها صرب وكروات وأتراك، وقاسوا ما قاسوه فى سبيل الحفاظ على هويتهم من الإمبراطوريات المختلفة. وبعد الحرب الأولى وفى مؤتمر السلام الذى انعقد فى باريس ١٩١٨ - ١٩١٩، استقر رأى الدولى على تشكيل دولة اتحادية تضم عددا من الشعوب هى الدولة اليوغسلافية، فانتقل مسلمو البوسنة والمسلمون فى أقاليم يوغسلافيا الجديدة من السيطرة النمساوية إلى السيطرة الصربية أساسا والكرواتية والسلوفونية بالدرجة الثانية، ولم تكن فترة ما بين الحربين هى فترة سلام للمسلمين هناك، بل عانوا من محاولات إخراجهم من الإسلام بالقوة، وحرمانهم من الحدود الدنيا للتمتع بثقافتهم، وكان المسلمون - خارج البلقان - وقتئذ مغلوبين على أمرهم. حتى تركيا وقعت معاهدة مع بلجراد قبيل الحرب الثانية لتجهيز نصف مليون مسلم من يوغسلافيا

إلى تركيا بحجة أنهم أترك!

إلا أن الخلافات الأخرى الصربية الكرواتية فى فترة ما بين الحربين، ثم تفجر الحرب العالمية الثانية، أدخلت القوميات المتنازعة فى حروب أهلية حتى انتصار (الأنصار) بقيادة جوزيف بروز تيتو وإنشاء الاتحاد اليوغسلافى بعد الحرب الثانية بأيدىولوجية اشتراكية وأفكار جديدة.

الهندسة الاجتماعية

الأفكار الجديدة للاشتراكية والشيوعية لم تستطع أن تقدم حلاً ناجزاً للصراعات القومية فى يوغسلافيا، فقط سكنتها، فالشعارات الثلاثة التى رفعها جوزيف بروز تيتو بعد الحرب العالمية الثانية، وقد حكم لمدة تقارب أربعة عقود، وهى التسيير الذاتى - والذى ظهر فى شكله المعروف بمجالس العمال - والأخوة والوحدة فى شعارها التوافق العرقى من خلال حكم الحزب الواحد، والحياد فى السياسة الخارجية. هذه السياسة المعتمدة على الركائز الثلاث ظهر - فى بداية الأمر - أنها تحقق مصالح القوميات المختلفة، إلا أن اعتماد تيتو على التعددية الإقليمية بدلاً من التعددية السياسية، جعل بذور الصراع القومية تخبو تحت طائلة القسر السياسى وشبهة الرفاه الاقتصادى بدلاً من أن تنطفىء وتقطع جذورها باعتماد التعددية السياسية، فاعتمدت نظرية الهندسة الاجتماعية وهى

التكيف القسرى للتجمعات العرقية والدينية والقومية لعلاج المسألة القومية، والاعتماد على البعد الطبقي مع إهمال أو القفز على الواقع العرقى والثقافى. وكانت عوامل الاستقطاب العرقى تنمو فى الاتحاد اليوغسلافى دون أن يعترف به أحد من القيادات علنا، ولكنه يمارس فى الواقع، وأصبحت عوامل التآكل السياسى فى الاتحاد اليوغسلافى تنمو وتتجذر. وما أن توفى جوزيف تيتو فى ١٩٨٠ حتى أصبحت القيادة الجماعية المسنة للحزب الشيوعى اليوغسلافى غير قادرة، ولا رغبة فى تطوير سياسى صحى. وفاجأتها أحداث الليبرالية النامية فى الاتحاد السوفيتى من أفكار عن العلنية والمشاركة والانفتاح وتداعى النظام الاشتراكى القديم من حولها فى أوروبا الشرقية، وقد ساد العقدين الأخيرين من حكم تيتو اضطراب اقتصادى أخذ يتزايد بمرور الزمن، فبعد أن كانت يوغسلافيا أرخص بلد فى أوروبا فى الستينيات، أصبحت منذ السبعينيات أكثرها غلاء، ونافست عواصم البلدان الكبرى من حيث الأسعار مع ارتفاع مطرد فى نسبة البطالة وانخفاض فى مستوى المعيشة. وتضاعف التضخم المالى بصورة رهيبة حتى أصبحت تنافس أكثر بلدان أمريكا اللاتينية سوء إدارة وفسادا، ووجدت يوغسلافيا نفسها فريسة لفوضى اقتصادية عارمة مهدت لإشعال نيران الفتنة

وظهور نعرات القومية، ودفع ثمن هذه الفوضى الاقتصادية .
أول من دفع - القوميات الأقل حظا فى السلطة الاتحادية
وبدأت مرحلة الاستقطاب القومى والعرقى.

الاستقطاب العرقى

الاستقطاب العرقى فى الاتحاد اليوغسلافى يمكن تقصيه
منذ بداية الثمانينيات عندما انفجر شغب فى إقليم كوسوفو
فى أبريل ١٩٨١ ، وقام مواطنو الإقليم من القومية الألبانية
بمظاهرات ضد فشل السياسة الاقتصادية لبلجراد فى
تحسين أحوالهم المعيشية، واتجه الشغب إلى أخذ اتجاه ضد
الصرب، وكانت ردة فعل الصرب المحليين الغضب والادعاء
أن الألبان قد اعتدوا على نساءهم. كما أخذ الصرب فى
المناطق الأخرى خاصة صربيا فى تبني فكرة أنهم قد
اضطهدوا تحت الحكم الشيوعى، وظهر ذلك فى وثيقة
أصدرتها الأكاديمية الصربية للعلوم والثقافة، ورغم أن هذه
الوثيقة لم تنشر فى يوغسلافيا - وهى تذكرنى ببروتوكولات
حكماء صهيون - إلا أن رأى العام العالمى قد وقف على
أهدافها ومضامينها، واتهمت هذه الوثيقة النظام اليوغسلافى
الشيوعى بأنه قد حرم الصرب من أية امتيازات وقطع أوصال
مناطقهم وأعطى القوميات الأخرى حقوقا تفوق ما أعطاهم،
وأصبحت هذه الوثيقة دستور عمل للقوميين الصرب

المتشددین وقاعدة العمل لتكوين الصرب الكبرى، عن طريق التطهير العرقى لكل ما لا ینتمى إلى الصرب فى جمهوریات وأقالیم یوغسلافیا السابقة، خاصة فى تلك المناطق التى تعيش فیها مجموعة كبيرة من الصرب وعلى رأس هذه المناطق جمهورية البوسنة والهرسك. فصرب البوسنة والهرسك - مدعومین بالصرب فى جمهورية صربیا وكذلك فى جمهورية الجبل الأسود - یبغون تطهير البوسنة والهرسك من المسلمین، ویمكن أن یحدث التطهير العرقى للمسلمین فى جمهوریات یوغسلافية أخرى مثل جمهورية مقدونيا التى توجد فیها أغلبية مسلمة ألبانية وأقلية صربية. خاصة أن كوسوفو تعتبر «قدس الصرب» لأنها فى وقت ما كانت جزءا أساسیا من دولة الصرب فى القرون الوسطى.

كما أن احتمالات الصراع لیست فقط محصورة بین المسلمین والصرب، ولكنها أيضا موجودة بل ومتفجرة بین الصرب والكروات و بین الآخرین والمسلمین.

تفكك الاتحاد

شهدت الثمانینیات مخاض التفكك الیوغسلافى على خلفية سياسية تتوسع فى نبذ الأیدیولوجية الاشتراكية وتحت ضربات الوضع الاقتصاى المتردى، ففى نهاية ١٩٩١ عقد قادة الجمهوریات الیوغسلافية مجموعة من الاجتماعات

للوصول إلى مخرج دون جدوى. فهددت سلوفينيا وكرواتيا بالخروج من الاتحاد في نهاية يونيو إذا لم يتوصل الاتحاد إلى حل مشكلاته، وبالفعل أعلنت كرواتيا وسلوفينيا خروجهما من الاتحاد، وفي ٢٥ يونيو ١٩٩١ أعلنتا استقلالهما، فما كان من الجيش الاتحادي الصربي إلا أن هاجم أولا سلوفينيا ثم انسحب منها معترفا باستقلالها بعد مفاوضات، بسبب وجود أقلية ضئيلة صربية، ليهاجم كرواتيا، وأصبحت مدن كرواتيا التاريخية تحت رحمة المدافع الصربية خاصة المدينة التاريخية دوبروفنك، وعطلت أغلب المصانع الكرواتية وزحف الصرب على المناطق الكرواتية في أولى عمليات التطهير العرقي، وقد مارس الصرب هناك جميع أشكال العنف والدمار على مدى ستة شهور قبل أن يتفق الجانبان في يناير ١٩٩٢ على إنهاء الحرب التي أسفرت عن مقتل عشرات الآلاف من الضحايا، وتزامن ذلك الاتفاق مع اتفاق الطرفين الكرواتي والصربي على اقتسام البوسنة والهرسك والتي يوجد فيها حجم معقول من الكروات والصرب بجانب المسلمين.

وبعد أن اختار المسلمون والكروات الاستقلال وإعلان دولة لهم في البوسنة والهرسك امتدت الحرب إلى هناك، ومن أجل السبب نفسه: تحقيق حلم صربيا الكبرى، وقررت مليشيات

صرب البوسنة والهرسك أن تبسط سيطرتها على أكبر جزء من الجمهورية لإلحاقها بالدولة الصربية الأم، وعلى الرغم من أن الصرب لا يشكلون أكثر من ثلث السكان هناك، فإنهم الآن يسيطرون على حوالي ٧٠٪ من الأرض.

وشهدت هذه الحرب جرائم تقشعر لها الأبدان واستخدم مخزون السلاح الهائل للجيش الاتحادي لتغذية المليشيات الصربية والجماعات المرتزقة لارتكاب أكبر فظائع إنسانية أمام سمع العالم وبصره، وتحالف الكروات في البوسنة والهرسك مع المسلمين، إلا أن ذلك لم يمنع اندلاع قتال بينهما أيضا.

الأبعاد الدولية

استحوذت الأوضاع في جمهوريات يوغسلافيا القديمة وفي البوسنة والهرسك على وجه الخصوص على اهتمام عالمي، فهناك جنود روس يحاربون مع الصرب الأرثوذكس، وجنود المان أو نمساويون يحاربون مع الكروات، وهناك مجموعات صغيرة من المسلمين يحاربون مع البوسنيين، والغرب يمنع السلاح ويسد الطريق على وصوله إلى المحاربين المسلمين في الوقت الذي تتدفق فيه الأسلحة والمعونات من الصرب والجبل الأسود على المليشيات الصربية.

ومستقبل الموقف ينطوي على تفاعلات بالغة الحدة والعنف،

ويمكن أيضا أن تقود إلى انعكاسات دولية من جراء استمرار مثل هذه الحرب.

الاستراتيجية الصربية المتبعة في الحرب قائمة على الإبادة الجماعية أو التطهير العرقي للبوسنيين المسلمين. وقد قتل عشرات الآلاف في هذا الصراع ومئات الآلاف هجروا موطنهم ليصبحوا لاجئين في مناطق عديدة في الغرب وبعض دول العالم الأخرى.

والآن.. فإن أمام الغرب أساسا والعالم بعد ذلك قضية بالغة التعقيد، فالقرارات الدولية التي أصدرتها الأمم المتحدة من خلال مجلس الأمن، ومنها الحصار الاقتصادي على جمهورية الصرب (ما بقى من يوغسلافيا) عديمة الأثر، ولقد كانت مثل هذه القرارات - المقاطعة الاقتصادية - قليلة التأثير في أمثلة أخرى من العالم مثل كوبا وجنوب إفريقيا، كما أن تدفق مئات الآلاف من المهاجرين هربا بحياتهم من مناطق القتال الدموي في البوسنة يشكل عبئا ضخما على المجتمعات الأوروبية والتي تشكو من أوضاع اقتصادية صعبة بسبب التحولات الهيكلية في اقتصادها والمتغيرات الناتجة من جراء تفكك الإمبراطورية السوفييتية (اتحاد ألمانيا مثلا).

كما أن فداحة الأزمة اليوغسلافية وصعوبة حلها مرده إلى التعقيد الشديد لشبكة التحالف الدولية، فهناك دول كروسيا

تعتبر نفسها حليفا تاريخيا للصرب وراعيا للقوميات السلافية، وتخشى من تراجع دعمها للصرب أن تتآكل مكانتها القيادية لدى الشعوب السلافية الأخرى فى القارة الأوروبية، وهذا ما يشكل ضمانة نسبية للصرب كيما يستمروا فى العدوان بوحشية ودون خشية من ردود فعل حاسمة، بل إن أى تدخل دولى فى نظرهم مرحب به لأنه سيكون فرصة لتوسيع النزاع وتدويله.

ماذا عن المستقبل؟

تبدو احتمالات استمرار وتوسيع الصراع العرقى القومى الدينى فى يوغسلافيا السابقة احتمالات ممكنة، فالموقف الدولى تجاه هذا الصراع غير محسوم، والأمم المتحدة من خلال تدخلها سواء عن طريق فرض الحصار الاقتصادى، أو وجود قوات دولية تحمل شاراتها على أرض الصراع، أو من خلال اللجنة الدولية (أوين - فانس)، وتقديمها لحلول تقسم بها أرض البوسنة والهرسك بين الأطراف المتنازعة، يبدو أن هذه الحلول - مجتمعة ومنفردة - فى المدى المنظور على الأقل غير قابلة للتنفيذ، كما أن الخلافات بين الدول الكبرى - وعلى وجه الخصوص بين الولايات المتحدة من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى - حول أنجع الحلول لمعالجة المشكلة تعطل من اتخاذ قرارات حاسمة، بالإضافة إلى أن التناقضات

والصراعات الأخرى فى يوغسلافيا القديمة خارج البوسنة
والهرسك تهدد بانفجار قومى ودينى يشابه ذاك الموجود فى
البوسنة والهرسك. فجميع الرواسب التاريخية مؤهلة للظهور
على السطح.

أحد المخارج المحتملة هو التدخل العسكرى النشط، إلا أن
هذا الاحتمال غير وارد فى المدى المنظور، فالخلاف الغربى
حوله قائم، كما أن أى حرب ستكون مكلفة الثمن وطويلة
الأمَد، فمن يمول هذه الحملة العسكرية الضخمة ومن يضمن
نجاحها؟

وحتى يصل المجتمع الدولى إلى حلول فسوف يظل
المسلمون فى البوسنة والهرسك تروسا فى المذبحة ترتفع
صرخاتهم ولا من مجيب!!.

١٤

الميراث المر
الأيدولوجيا العربية..
إلى أين؟

قليلة هي الكتب التي تشبعك وتضيف إلى معلوماتك. وفي خضم هذه السبيلة في الأفكار والمشارب السياسية والاجتماعية التي يشهدها وطننا العربي المضطرب، يظهر على السطح بين وقت وآخر عمل ثقافي لا يستطيع المرء أن يتجاوزه، مثل هذا العمل ما نحن بصددده في هذا الحديث وهو كتاب صدر بالإنجليزية لكاتب عربي، والكتاب عنوان «الميراث المر.. الأيديولوجيا والسياسة في العالم العربي»، والكاتب هو العربي اللبناني «بول سالم»، وقد نشر الكتاب في الولايات المتحدة سنة ١٩٩٤.

يتصدى الكتاب لقضية مهمة، وهي دور الأيديولوجيا في الوطن العربي في القرن العشرين، أين نجحت وأين أخفقت. وتناول في هذا الإطار أربعة توجهات أيديولوجية تبناها بعض العرب، أو الحركات السياسية العربية، وهي أربعة من حيث الشمول والتأثير، ولكن في كل واحدة منها توجهات يتداخل فيها النور والظلال. وفقط لتحديد المنظور الشامل، فإن التوجهات الأربعة هي: القومية العربية، الأصولية الإسلامية، الماركسية، والقومية القطرية أو المناطقية.

ويدرس الكاتب هذه التوجهات من منظور أعتمد أنه محايد، يسبر أغوارها، وجذور نشأتها، وما حققته أو أخفقت في تحقيقه. ويقدم الكاتب كتابه ويذيله بفصلين أتصور أنهما

زبدة الكتاب، إن صح التعبير، فهو يبدأ بفصل سماه «عصر الأيديولوجيا العربية»، وينتهي بفصل هو «مستقبل الأيديولوجيا في العالم العربي» وفي الفصلين الأول والأخير محاوله للتنظير والإجابة عن أسئلة ما زالت عالقة في العقل السياسى العربى وهى: ما هو جدول أعمال العرب السياسى، وشكل تنظيمااتهم المستقبلية وهم يدخلون القرن الواحد والعشرين؟ وهل يتعظ الجيل الجديد من العرب وهم يواجهون تحديات ضخمة، اقتصادية وسياسية، داخلية وخارجية، فيتجهون إلى البناء والتعاون أم يعيدون سيرة قرن كامل من الخلاف والنزاع والفرقة وتضييع الفرص؟

ماهى الأيديولوجيا؟

أحسب أن الكاتب قد حاول أن يفهم مسيرة العرب السياسية والاجتماعية فى القرن العشرين، من منظور ما طرح وي طرح عالميا حول فكرة موت الأيديولوجيا واندثارها فى البلدان والمجتمعات التى بنتها وروجت لمفاهيمها. فبين (موت الأيدلولوجيا) و (نهاية التاريخ) يحاول الكاتب أن يؤصل فهما عربيا لهذه المصطلحات ولكنه - وهنا التناقض الذى لا يزال يؤرقنا- يكتب هذا التأصيل ويناقشه بلغة غير اللغة العربية وهى الإنجليزية!

يحدثنا الكاتب عن مفهوم الأيديولوجية والذى كان شيئا

معروفا ولكنه غير مفسر لدى المفكرين السياسيين منذ الفكر اليونانى القديم مرورا بمفكرين أوروبيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان وقتها يشار إلى أهمية الاعتقاد والأفكار فى العمل السياسى. ولكن المصطلح حسم فى أواخر القرن الثامن عشر من الفكر الفرنسى (أنطوين دستوت دى تراسى) ولكن كارل ماركس هو الذى أخذه من فلسفة هيجل ودفع بمفهوم ومصطلح الأيديولوجية تعبيرا عن الوعى الكاذب أو المزيف للجماعة الاجتماعية والناشئ من موقعها فى علاقات الإنتاج.

فكل طبقة فى رأيه - فى المجتمع، أكانت صاحبة رأس المال أو العاملين الفقراء الذين يبيعون قوة عملهم، كل طبقة فى المجتمع، لها عقائدها الفكرية، وهذه المصفوفة من العقائد والأفكار تستخدم لتأكيد موقعها فى المجتمع، وتقنيته. إلا أن مفكرين مثل ماكس فيبر وجرامش، وهنرى سوريل وآخرين طوروا هذا المفهوم الماركسى للأيديولوجيا، وأكدوا أن الأيديولوجية أو منظومة الأفكار لها ديناميكية مستقلة عن الواقع المادى، وليست فقط انعكاسا مزيفا غير واقعى لذلك الواقع - كما ادعى ماركس - بل إنها إلى حد كبير تنتج نفسها وفى النهاية - كما قال جرامشى - فإن الإنسان هو الفكرة، فالإنسان يتأثر بعمق بتوجهات (أيديولوجية) وثقافية

تؤثر فى العقل وتدفع الإنسان للقيام بنشاط فى هذه الوجهة أو تلك.

سوريل أصر على فكرة استقلالية ما يترتب على الأيديولوجية من إجراءات تشبه الخرافة من وجهة نظره (خرافة الإضراب العام مثلا لتأكيد التضامن الطبقي) وكارل مانهايم هو أول مفكر يطور نظرية خاصة بالأيديولوجيا، فى حين أن المفكرين السابقين ناقشوها من جملة أفكار أخرى.

كارل مانهايم طور - كما هو معروف - سوسيولوجيا المعرفة (علم اجتماع المعرفة) فتجاوز بذلك التاريخيين الألمان والماركسيين، وهو الذى حدد أن الأيديولوجيا (نظام أو مصفوفة من الأفكار المتداخلة والمبادئ والغايات لها علاقة وثيقة بالنشاط الاجتماعى والسياسى) مصفوفة أو نظام بمعنى أنها تعطى تصورا كاملا ومبسطا للموضوعات السياسية والاجتماعية عن طريق شرح الواقع من خلال اختزاله فى مجموعة من الشعارات والنظريات والمعتقدات يفهمها رجل الشارع ببساطة ووضوح. مثلا الماركسية تختصر الظواهر الاجتماعية والاقتصادية العقدة على أنها صراع عرقى أو ثقافى بين الجماعات المختلفة، كالقول مثلا (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). بينما الإسلاميات تقدم تفسيراً مبنياً على المبادئ الدينية (الإسلام هو الحل). بهذا

المعنى فإن الإيديولوجيا مضادة للسوسيولوجيا، أى أنها مضادة أو متناقضة مع العلوم الاجتماعية، لأن الأخيرة تعتمد على البرهان والمنطق ومقابلة الفكرة بنقيضها، بينما الإيديولوجيا شاملة وغامضة وعامة، وهذه أحد أسباب قوتها، حيث الاختصار والتبسيط وشحن المشاعر الإنسانية، وهذا هو ما يقبل بسرعة من الجمهور العام فى ظل تطورات اقتصادية/اجتماعية/سياسية معقدة.

لهذا نرى أن فكر الأحزاب فى كل العصور هو ذو طبيعة أيديولوجية.

مانهايم قدم لنا تفسيراً آخر هو الفرق بين الأيديولوجيا والمثالية (اليوتوبيا)، فالأيديولوجيا هى منظومة فكرية للدفاع عن الجماعة المستفيدة فى المجتمع، بينما اليوتوبيا أو المثالية هى منظومة فكرية للدفاع عن المستضعفين. والمفهومان كلاهما بعيدان عن الحقائق العلمية الصلبة كما أسلفنا.

وعلى الرغم من أن الأيديولوجيا من المفاهيم الأكثر نقاشاً فى العلوم السياسية والاجتماعية، فإنها الأكثر غموضاً وتشويشاً فى أن، وبرغم كل الدراسات التى تتناول الأيديولوجيا بشكل مباشر، أو غير مباشر، فلا يوجد تحديد مقبول على نطاق واسع للمفهوم. هناك عدة تفسيرات لهذا التشوش، منها خبرة الغرب مع تجربة الفاشية والشيوعية،

التي ضخت تيارات قوية فى الجسم الأكاديمى الغربى قوضت حياديته، للنظر فى هذا المفهوم، والثانى أن العديد من الدارسين الجادين والمحايدين ابتعدوا عن تناول شرح هذا المفهوم لكثافة ما به من مواقف سياسية. إن الإشكالية تكمن فى أن الأيديولوجيا ليست مصفوفة أو نظاما ما للأفكار والمبادئ فقط ولكنها نظام للفعل السياسى والاجتماعى. الأيديولوجيا - ولنتذكر قول ماركس - ليست فقط لتفسير العالم وإنما أيضا لتغييره. الأيديولوجيا إذن متداخلة مع الأحزاب والحركات السياسية.

إن المجتمعات تعتنق الأيديولوجيا خلال الأزمات .. ويعتقد المؤلف أن مرحلة الأيديولوجيا العربية ناتجة من انكسار الأنظمة القائمة وأن عصر الأيديولوجيا العربية بدأ مع نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط الدولة العثمانية. التى عرفها العرب وخبروها لقرون طويلة، وتواصل صعود الأيديولوجيا العربية منذ ذلك الوقت مع تواصل أزمة العرب السياسية والاجتماعية حتى وصلت إلى قمته فى الخمسينيات والستينيات مع فورة القومية العربية، خاصة بعد فقدان فلسطين ووصول الطبقة الوسطى إلى الحكم. وفى ظن المؤلف أن تلك المرحلة الصاعدة قد شهدت تراجعها فى السبعينيات والثمانينات من هذا القرن، لأن الأيديولوجيا تزدهر بتزايد

الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال المواجهات التاريخية، وتراجع عندما يحدث العكس.

عصر الأيديولوجيا بمعناه الغربى يتوسط، افتراضا، بين عصر الأديان والعصر الحديث المبني على تحكيم العقل وازدهار العلوم، ويودع الغرب اليوم بقايا عصر الأيديولوجيا، بينما بعض العرب مازالوا يتوقون إلى شىء من الأيديولوجيا، أكانت قومية، أو دينية، أو يسارية، كمواجهة لأزمات التحديث والتصنيع والتخصيص وانتشار وسائل الإعلام ونمو الاقتصاد الوطنى، وهيكل السلطة بشكل جديد، وهى عمليات ليست سهلة ولا متوازنة ومشوبة بالصراع والاختلال الوظيفى. الأيديولوجيا تظهر كوسيلة عبور للاختلالات والإحباطات - فى هذه الأوقات العصيبة - وكوسيلة لنجدة ومعالجة الواقع غير المرضى عنه.

بين الأيديولوجيا والبيئة الاجتماعية

نظرية الضغوط تؤكد العلاقة بين الأزمات الاجتماعية والسياسية وبين ظهور وانتشار الأيديولوجيا. الأيديولوجيا تظهر لإشباع حاجات مطلوبة بقوة من هذه الشرائح، وهى تظهر لشرح تجارب وتأطير تصرفات وتأكيد قيم لأولئك الناس الذين يشعرون بتلك الحاجة عندما يغادر المجتمع ثوابته التى عرفها من قيم وثقافة وتراث.

ودون شك فإن المجتمعات العربية كانت مركز تأثير لضغوط ثقافية/اقتصادية/اجتماعية - مثل ما تعرضت له جميع مجتمعات العالم النامي - لقد مرت المجتمعات العربية بنكبات الاستعمار وظهرت الدولة الوطنية (القطرية) على شكل جديد من الهوية، وأطرت الجماعات القبلية والعرقية واللغوية والدينية والمذهبية، وحدثت نكبة فلسطين. كل هذه العوامل ضخمت من شهية قبول الايديولوجيا فى الوطن العربى.

لقد كان الإسلام يلعب دورا مهما ومركزيا فى تنظيم الحياة العربية السياسية والاجتماعية القديمة، فظهرت جماعات تريد زعزعة هذا الدور تحت شعارات الحداثة والتطوير، فخلقت بذلك صراعا خفيا وظاهرا فى الحياة السياسية العربية منذ مطلع القرن بين الرجوع إلى القديم من جهة ومسيرة التحديث من جهة أخرى، مما خلق الحاجة إلى قيم سياسية واجتماعية جديدة فنتج عن ذلك صراع آخر.

مجموعة الصراعات تلك أبرزت دورا مهما للأيديولوجيا فى الفكر السياسى العربى. وكما وصف ذلك فؤاد عجمى «الخلط بين النظرية والتطبيق فى الثقافة السياسية العربية عرض العرب لقبول أفكار وخطط ومذاهب جاهزة». وهناك من الدارسين من يقرر أن هناك نزوعا للأيديولوجيا فى الثقافات العالمية الغنية، خاصة إذا كانت هذه الثقافات تعتمد على ديانة

تعمل كمهيةء سابق لظهور الأيديولوجيا .لأن هذا يعنى أن هناك تراثاً أيديولوجياً موجوداً .

القبول العربى بالأيديولوجيات كان نتيجة التغيرات الثقافية والسياسية والاجتماعية السريعة التى بدأت تظهر ضغوطا منذ بداية القرن. سقوط الخلافة، والاحتلال الأوروبى، وظهور القوميات (بما فيها القومية العربية)والهجرات التى صاحبت الحرب العالمية الأولى، ووقوع البلدان العربية تحت أشكال من الانتداب الأجنبى، كل ذلك أظهر أسئلة جوهرية فى الوطن العربى؟ ماذا تعنى الأمة وما هو محتواها؟ هل يحمل المرء ولاء سياسيا لمجموعة الإنسانية القريبة- القبلية، الطائفية، أو الجهوية، المناطقية؟ ما هى النتائج التاريخية لسقوط الدولة الإسلامية والخلافة وما دور المبادئ العلمانية فى الأخلاقيات الاجتماعية؟ ماهو موقف المجتمعات العربية تجاه الغرب ؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تبحث عن تحديد للهوية.

لقد أرسلت هذه الكوراث والنكبات والتغيرات الجذرية موجات من الصدمات غيرت بسببها بعض الأنظمة السياسية بالعنف كما حدث فى مصر وسوريا والعراق، ووصلت مجموعات بشرية جديدة إلى السلطة، ومعها جاءت معالم جديدة، وقيم جديدة، وباختصار أيديولوجيا جديدة.

الخمسينيات من هذا القرن تمثل صعود الأيديولوجيا

العربية إلى قمتها، قيادات جديدة، وأهداف جديدة ، وقيم جديدة وعدت بالقوة والتحرير والتقدم والرفاه وطرد الأجنبي والتصنيع، واختزلت المشاكل المعقدة إلى فكرة، والفكرة إلى كلمة أو كلمات (وحدة، حرية، اشتراكية) على أى شكل من الأشكال تريد تنظيمها. إنها صورة مشوشة لليوتوبيا العربية. ولم يكن أحد يجرؤ على نطاق واسع على تحدى تلك الموجة، هذه الموجة فقدت قوتها وبدأت تنحسر أولاً عندما فشلت الوحدة المصرية السورية، وتبين أن الشعارات لا تنطبق على الواقع، ثم ازدادت انحساراً بعد هزيمة ١٩٦٧ وبدأت تتراجع مع موت بطلها جمال عبد الناصر ١٩٧٠. النصر المحدود - يقول الكاتب - فى سنة ١٩٧٣ وتزايد أسعار النفط الذى تلاه مثلاً فترة جديدة لسياسيات عملية وواقعية تبتعد عن الأيديولوجيا لتتنظر إلى الواقع. نشأت بعدها سياسيات عملية محافظة وأقل أدلجة وجدت فيها بذرة الحلول الوسط.

الاقتصاد كعامل ضغط

المجتمعات لا تتغير فجأة، إن تغييرها تدريجى، وقد يكون بطيئاً فى البداية حتى يصل إلى مرحلة يصير التغير فيها سريعاً وجارفاً. فى القرن التاسع عشر كانت أوروبا هى مركز الاقتصاد الدولى. وبدأت منذ ذلك الوقت التسرب إلى النظام الاقتصاد فى الشرق الأوسط الإسلامى. فى البداية كان

التسرب إلى المدن والمناطق الساحلية ثم بعد ذلك إلى الداخل العربى، هذه العملية فى شكلها البسيط عنيت بتدفق البضائع المصنعة، والزيادة فى تصدير المواد الأولية الزراعية والمعدنية العربية إلى أوربا، ونتج عنها تآكل فى الصناعات العربية التقليدية الشرقية والتي وفرت حاجات المجتمع الاسلامى لقرون عديدة. ومع ربط الإنتاج الزراعى العربى بالسوق الأوربية تغيرت طبيعة ذلك الإنتاج، كى تستفيد منها طبقة صغيرة هى طبقة أصحاب الأراضى. وجعلت الاقتصاد المحلى معتمدا بشكل أكبر على الاقتصاد الصناعى المركزى فى أوربا.

ومع وصول السفن البخارية وإقامة شبكات السكة الحديدية التى أقامتها شركات أوربية تدنت أهمية شبكة التجارة التقليدية العربية وطرق القوافل التجارية والسفن الشراعية التى كانت تنقل البضائع التجارية بين أقطار العالم العربى والاسلامى.

مؤلف عربى، هو سمير أمين، وجد أن تراجع النشاط الاقتصادى العربى كان أساسا نتيجة تنافس البضاعة الأوربية غير المتوازن مع مثيلتها العربية الإسلامية منذ فترة مبكرة تصل إلى القرن السادس عشر، عندما هزمت الطبقة التجارية العربية المسلمة أمام التجار الأوربيين الصاعدين،

الذين استطاعوا أن يحصلوا على امتيازات تجارية مجزية من الدولة العثمانية. منذ ذلك الوقت بدأت المدن العربية في الضمور، ومع ظهور الإمبريالية في نهاية القرن التاسع عشر كان الوطن العربى كله قد وضع تحت مظلة النظام الرأسمالى كمناطق نفوذ. المناطق العربية المتصلة والمتداخلة فصلت من جديد لصالح القوى الأوروبية الاستعمارية.

الاستجابة العجلى من حكومتى اسطنبول والقاهرة للتدخل الأوروبى كانت لها نتائجها التمييزية على الوطن العربى أيضا، والإصلاح العلمانى قلل من نفوذ الطبقة الدينية فى التعليم وفى الاقتصاد وفى القضاء.

تحديث الجيوش من جهة أخرى فتت الطبقة المحاربة التقليدية التى كانت تشارك الطبقة الدينية فى الحكم. كما أن المصروفات الباهظة والإدارة السيئة عرضت هذه المجتمعات إلى الإفلاس - كما فى الدولة العثمانية - وبينما كانت هذه المجتمعات تحاول تطوير اقتصادها على شاكلة ذلك الموجود فى أوروبا، ساعدت تلك الخطوات على تحطيم الأشكال الاقتصادية القديمة، وفشلت فى نفس الوقت فى الوصول إلى بدايات الاقتصاد الرأسمالى، وأصبحت العلاقة بالغرب متضخمة وغير سوية.

تدخل قوى السوق الدولية والإصلاحات القلقة وغير

الواضحة للحكومات المحلية كان له نتائج سلبية على ملكية الأراضي وإنتاجياتها في المناطق العربية وفي الإمبراطورية العثمانية في آن. لقد حُطمت المنظومة الزراعية القديمة لتطويعها لمتطلبات التجارة الأوروبية فأصبحت الحياة للأراضي كبيرة. وحولت ملكية الأرض للنخبة من رؤساء القبائل والمتنفذين، بينما زادت أعداد الفلاحين دون أرض.

باختصار، كانت مظاهر عدم المساواة بين الغرب والعرب تتفاقم وأصبح الأجانب والأقليات الدينية - بسبب المال المتوافر عندهم أو بسبب الامتيازات الممنوحة لهم والإعفاءات التي حصلوا عليها - مسيطرين على الاقتصاد في الإمبراطورية العثمانية، كما أن المهارات التي حصل عليها كثيرون من هؤلاء من مدارس التبشير الغربية ومن عملهم كوسطاء وشركاء للشركات الغربية الناجحة، أهل هذه الفئة للسيطرة الأجنبية على الاقتصاد العربي. وما إن بدأت الحرب العالمية الأولى حتى كان الأوروبيون ووسطاؤهم يملكون كل القمم الرئيسية في الاقتصاد - ما عدا امتلاك الأراضي - بينما كان أبناء الأقليات يشكلون الفئات الوسطى. وأثارت سيطرة الأجانب وغير المسلمين في الشرق العربي حساسية العرب المسلمين.

بجانب التغيرات الاقتصادية كان هناك تغير ديموغرافي غير مسبوق وزيادة هائلة في السكان، مما أسقط أعدادا أكبر من

العرب المسلمين فى قاع الفقر والفاقة. لقد زاد عدد سكان الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر ٣٠٠٪ ، فيما تفتتت الصناعات التقليدية وصاحب ذلك انحطاط اقتصادى، وبدأت الهجرات المبكرة من الريف إلى المدن والحوضر. وأخيرا كانت الإدارة العثمانية، وبعد ذلك الإدارة الاستعمارية - لما قبل الحرب العالمية الثانية - منبعاً قدّم للشرق الأوسط بيروقراطية عديدة وقوانين حديثة. فى هذا الخضم من التطورات الاقتصادية والاجتماعية، والتأثيرات السياسية كان لابد من ظهور أيديولوجيا تقدم منظومة فكرية لضبط وتقنين كل هذه التغيرات.

تغير البيئة السياسية

البيئة السياسية للعرب تغيرت جذريا فى المائة سنة الأخيرة كما تغيرت البيئة الاقتصادية والاجتماعية، فى البداية كان التوسع الاستعماري، فهزمت البلاد العربية، أمام هذا التوسع، فى مصر ١٨٤٠، ١٨٨٢ وفى الشرق العربى سنة ١٩٢٠، بجانب هزيمة الجزائر ١٨٣٠، و ١٨٧٠، ١٨٨٢ فى تونس، و ١٩١١ فى المغرب. انتصارات القوة الغربية هذه غيرت جذريا فى السياسية العربية، ليس فى هياكلها ومؤسساتها فقط، بل فى رموزها والمواقف الشعبية والعاطفية المتصلة بها، فقد كانت مرحلة انفصام عن الماضى وموقف تمزيق ساعد

على ظهور علاقات صراع بين المجتمع والدولة، وأنتج كل ذلك العداء الظاهر والباطن الذى توارثته الحركات السياسية للدولة كمظهر من مظاهر السلطة فى الوطن العربى، ولا تزال نتائج هذا الصراع ماثلة لنا فى الواقع، فإن القرن العشرين شهد تدريجيا مركزية وبيروقراطية عمل الدولة - والتي كان نفوذها قبل ذلك - وتدخلت الدولة فى شئون الأفراد، وكانت سابقا متروكة للممارسات الدينية والشخصية.

أصبحت المطالبة بالاستقلال الوطنى بعد ذلك والمشاركة السياسية والثقافية السياسية سمة الثلاثينات من القرن العشرين. ووسعت الروح الثورية فى الخمسينات والستينات المشاركة السياسية لتضم عدداً كبيراً من الناس، على الرغم من أن المشاركة تقلصت فى السبعينيات والثمانينيات.

خبرة المشاركة السياسية كان لها نتائج، يتعذر محوها أو إزالتها، على المجتمع العربى. باختصار، فإن البنية السياسية للوطن العربى فى القرن العشرين صارت قليلة الشبه بالبنية السياسية فى القرن الذى سبقه.

المواقف السياسية والقيم، لم تكن قادرة على التكيف بسرعة كافية مع التغيرات فى المعتقدات السياسية. وكما هو الحال فى الإطار الاجتماعى/السياسى، فإن المعتقدات السياسية والمواقف تأخرت كثيراً عن سرعة التغيرات السياسية

الحقيقية على الأرض، تاركة الفرصة لظهور وتطور الإيديولوجيا. فظهور تركيا الحديثة كمثال لاحظته بيرنارد لويس وكتب عنه عام ١٩٨٦ يعتبر نموذجا على الكيفية التي حولت بها الثقافة المادية الغربية من بنية وتوجهات المجتمع الإسلامى فى قطاعات كبيرة - غالبا إلى الأسوأ - وجعلت كثيرا من الأفكار الغربية تؤثر فى التوافق الاجتماعى، وتخلق مسارات جديدة لتحديد الهوية والولاء.

النبض العلمانى الذى كان من قبل محوا للتنوير الأوروبى، تبين أنه جذرى أكثر مما كان فى البداية مع الإصلاح البروتستانتى، وبينما بدأ كتأمين ضد تدخل الكنيسة فى الشؤون السياسية، حتى فى الأخلاق وفى العدالة. هذه الثورة انزلت بعد ذلك إلى حد التطرف (رفض وجود الله من قبل ماركس «اليسار» ونيتشه «اليمين») وفى البلاد العربية استقى البعض هذ الأفكار من الغرب وأصبح لها نتائج ثقافية حادة وغير متوازنة أدت إلى رفع شعارات ثقافية مثل: إصلاح النظام الاجتماعى والسياسى - عزل الدين عن الدولة... الخ.

وإن محاولة عزل الدين عن العوالم الأخرى للحياة، يعنى أن مصادر القيم الجديدة تتطلب تنظيم المواقف الاجتماعية والسياسية، لتأكيد القومية - التى لا يعترف بها الإسلام. وبقاء الدين فى الحياة بعد سقوطه من السياسة - بعد أن

صارت السياسة علمانية - حالة ليست خاصة بالعالم الإسلامي وحده - برغم أن أداء الإسلام في السياسة أكبر - لذلك بقيت المراوحة حتى اليوم والنقاش العميق حول هذا المفهوم.

لقد شهدت بداية ميلاد القومية الجديدة - في الغرب - تحولا في المواقف الدينية في السياسة «من الرب إلى الشعب» وكان واضحا أن المذبح لم يبن للرب بل لأرض الآباء، كما تغيرت الإجازات، والأعياد، وخصصت الصلوات للمعبود الجديد «العلم» الذي حل بديلا عن الصليب كهدف رمزي للحب والتقدير، مع تقاليد حازمة تحكم رفعه وإنزاله وتحيته. النصب الوطنية أصبحت بديلا للأماكن المقدسة كقبة للزيارة. والأبطال الوطنيون حلوا محل القديسين. وجاء الزواج المدني، والتعميد المدني، وأخيرا فإن تهمة الخيانة حلت محل تهمة التجديف والزندقة.

أما القومية الحديثة في الوطن العربي فكانت واعية للمحتوى الروحي للقومية، وعملت جاهدة على إظهار ذلك في نداءها «باسم الله وباسم العروبة» - بينما قال أنطونيوس سعادة (الحزب القومي السوري) إنه أوجد دينا جيدا...!!
التنافس بين الإسلام والقومية في المجال الروحي أظهر اضطرابا في الثقافة السياسية العربية، ولا يزال.

نزوع المجتمع لتبجيل وتوقير ماضيه يمكن أن يكون قويا كالدين المتجذر فى الماضى والممتد فى الحاضر فهو يزود المجتمع بإحساس بالهوية والكينونة الاجتماعية كمنظومة من القيم المشتركة، والأهداف المشتركة، وكإطار للنماذج الاجتماعية. أهمية الماضى هى إعطاء شرعية للحاضر. المجتمع العربى اعتمد على التراث، بينما أوروبا اعتمدت على الشكل المتوازن للتاريخ والتراث.

الأزمة النفسية

التغيرات الهائلة فى البعد الاجتماعى/الاقتصادى/السياسى وفرت الفرص لظهور الأزمة فى القيم الاجتماعية، والمواقف والتفسيرات لم تعد كافية لتنظيم وتقييم حياة الأشخاص.

وبعدت الشقة بين المراد والممكن خاصة لدى هؤلاء الأشخاص الذين مرت خبرتهم بالحراك الاجتماعى الجديد، الأفقى منه، أى من قرية إلى مدينة، أو الرأس الذى يعنى حراكا اقتصاديا اجتماعيا من طبقة إلى أخرى. وكثير من هؤلاء الأفراد وقعوا فى تناقض بين الفعالية الموروثة والحقيقة القائمة وأدخلهم هذا التناقض فى صراع مباشر مع المجتمع، وقد خلف هذا شعورا قويا بالضعف، والخوف، والقلق، وفقدان الإحساس بالمشاركة والاتصال مع المنظمات

الاجتماعية القائمة. على المستوى العاطفى فإن الناس صاروا يشعرون بالوحدة، وأنهم غير محبوبين وخائفون، ومغمورون بالأسى.

كل ما سلف أدى إلى الالتصاق المرضى بالرموز، فالحركات الشعبية التى يمكن أن تقدم للناس الهوية المفقدة، والدور والإحساس بالقيمة الذاتية - السلطة والرفعة - بينما هم جاهزون للموافقة وقبول تفسيرات جامدة للمواقف المشوشة التى يواجهونها. بهذه الطريقة فإن الأيديولوجيا والحركات الأيديولوجية تزداد وتنتشر بسبب الضغوط النفسية للأفراد المنخرطين فى التحديث، وقد عبر عن ذلك العالم النفسى إيريك فروم بتفسيره: «إن كانت الفكرة تستجيب لحاجة نفسية قوية لمجموعة من الناس فسوف تكون قوة فعالة فى التاريخ».

مسألة الهوية والهوية الشخصية، ودور الشخصية، ومن هم الآخرون وما هى صورة الأنا؟ كلها صارت أسئلة معلقة فى الواقع الجديد. فدون هوية اجتماعية فإن الأشخاص يكونون معزولين بعمق عن بيئتهم الاجتماعية، وبيئتهم الثقافية، ودون تحديد الآخر لا يستطيع الفرد تحديد هويته الاجتماعية.

من هذا المنطلق فإن الأيديولوجيا تستطيع أن تساعد بطريقتين إذ تحول البيئة المشوشة إلى متسقة، وتوفر فرصة القيادة لتحديد الذات أو لتحدد من خلالها الذات. وينطبق

هذا أكثر ما ينطبق على الفئات القلقة فى المجتمع خاصة الشباب والأقليات.

مستقبل الأيديولوجيا .. عربيا

لا شك أن عصر الأيديولوجيا هو عصر التغيرات فى المنطقة العربية فأولها كان سقوط الإمبراطورية العثمانية بكل تأثيراتها المشوشة على المنطقة، وثانيها كانت مجموعة الهزائم العربية البادئة من حرب ٤٨ إلى حرب ٦٧، وثالثهما - كظاهرة ونتيجة - كان بروز الإسلام السياسى فى الستينيات.

هذه التغيرات وما صاحبها من صعود وهبوط اجتماعى واقتصادى أنشأت فئات اجتماعية جديدة، وكانت الأيديولوجيا إحدى الوسائل التى سُوِّخِرت كآلة حرب (أو هجوم) لعزل طبقات نقيضة حتى يتسنى لمن يشن الهجوم أن يصل إلى السلطة.

لقد قامت الأيديولوجيا العربية بمهام إيجابية عديدة، إذ لعبت دورا ملحوظا فى تحديد صورة بعض قطاعات المجتمع، وعملت على إسقاط الأنظمة التقليدية فيما بين الحربين، ومهدت التربة لمجىء الأنظمة الجديدة. وبشكل عام فقد كانت وسيطا للتطور، وإطاراً أوليا للأفكار الجديدة.

لكن، وبعد سبعة عقود من النشاط الأيديولوجى، فإن الثقافة السياسية فى البلاد العربية لاتزال تسبح فى خضم فوضى

كبيرة. فلا يوجد تحديد واضح للملامح المجتمع السياسى، ولا قواعد متفق عليها للشرعية السياسية، ولا يوجد مفهوم واضح وجلى للحقوق والواجبات السياسية فى المجتمع العربى وبشكل عام، فإنه لا يوجد هناك إطار مستقر للتفاعل السياسى ترشيده «أجندة» (جدول أعمال) معترف بها على نطاق واسع لتحديد الأهداف السياسية. وهذا كله يعتبر فشلا للأيديولوجيا.

وإذا كانت إرهابات العقود السبعة فى دائرة الأيديولوجيا العربية قد انتهت بالفشل أو ما يشبهه الفشل، فإن الأفق العربى الذى صار مقتحما بالتغيرات العالمية الهائلة - سياسيا واقتصاديا وتقنيا وثقافيا تبعا لذلك - لا يمكن أن يعد بالكثير للأيديولوجيا العربية.. وبعبارة أخرى، فإن الأصوات العالية لبقايا الأيديولوجيا العربية (بشتى ألوانها ما هى إلا دفاع النفس الأخير. وإن كان هذا لا يمنع أن تظهر فى الأفق بدائل جديدة للأيديولوجيا القديمة وهو ما لم يتبلور بعد.

لَا عَنْ غَزَّةٍ وَلَا
أُرِيحَا وَلَكِنْ عَنْ
الْحَلَمِ الضَّائِعِ

هناك موضوعات الكتابة فيها أشبه بالسير على الرمال المتحركة، والقضية الفلسطينية الآن قد أصبحت موضوعا متحركاً بل شديد التحرك. هناك مخاطرة تتمثل في أن الوقت الطويل نسبياً - الذى يمضى - بين الكتابة والنشر، فى نفس الوقت فالعجلة السياسية تدور دون أن تتوقف تفاعلات الأحداث وتداعياتها مما قد يفوت على الكاتب بعض التفاصيل فى الصورة. وأعترف أن القضية التى كانت تقليدية فى أحداثها طوال السنوات الماضية قد أصبحت حافلة بالمفاجآت والتغيرات، فى زمن قصير. ففى مثل هذا الشهر من كل عام كنا نتذكر وعد بلفور ونأخذ فى تدبيج المقالات فى وصف صلف هذا الوعد وخلوه من العدالة حتى غدت فكرة «لقد أعطى من لا يملك وعداً لمن لا يستحق» تكاد أن تكون مقولة متكررة نبدأ بها مقالاتنا المتكررة فى تأبين الحدث لنصل بها إلى نفس النتائج المتكررة.

إلا أن رياح التطورات السياسية تقاذفت الموضوع بين مد وجزر حتى كادت أن ترسوه أخيراً فى ميناء الاتفاق الأخير بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. والتعليق على هذا الموضوع شائك ومتشعب وملئ بالانفعالات العاطفية، فجيلنا لا يمكن أن يمحو صورة اللاجئ المشرود فى الخيام والمنافى من خياله، يعانى من الجوع والغربة والاغتيال اليومي، كما أنه

لا يمكننا أن نتجاوز صلة الدم والعروبة والإسلام التي تربط العرب والمسلمين ببعضهم، كما لا يمكن أن تحمل جريرة البعض على الكل. ومعضلة الكتابة في مثل هذا الموضوع متشعبة فالتاريخ القريب يشدك إلى وقائع مذهلة لا يستطيع حتى من ادعى الحياد أن يصرفها عن ذهنه وقوى الواقع تفرض مسيرة صعبة ومعرجة.

فأنت بين ألم الماضي وأمل المستقبل وبينهما وقائع بها أشخاص وحوادث استقرت في العقول. بين هذا كله تكاد بوصلة التوجه والتحليل أن تتذبذب بين اتجاهات كلها متناقضة.

إنه تاريخ العرب الحديث بعد الحرب العالمية الثانية! أي ما يقارب نصف قرن من الآمال والآلام والفرص المتاحة الضائعة وتاريخ أكثر من جيل انغمس حتى أذنيه في الصراع والشقاق، فضيع على نفسه فرصا وعلى أبنائه إمكانات. تاريخ الآلاف من القتلى والمعتقلين والمشردين وآلاف الأرامل والأيتام. كم تبدلت التحالفات وزاغت الأبصار. إنه تاريخ اتسم بالعنف والانقلابات والتصفيات. وكان أساسه وعد بلفور وحلم الآخرين في : أولا تكوين أمة وثانيا تحرير فلسطين وربما تأتي ثانيا قبل أولا، وربما جاء الاثنان - لدى البعض - في نفس الدرجة من الأهمية.

القومية العربية.. حلم مبدد

قبل بداية الحرب الأولى كانت هناك بؤرة فكرية نمت حتى سميت بـ «القومية العربية» ولقد كتب فيها ونظر إليها مجموعة لا بأس بها من المفكرين، كما تبنتها أحزاب وحركات سياسية، وتلونت هذه الفكرة في كل مرة بلون الحزب أو الحركة السياسية التي تبنتها خاصة بعد الحرب العالمية الثانية واستقلال معظم الدول العربية عن الاستعمار المباشر.

ولقد ازدادت الفكرة القومية تجذيرا (بنكبة) فلسطين والتي كانت في البداية أن شعبا ليس له حق قد اقتلع شعبا عربيا وأزاحه إلى المخيمات واغتصب أرضه من (النهر إلى البحر) وتداخلت مصالح وقوى وأهواء، تعارضت وتوافقت باسم (القومية) وباسم المساعدة على تحرير فلسطين، من السهل الآن إلقاء اللوم على هذه الفئة أو تلك - وإن فعلنا فإننا لم نتقدم خطوة على (الحرس القديم) - إنما المراد في هذا الحديث هو سبر الأغوار الفكرية والتماس الدوافع الموضوعية وبيان الحقائق كما هي على الأرض، التي قد تفسر هذا التذبذب وهذا الصراع الذي كان في بعضه صراعا عابثيا ومدمرا.

لقد رفعت شعارات الهدف منها هو كما قيل (تعبئة الجماهير) وراء شعار التحرير وحرب العدو، وباسم هذه

الشعارات هدمت دول وأطيح بمؤسسات وشتتت قوى (الأمة) وأزيح مفكرون ومثقفون، وهم خلاصة المواهب المتوافرة في بلدانهم، كل ذلك باسم التحرير، وقد سارت الجماهير - نتيجة لغياب الوعي أو نقصه أو قلة المعلومات - تبارك هذه الخطوات حتى لو كانت متناقضة ومتعثرة، ومن يقرأ بيانات وأدبيات السياسة العربية في الستينيات والسبعينيات يجد هذا التناقض واضحاً. وإن كان المثل وراداً فإن قارئ بيانات الوحدة والانفصال السورية/ المصرية في الستينيات يتعرف على حقيقة متناقضة وهي أن كلتا العمليتين قد تمت (الدفاع عن القومية العربية) وأيضاً تحرير فلسطين!!.

ولم يخل بيان سياسى فى تلك الفترة عن وضع اللوم كله أو معظمه على إسرائيل تبريراً للإخفاقات العظيمة التى منيت بها دول عربية.

فى السياسة النتائج هى التى تحسب وليس الشعارات، لقد امتنهن استخدام شعارات القومية العربية، بل وأسىء استخدامها مرارا وتكرارا حتى عانت من جراء ذلك (الأيديولوجيا) واكتشف الناس أن تلك الشعارات استخدمت فقط - فى أحسن أحوالها - لإبقاء هذه الفئة أو تلك أو ذاك الحزب فى السلطة لا أكثر ولا أقل.

الفاستينون الذين شردوا من ديارهم واقتلعوا من أرضهم،

كانت لهم قضية واضحة وعادلة، وقد حرموا لفترة من أن يمثلوا أنفسهم حتى بداية السبعينيات. لقد عانوا ما عانوه من ظلم واضطهاد وحرمان وشتات.

وكان من المفروض أن يأخذوا على عاتقهم أولاً التصدي لهذا الظلم، وتم بالفعل قيام منظمة التحرير وأصبحت منذ الثالث الأول من السبعينيات (الممثل الشرعي الوحيد) للشعب الفلسطيني، كان من المفروض أن يكونوا هم أول من وعى الدرس واستفاد منه، إلا أن ذلك لم يتم في معظم الوقت، فلقد ظن أو تخيل البعض في قيادة المنظمة أنه أصبح دولة ودخل في مناورات وصراعات دول المنطقة يقفزون من النقيض إلى النقيض ظناً منهم - وهو ظن خاطيء - أن ذلك يصب في مصالحهم «وئورتهم» والتي كانت ترفع شعارات «ثورة حتى النصر». وخلفوا وراءهم في الأردن ولبنان وأماكن أخرى شريطاً من الألم والحسرة، والمرارة أيضاً، وكذلك حدث في الكويت.

التناقض أن وجود المنظمة كممثل للشعب الفلسطيني بحد ذاته، اعتراف بالدولة والأقاليم العربية، ونقيض لفكرة الوحدة العربية، وظهور (دولة) إن شئت على حساب الدولة (الأردنية). إلا أن كل هذه الحقائق قد تم تجاوزها على طريقة تسمية الشيء ونقيضه بنفس الاسم. واستخدام قادة المنظمة - متى

ما يحلو لهم - الغطاء العربى فى أن والإقليم الفلسطينى فى
أن آخر ويرروا كلا التناقضين بوهن (الدعم العربى)!!.

نعم للوحدة.. لا للموظفين

حقيقة الأمر أن معظم السنوات الخمسين عاشتها السياسة
العربية فى ديماجوجية هى انعكاس لعوامل هيكلية داخلية فى
المحيطات العربية مثل نقص التعليم وضيق الحرية السياسية
والأحادية فى التعبير السياسى، كما هى نتيجة بعض العوامل
الخارجية ومنها بالطبع آثار الحرب الباردة. وقد أثرت الحرب
الباردة بشكل أكثر قسوة فى منطقتنا العربية لأن تكتيكاتها
وجدت تربة خصبة فى العامل السياسى المحلى وهى محاولة
الاستفادة من طرف على حساب طرف آخر دون - أو هكذا
كان المقصود - أن تقدم دعما حقيقيا للطرف المعاضد! ولم
يكن ذلك كله يخفى على جميع الأطراف!.

لم نستطع - حتى فترة متأخرة - أن نتبين المصالح المتباينة
والشرعية أيضا بين الأطراف العربية، كنا نمارسها نعم ولكن
لم نعترف بها علنا فكنا والحال كذلك نعيش شخصية
مزدوجة، وهى بالمناسبة ليست جديدة على سلوكنا السياسى،
فساطع الحصرى - السوري، اليمنى المولد - عندما تولى
وزارة التربية فى العشرينيات فى العراق وأراد أن يوظف
مجموعة من الأساتذة السوريين فى مدارس العراق خرجت

مظاهرة (كما يقول فى مذكراته) تهتف نعم للوحدة.. لا للتوظيف!!.

ومثال جديد وحديث فالمحادثات السورية/ العراقية للوحدة فى بداية السبعينيات كانت تسير حثيثة وعندما ذكر السوريون الثروة النفطية تباطأ العراقيون ثم اخترعوا (العقبات) لوقف المحادثات. أما فى نهاية السبعينيات فإن (الاختراع) كان الإطاحة بمجموعة من رؤوس النظام العراقى على أنهم مناوئون، بل خونة! بعد محادثات سورية عراقية «وحدوية». وهكذا تحولت القومية العربية عند كتابها التقليديين إلى «دوجما» سياسية ذات اتجاه واحد، تركز على العوامل المتشابهة وتنفى الاختلافات النوعية بين الأقطار، تعتمد على المتتاليات وليس تفاعلات البنى الاجتماعية والاقتصادية. كما تحولت عند الممارسة السياسية إلى شعار لإلهاء الجمهور والتنصل من تبعاتها فى أول فرصة، وأصبحت الجماهير العربية حائرة بين الثقافة القومية السائدة التى تؤكد أن كل شىء متشابه إلى درجة التطابق وبين الاختلاف النوعى المعيش فى الواقع فى قضاياها وتطلعاتها. ورغم اختفاء هذا النوع «التوتالارى» اليوم من التفكير من العالم كله إلا أن بعض الجماعات المتشددة والداعية للأيديولوجية الشاملة تحاول أن تعيد نهج التفكير

ذاته ولكن بطرق مختلفة وتحت مسميات جديدة.

الحلم يتضائل

وبانتهاى قضية فلسطين إلى هذا الاتفاق الثنائى الأخير فإننى أعتقد أن آخر أحلام القومية العربية أخذ فى التضاؤل هو الآخر. ذلك الحلم باستعادة فلسطين ووطنا لكل الفلسطينيين.

ويبدو أن الهزيمة التى تم تأخير إعلانها طويلا منذ أعوام ٤٨ و ٦٧ قد حان وقت إعلانها الآن وسط ضباب ملىء بحبر المعاهدات والوعود الغامضة. فهل كانت منظمة التحرير الفلسطينية هى حقا الممثل الوحيد والشرعى والممكن للشعب الفلسطينى، وهل كان ياسر عرفات هو رمزها وقائدها عندما كان يقول قريبا جدا فى عام ١٩٨٩: إن منظمة التحرير الفلسطينية عندما تعرض السلام لا تعرضه من موقف ضعف.. ولكنها تعرض سلام صلاح الدين.. «وليس أقل من ذلك» فأى سلام هذا الذى عرضه وأى سلام هذا الذى قبله؟

يبدو أنه كان غامضا مثل غموض معاهدة السلام التى وقعها.. يروى الكاتب الفلسطينى الشهير إدوار سعيد أن عرفات كان يخطب وسط جماهيره الفلسطينية المحتشدة وكان كعادته يصيح ويشير ويكيأحيانا من شدة الانفعال وعندما سأل واحد منهم عن الصورة التى سوف تكون عليها شكل

الدولة الفلسطينية المقبلة أشار عرفات إلى طفل صغير يقف في مقدمة أحد الصفوف وهو يقول «عليك أن تسأل كل طفل فلسطيني ماذا يريد؟» وصرخت الجماهير في إعجاب باهر وانخرطت في التصفيق.. ويتساءل إدوار سعيد حائراً. «بحق السماء ماذا يقصد.. وماذا كان يعنى بالضبط..».

إلى أى مدى كانت مصداقية هذا الرجل الذى تحول فى وقت ما إلى أمل لكل المستضعفين فى المخيمات.. هل كان الدور الذى يقوم به مرصوداً بدقة حتى أن رفاقه تساقطوا من حوله وبقي هو حياً كأن معجزة إلهية ترعاه. لقد اجتاحت إسرائيل بيروت عام ١٩٨٢ وقصفتها بوحشية شديدة ولكن مقر عرفات لم يقصف. بل وانتشرت إحدى القصص التى تؤكد أن عرفات عندما كان متجها لركوب السفينة لمغادرة بيروت استطاع أحد الجنود الإسرائيليين أن يضعه فى دائرة الإصابة ببندقيته ولكنه لم يطلق النار. وربما كانت القصة زائفة ولكن رسالتها واضحة، لقد أبقي عليه حتى يكون ذا فائدة فى المستقبل فمن كان يتوقع أن نصل إلى هذه النتيجة؟!

التقزز الإسرائيلي والرضا الفلسطينى

«إننى أفعل ذلك بتقزز..» هكذا وصف إسحاق رابين محادثاته مع منظمة التحرير الفلسطينية.

قال ذلك أمام الكنيست الإسرائيلي دون أن يبالي بالاعتذار لأحد. وحين جاء وقت المصافحة الشهيرة تردد لبضع لحظات سينمائية بينما بقيت يد الرئيس الفلسطيني معلقة في الهواء.. كأن يد راينر ظلت تحاول إظهار تقززها حتى اللحظة الأخيرة كالعادة جاء شهر أغسطس الحار حافلا بالمفاجآت. وخرج إلينا الاتفاق السرى من أحراش أوصلو الباردة، ربما كانت فيه بعض النقاط الإيجابية التى لا يمكن لمحا منذ الوهلة الأولى، ولكن الطريقة السرية والمريبة التى خرج بها جعلت كل شىء محفوفاً بالشكوك للبعض ووصلت هذه الشكوك إلى درجة الاتهام بالعمالة والخيانة وغير ذلك من التهم العربية المعروفة.. والجاهزة. فلا يوجد أحد ضد السلام وضد التفاوض. بل إن منظمة التحرير كانت ممثلة قولاً وفعلاً فى المباحثات العلنية التى كانت تنهياً لدخول جولتها الحادية عشرة فى واشنطن. ولكن نفس المنظمة التفتت من خلف مفاوضاتها وقبلت كل الأشياء التى كانت مرفوضة. كان المفاوضون فى واشنطن مصرين على أن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ هو الأساس لقبول أى تسوية من أى نوع. لأن هذا هو القرار الوحيد الذى من شأنه أن يلزم إسرائيل بالانسحاب من كل الأراضى التى احتلتها، ولأنه كان قراراً دولياً له شرعيته وأمريكا هى أول المعترفين به فقد كانت إسرائيل تجد نفسها

فى موقف صعب تفاوضيا، وجاءت المنظمة فى محادثاتنا السرية وألغت هذا الشرط. نفس الأمر بالنسبة لسلطات الحكم الذاتى واستمرار إقامة المستوطنات ومبدأ تقسيم المياه. شروط واضحة ومحدودة كان الوفد المعلن يسعى لاتفاق واضح وصريح حولها وجاءت المفاوضات السرية لتنسف كل هذه الأشياء وتكتفى بمعالم غير واضحة وبقطعة ضئيلة من الأرض وبمكسب متواضع لا يوازيه فى تواضعه إلا الطموحات السياسية لأصحابه

ربما كان الأوان قد فات لكل هذه الانتقادات المريرة. ولكن قادة المنظمة وعلى رأسهم ياسر عرفات قد أثبتوا قصر نظرهم فى التعامل مع أراضيههم بنفس الدرجة التى تعاملوا بها معها أثناء غزو العراق للكويت . فهؤلاء الذين عانوا من مرارة الاحتلال واستلاب الأرض باركوا احتلال الكويت واستلاب أرضها وهم الآن يقنعون بحل مرحلى غامض يكرس الاحتلال ويضيع الجزء الأعم من أرض فلسطين.

لقد أخذوا قطعة من الأرض متفجرة بالألم والحزن، فقطاع غزة الذى اشتهر بأنه يصدر البرتقال والمدرسين يحتوى على أكداس من البشر الذين شهدوا المأساة وكانوا دائما أكثر من طاقة هذا الشريط الضيق على استيعابهم، والخوف ألا يتوقف تدفق البشر عليه، فالمخيمات سوف تنزح إليه بحثا عن الوطن

وإسرائيل تطرد إليه المبعدين نفيا من الوطن. ولا أحد يعلم متى ستخرج المفاوضات من مرحلتها الأولى لتصل إلى المرحلة الثانية، ولا أحد يعلم كيف يمكن أن توضع معالم الحكم الذاتى وسط غابات المستوطنات التى اقتنصت الأرض.. ولكن يبدو من كل ما مضى.. أن الأصعب مازال قادما فى الطريق.

لا أحد يؤيد.. لا أحد يعترض

لم يستطع أحد أن يؤيد. لم يستطع أحد أن يعارض. هذه هى حالة الشلل التى تعاني منها السياسة العربية حتى الآن. وانقلبت العملة على وجهها الآخر، وتذكر الجميع أن فلسطين هى قضية تخص الفلسطينيين فقط. وعندما عرضت نصوص الاتفاق قلب السياسيون العرب شفاههم وغرقوا فى الصمت مرة أخرى.. هل كان هذا الاتفاق هو ممكن السياسة العربية فقط فى وضعها الراهن وفى ظروفها الراهنة.. يبدو أن الأمر كان ذلك.. والعقبات كثيرة، ففى الوقت الذى يتحدث فيه فلسطينيو الاتفاق أنهم قد أصبحوا على طريق الدولة الفلسطينية يصر الإسرائيليون على أن الحكم المؤقت لمدة خمس سنوات لن يؤدى إلى قيام مثل هذه الدولة، فإدارة الحكم الذاتى لا تستطيع أن تمارس أى حق من حقوقها فى السيادة ولا تستطيع أن تمنح مواطنيها أى نوع من الهوية،

وهو أمر يخالف حقوق الإنسان ويكرس وضع اللاجنسية بالنسبة للفلسطينيين داخل الأرض المحتلة، ولا يتحدث الاتفاق - ولو بالمصادفة المحضة - عن الفلسطينيين الذين سكنوا الخيام منذ عام ١٩٤٨ في الأردن وسوريا ولبنان.. ماذا سيحل بهم وأى وضع قانونى سوف يكونون فيه بعد أن أسقطت كلمة اللاجئين تماما من قاموس الاتفاق؟..

إسرائيل لا تراهن ولكن تحاول أن تأخذ.. ولكن ليس أمام منظمة التحرير غير المراهنة.. فهي تراهن أولا على النوايا الإسرائيلية.. وثانيا على قطعة الأرض الصغيرة لعلها تكون نواة لدولتها الغامضة.. وتراهن على حصة من أموال المساعدات التى تتوقع أن تتدفق عليها، وتراهن على آلية انتخابية تضمن لها أكتريية فى انتخابات المجالس المحلية فى الضفة والقطاع.. مراهنات لا تنتهى، ربما انتهت ببعض المكاسب.. ولكن ما العمل أمام خصم يحتكر كل أوراق اللعبة؟

وقت الحسابات الثقيلة

ربما كان على قادة منظمة التحرير الفلسطينية وهم يستعدون للتوقيع على الاتفاق أن يتذكروا أنه فى هذه اللحظة حان وقت دفع الحساب لقائمة من الأخطاء الكبيرة، وعلى رأسها بطبيعة الحال موقفهم من احتلال الكويت..

لقد أورثت أزمة الخليج وحرب تحرير الكويت منظمة

التحرير جبهة، أقل ما توصف به أنها غير مبالية بمصير المنظمة، بعد أن كانت أكثر الجبهات المساندة لها تحمسا. وقد أدرك القادة ذلك عندما توقفت التحويلات المادية السخية التي كانت تأتي لهم من بلدان الخليج العربي، وكذلك توقف الدعم السياسى والمعنوى. وفى حالة بلد مثل الكويت كانت تحتضن ٤٠٠ ألف مواطن فلسطينى أخرجهم الاحتلال وقصر نظر قادتهم عنوة بعد أن كانت تعتمد عليهم آلاف الأسرى فى الأرض المحتلة، مما أعطى للانتفاضة هذا البعد الزمنى والمادى فواصلت صمودها على مداها، وهو الأمر الذى لم يملك أمامه الشاعر الفلسطينى سميح القاسم إلا أن يقول فى مجلة المصور القاهرية أخيرا «نحن لا نمك إلا أن نزجى الشكر إلى الكويت».

وحين أرادت أمريكا أن تقدم لهم حلا فى إطار متغيرات النظام العالمى الجديد اكتشفت أنه لا يوجد لهم سند حقيقى يقوى ظهورهم. لقد كف العرب عن مجارة بعض الفلسطينيين فى أخطائهم وممارساتهم السياسية، لأن خطأ موقفهم فى حرب تحرير الكويت كان أساسيا وعميقا ولا يمكن التغاضى عنه بسهولة، ومازالت أثاره تفرض نفسها على المنظمة، وليس توقيع اتفاق غزة أريحا آخر هذه الآثار.

العرب، والعرب الآخرون

بإجراء الاتفاق الإسرائيلي/ الفلسطيني لم يعد مبررا أن تحتل إسرائيل جزءا من لبنان أو جزءا من سوريا، فقد كانت القضية هي أن إسرائيل معتدية على شعب وأرض فلسطين وأن الإخوة العرب يساعدون أخاهم. ومادامت المنظمة قد اتفقت وأعطت وأخذت بالطريقة التي تناسبها فلم يعد مبررا إذن بقاء الجولان أو الجنوب اللبناني في أيد إسرائيلية.

المؤسف بالطبع أن (العرب الآخرين) - وهو تعبير غير دقيق وغامض - ملومون من قبل بعض ما كتب قريبا من قيادة المنظمة بأنهم السبب في هذا (القليل) الذي أخذ، وأعتقد أن مثل هذه الاتهامات تابعة للتفكير الماضى وليس المستقبل، والنصيحة هي أن يكف البعض عن التلميح لذلك، لأن ما أخذ، أو أعطى هو نتيجة توازن قوى لم تلعب فيه السنوات الأخيرة إلا القليل وإنما كانت تراكماته تتزايد منذ عقود، وهى كما قلت تراكمات هيكلية، قاد إليها قصر النظر وحب (المغامرات) السياسية، التى تبناها قادة المنظمة.

ومن المؤسف أن هناك قوى وتيارات بدأت تنظر إلى التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط نظرة تلك الجماعات التى حشدت الجماهير منذ الخمسينيات فى اتجاه التحرير الكامل، ومرة أخرى دون حساب للثقل النوعى للقوى المختلفة

على أرض الواقع... البعض يعود ليتشبهت بأهداف الأيديولوجيات القديمة فى أثواب أيديولوجيات جديدة، متناسين أن الاختلافات فى شئون الدولة والسياسة يحكمها الصواب والخطأ لا الكفر والإيمان، وتحددها القوة والضعف لا الآمال والأمانى، ويحاول هؤلاء من جديد استغلال عدم الوعي أو الوعي الخاطيء بإشاعة أطروحات وشعارات لا يختلف محتواها ومقاصدها عن شعارات السبعينيات والستينيات وإن تدرت بعباءة أخرى.

والسؤال: هل من المحتم علينا أن نكرر أخطاء الماضى بصيغ جديدة وننتظر أربعة أو خمسة عقود أخرى لنكشف القوى المؤثرة على أرض الواقع، ونستبدل من جديد طريق العلم والمعرفة وملاقاة التحدى الاقتصادى بتحد كلامى فضفاض وأطروحات عبثية جديدة؟

الدور العربى المطلوب

لا أعتقد أن إسرائيل تطمح من وراء هذا الاتفاق إلى إرضاء الفلسطينيين. فقد أثبتت التجارب المريرة أنها قادرة على مواجهةهم بشراسة. ولكنها بالتأكيد تتطلع إلى منطقة الشرق الأوسط بأكملها وإلى عالمنا العربى الذى تحول إلى منطقة عالمية تتصارع فيها كل القوى... وهى تطمح إلى أن يكون هذا الاتفاق الغامض الهزيل هو حصان طروادة الذى تتسلل

بواسطته إلى أعماق البلاد العربية.

إنها تريد أن تؤكد تفوقها العسكرى بتفوق من نوع آخر هو التفوق الاقتصادى والتقنى.

وهنا يأتى الدور العربى الغائب.. فإذا كان الفلسطينيون مرغمين على توقيع هذا الاتفاق الذى يتيح لهم جزءا ضئيلا من الأرض، فإن الدول العربية غير مرغمة على تبادل الاعتراف مع إسرائيل إلا إذا تم هذا الاعتراف بشروط هذه الدولة (العربية) ووفقا لمصالحها.

أيا كان نوع الاتفاق القادم فإننا نريده أن ينهى الدموع والألم والعذابات الفلسطينية المتصلة منذ ضياع الأرض. ومهما كانت المواثيق - وهى غامضة - فلن تؤكد نفسها إلا على أرض الواقع ولن يصبح هذا الاتفاق ساريا إلا إذا نفذ الجانب الإنسانى منه وأن يتمتع فلسطينيو الداخل... وفلسطينيو غزة وأريحا بنفس الدرجة من الحرية والمساواة التى ترفع عن كاهلهم عبء الاحتلال الثقيل، وإلا إذا تم الاعتراف بأن الجولان وجنوب لبنان قطعتا أرض عربية، أن أوان عودتهما إلى وطنيهما.

إننا فى حاجة إلى الانتظار حتى يخرج إلينا زعيم فلسطينى - وليس مهما أن يكون ياسر عرفات - يتمتع بالأمانة والمصداقية كما فعل الزعيم الإفريقى نلسون مانديلا وهو

يدعو العالم إلى رفع المقاطعة عن جنوب إفريقيا . نريد نحن أيضا دعوة فلسطينية حقيقية تدعو الدول العربية إلى رفع المقاطعة عن إسرائيل وأن تكون الأسباب واضحة وجلية وليست بنفس حبر الاتفاق. وحتى هذه اللحظة فإن على البلاد العربية أن تواصل إغلاق حدودها في وجه كل الأحصنة الخشبية ويكفى ما أضعناه من أوطان.

ربما كان علينا أن نتفاءل قليلا، ورغم أن ما حدث هو توقيع اليائسين... إلا أن هناك قدرا من التفاؤل يبدو عند حافة الأفق البعيد. فقد حصل الشعب الفلسطيني على جزء من أرضه. ولعل هذا يقلل كثيرا من اكتمال الحلم الإسرائيلي بالاستيلاء على كل فلسطين وإقامة دولة دينية يهودية مهيمنة على المنطقة العربية.

وربما يلعب العنصر الديمغرافي دوره وتعطى الجغرافيا ميزتها لأهلها الذين افتقدوا كل ميزة. ولعلنا نذكر قول بسمارك «إن واحدة من معطيات التاريخ تبقى ثابتة مهما تغيرت المعطيات الأخرى... هي الجغرافيا...». وهو أمر لا فضل لنا فيه ولا حيلة لإسرائيل في مواجهته... فهي موجودة وسط محيط عربي، والفلسطينيون يتكاثرون، وإذا أحسنا استثمار هذه القوى البشرية واستوعبنا خبراتها المتراكمة من المنافى المختلفة فسوف تكون لدينا طاقة جبارة وقوة دافعة. إن

هذا الأمر سوف يفرض وجوده على أرض الواقع ويبقى عليهم
معا - الفلسطينين والإسرائيليين - أن يعيدوا البحث عن صيغ
مشتركة للتعايش على ألا تكون بالضرورة مجحفة مثلما
نشاهد فى هذه الأيام.

هل هى عودة إلى التفكير الصحيح ؟

كان من أبرز ملامح خطابنا السياسى الماضى هو وضع
اللوم على (الصانع الغائب) وعادة ما يكون صانع إخفاقاتنا
الغائب هو إسرائيل أو الغرب أو الاثنين مجتمعين. وكأننا أولا
نريد أن نعادى الآخرين ولا ننتظر منهم أن يعاملونا بالمثل. لقد
عكس الصراع العربى/ الإسرائيلى بين ١٩٤٧ و ١٩٩٣
تاريخا من الإخفاقات، وكان معظمنا يبرر أسباب الإخفاق
بمقاصد الغير السيئة - إلا فى فترته الأولى - عندما وضع
السبب على عسف الأنظمة الجديدة والتي أطيح بها واحدا تلو
الآخر دون أن تتخلص من شوائبها الأساسية حتى لو تغير
البشر.

. العودة إلى الصحيح هو أن الشعارات القديمة لم تعد قادرة
على أن تكون بؤرة للتشديد والتضحية بالمصالح الحقيقية فى
سبيل آمال لم تثبت صحتها. فلا بد من التفكير بإطار قومى
جديد يؤكد مصالح الأمة المفترض وجودها، هذه المصالح هى
القاسم المشترك لمصالح الدولة وليست مصالح دولة أو عدة

دول، تحمل شعارات مضللة وتسلب مصالح الآخرين باسم هذه الشعارات. بالتأكيد المظلة العربية مطلوبة لأننا ببساطة فى هذا العالم من جهة نعيش عصر التكتلات والمصالح الجماعية، ومن جهة أخرى هناك آخرون خارج الإطار العربى يريدون أن يعظموا مصالحهم على فرقتنا. ولكن ما هى بالضبط مصالحنا المشتركة؟ بالتأكيد ليست المصالح هى تلك التى توقظ أحلام أو أوهام العودة مع كل خطاب يلقيه سياسى طامح ومع كل دعاية تقلب حكما مستقرا، ومع كل كارثة تحل بوطن مسالم. تلك مصالح مرضية وجب التخلص منها. المظلة العربية مطلوبة بعد تحديد دقيق لمفاهيم مثل التضامن العربى والأمن العربى، فى إطار ما يحفظ الكرامة والاستقرار والاستقلال لكل بلد عربى .

لقد تزامنت العقود الأربعة الأخيرة بشيء من التصرفات (الصيانية) فى السياسة العربية وهى تصرفات وسلوكيات لن يفسح لها المجال فى المستقبل. بل من المطلوب أن تحل محلها علاقات عقلانية على مستوى الوطن وعلى مستوى العلاقات العربية البينية. والتفكير الصحيح على مستوى آخر هو القول إن التحدى الاقتصادى هو التحدى الصحيح. لقد اخترنا أعداء وهميين وخياليين وربما بعضهم حقيقى فى الماضى وحاربنا طواحين الهواء من منطلق عدم المعرفة

بالنفس، ويعد إنجاز اتفاقية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية وعودة الجميع إلى أرض الواقعية بانسحاب إسرائيل من الجولان ومن جنوب لبنان، فإن التحدى الصحيح سيكون هو التحدى الاقتصادى وهو القوة التى تواجهنا وتدعونا إلى خوض المعركة، بعد أن انتهينا أو كدنا من تحديد الهوية وتحديد موقعنا الحضارى..

يتعين علينا جميعا أن نتساءل فى آخر المطاف ما إذا كان السلام الشامل المراد سوف يولد الثقة والتعاون أم أنه سيكون فقط إنهاء قسريا لحالة العداء، حيث إن السلام القادم لا يمكن مقارنته بما مضى، فالاتفاقات المصرية/ الإسرائيلية مثلا (وهى الأولى من نوعها) لم تغادر مرحلة فك العداء، إذبقى التبادل التجارى مع الاستثمارات المتبادلة محددة بين البلدين، إلا أن وجود كيان فلسطينى مشارك فى المصالح والأرض والثروة مع إسرائيل مع التداخل المعروف فى المستوطنات سيحتم شكلا أو آخر من التعاون الاقتصادى. وإذا تذكرنا فقط أن الاقتصاد الإسرائيلى هو ضعف اقتصاد أكبر دولة عربية (مصر) وأن عدد سكان إسرائيل محدود نسبيا فسوف نتبين الإمكانيات الكبيرة لإسرائيل بالنسبة لجيرانها، عدا بالطبع الإمكانيات العلمية والتقنية، فى الوقت نفسه الذى أهدرت فيه إمكانيات الاقتصاد العربى لعقود من

الزمن.

فى خطاباتنا السياسية السابقة تجاهلنا قوة العلم وأهمية التقنية وكانت القوة بالنسبة لبعضنا هى حناجر مدوية والعلم شعارات مطروحة. وواقع الأمر أن عصب التقدم الحديث هو العلم بكل أشكاله وجميع مجالاته، وما يرتبه على سلوك المواطن والوطن فى المجالات السياسية والثقافية والتقنية والاقتصادية فى الإطار الاقتصادى، ولم تتمكن إلا أنظمة عربية محدودة من تقديم إصلاحات بنيوية تهدف إلى إنعاش اقتصادى واجتماعى معقول، كما أن غالبية المحاولات العربية لإنشاء مجموعات اقتصادية إقليمية بمسميات مختلفة فشلت أو تعثرت بسبب الخلافات والنزاعات السياسية وليس الاحتياجات الاقتصادية. وبقيت معظم الاقتصاديات العربية مغلولة ومكبلة بقيود داخلية وحصار سياسى واستنزفت لأهداف بعيدة عن مصالح الشعوب.

لقد تغلبت السياسة على العلم، والأهواء على المصالح، والمطامح الفردية على مصالح المجموع فأنتجت وضعاً لا تحسد عليه أى مجموعة بشرية حول العالم الذى نعيش فيه. فهل جاءنا زمان نتعظ من متغيراته؟ أرجو - مخلصاً - ذلك.

١٦

زيارة لوطن الكلمة

لبنان.. الدرس

العربي الباهظ الثمن

قضيت خمسة أيام فى لبنان، ولم أزر لبنان منذ خمسة عشر عاماً، وكنت أعرف لبنان ما قبل الحرب الأهلية التى تفجرت سنة ١٩٧٥، وكنت أتابع المأساة اللبنانية، كعربى، من بعيد. فقد كانت نار الحرب الأهلية اللبنانية لا تسمح لأحد بالاقتراب، ولبنان بالنسبة للبنانى هو كل الدنيا وبالنسبة للآخرين هو وطن صغير هناك عند ساحل البحر الأبيض المتوسط تكتنفه الصعوبات، وهى لست أكبر أو أصغر من صعوبات عديدة تكتنف العديد من الأوطان خاصة فى هذه الفترة الصعبة. لبنان بالنسبة لى ليس بالضرورة كما يراه اللبناني وليس بالضرورة كما يراه الآخرون ولكنه منزلة بين المنزلتين.

قد لا يعرف الجيل العربى الجديد لبنان ولا الدور الثقافى والحضارى الذى قام به فى مرحلة بناء الدولة العربية بعد الحرب العالمية الأولى، قد يعرف صورة ممسوخة قدمت له هنا أو هناك بالتضخيم أو التبسيط، بينما لبنان للجيل العربى الوسط له تاريخ وصدى، وأحسب أن لبنان الجديد سوف يجدد ذلك التاريخ الإيجابى والصدى الثقافى.

بعد خمسة عشر عاماً من فراق لبنان عدت إليه من جديد ولم تكن الفترة التى أمضيتها فى ربوعه بكافية لإصدار حكم نهائى ولكنها بالتأكيد أوجت لى بمؤشرات استأنن القارىء،

فى إشراكه معى فىها .

هناك العىء من الثوابت اللبناىة اللى كنت أعرفها- لم تعد حتى الآن ولكنها بقىة كما كنت، وهناك العىء من المظاهر الءءءة إنسانىة وعمرانىة، اءتماعىة وسىاسىة أفرءتها التءىرات اللى مرء أو هى أفرءت نفسها إبان الحرب الأهلىة. الثوابت والمءىرات كءىرة ولا يمكن ءصرها فى مقالة إلا أن العنصر الأساسى فى الثوابت اللبناىة أن هناك ءائما مؤىءىن ومعارضىن، موافقىن ورافضىن لأى شىء ولكل شىء من مشروع إعمار وسط بىروت إلى السلام العربى الإسرائىلى، ومن السماح لءءول رءوس الأموال من الءارء إلى ءمن شطائر(السندوءش) اللى ءىاع فى المءلات الصءىرة. المعارضة والاءءلاف سمءان أساسىءان من سماء لبناى وستظلان كءلك، ومع الاءءلاف اللبناى ءأى إءاءة ءءءم الءءماء بكل الكماء الطىبة والمعسولة اللى سءءقبك بها اللبناى فى المءعم والمءءر والبنك وفى البىء، هى سمة ءءءك ءءءار وءءساءل:كىف ءارب اللبناىون بعضهم بعضا بالقنبلة والمءفع والرصاص وهم على ما هم علىه كأشءاى من ءماءة الءلق ورقة الطباع؟

باءءصار اللبناىون يصعب ءءلىل سلوكىاءهم، لءلك فىن الموضوع اللبناى ىءو على السطح بسىطا وواضءا ولكنه فى

العمق معقد مثل كرة من الخيوط التي دخلها عندما دخلت كل طوائفه وشخصياته السياسية في حرب أهلية، ولكنه وبرغم انتهاء الحرب لم يخرج بعد من المستشفى، إنه يتعافى وبسرعة ولكن محبيه - وأنا منهم - يخافون عليه من الانتكاسة أيضا سواء كان سببها داخليا أو خارجيا.

لا يستطيع عربى إلا أن يتعاطف بعمق وب عاطفة مع لبنان الانسان، فالانسان اللبناني - وأنا هنا أتحدث عن الغالبية قد طحنته الحرب الأهلية الضروس فشقت تجمعاته وهجرت رجاله وطحنت بالغلاء بعضا من فخره واعتزازه، وتستطيع أن تلاحظ ذلك فى القرية اللبنانية الجنوبية وساكنيها، كما تلاحظه فى الأحياء الفقيرة فى بيروت، وكذلك تشاهده فى هياكل الدمار التى مازالت ماثلة فيما كان يسمى بخطوط التماس بين القوات المتحاربة. مازالت هناك عائلات بأكملها تعيش فى عمارات بلامياه ولا كهرباء ولا حتى جدران أيضا، وما زالت الهجرات مستمرة أيضا بحثا عن مكان آمن فى بلد افتقد الأمان لمدة طويلة.

بجانب هذا المنظر الإنسانى، يبرز منظر اللبناني الآخر وهو يشيد العمارات الشاهقة ويقيم الكبارى الممتدة ويستورد من الخارج أفضل أنواع المأكولات والمشروبات والملبوسات. وقد سألت أحدهم وهو شرح لى مواصفات البناء الجديد الذى

يتكون من عدة طوابق ومجموعة من المتاجر وناد اجتماعي وصحي حديث في إحدى قرى الجبل السياحية: كيف قمتم بكل هذا في السنوات القليلة الماضية؟ وأجابني وكأنه قد حفظ الإجابة ويعرف وقعها على غير اللبناني: «لقد كنا نبني والحرب الأهلية دائرة وعندما تهدأ نعود من جديد» أحد متعهدي البناء أشار إلى عدة عمارات متقابلة في إحدى ضواحي بيروت الفاخرة وقال: «لقد كان على أن أدفع أجور العمال وأقدم لهم الأكل.. عملوا أو لم يعملوا . وحتى لا أخسرهم قررت أن أستضيفهم وعائلاتهم في معسكر قريب من موقع البناء. لقد كان على أن أدفع بأي شكل فقررت أن أدفع وأبني أيضا!!»

مثل هذه القصص كثيرة إلى درجة أنها لا تصيب اللبناني بأي دهشة كما تصيب الآخر حتى لو كان يعرف قدرة اللبناني المطلقة على البناء.

لبنان الحرب والطائفية

منذ أن تكون لبنان الحديث وهناك عقدتان تحكمانه، عقدة الإحساس بالغبين لدى المسلمين، وهواجس الخوف لدى المسيحيين، وفي إبان حكم الجمهورية اللبنانية الأولى منذ الاستقلال حتى نهاية الحرب الأهلية سنة ١٩٩٠ ظلت هاتان العقدتان بارزتين في ظل أوجه الصراع اللبناني على كثرة ما

تبدلت الأوجه. لذلك كان العنصر الخارجى دائما حاضرا ومساندا لأحد الطرفين إما لتغليب فئة على الأخرى، أو تقليل نفوذ فئة لبنانية لحساب فئة أخرى، جيل الاستقلال هو فقط الذى استطاع أن يحافظ وبصعوبة بالغة على هذا التوازن لفترة ولكن سرعان ما انهار هذا التوازن تحت ضغوط الشد والجذب المحلى والإقليمى والدولى، ودفع اللبنانيون - معظم اللبنانيين - ثمنا فادحا من المال والأرواح واستقلال الوطن أيضا.

ومن المفارقات أن جيل الاستقلال اللبنانى فى محاولة منه لتخطى هاتين العقدتين معا(عقدة الخوف وعقدة الغبن) فقد ضمن وثائق الاستقلال اعترافه باعتماد النظام الطائفى منذ أوائل الأربعينيات على أنه (تدبير انتقالى محدود) وكان هذا الأمر يمثل ضرورة سياسية وقتها حتى يخرج لبنان المستقل إلى الوجود.

مهندسو الصيغة اللبنانية الأولى هذه كثيرا ما حذروا من المخاطر الملازمة لمثل هذه الصيغة التى اضطروا للاعتراف بها، إلا أن الطائفية السياسية فى لبنان تحولت من تدبير انتقالى محدود إلى ممارسة فعلية مؤثرة لدرجة أدخلت مفردات هذه الصيغة نتيجة التنافس السياسى - إلى حلبة القوانين، وبلغت قممتها فى نص قانون الموظفين الصادر عام

١٩٥٩ والذي كرس قانون التوزيع الطائفي للوظائف العامة. وهكذا تكرست الطائفية في لبنان في نصوص تشريعات عديدة ومنحت الطوائف اللبنانية بموجب هذه التشريعات صلاحيات واسعة لإدارة شئونها الداخلية ومؤسساتها. حقيقة الأمر أن ما حدث في دولة الاستقلال هو تعزيز الطائفية فيما كان التصور الأصلي للآباء المؤسسين أن الزمن كفيل بإزالة هذه الظاهرة ليتحول لبنان المأمول من دولة للطوائف إلى دولة للجميع ولكن ترسيخ هذه الظاهرة لم يتوقف عند التعددية في المراجع السياسية فقط، وإنما امتد ليصبح تعددية في المراجع الروحية أيضا.

ليس بالإمكان سرد العوامل الكثيرة التي أدخلت لبنان في حرب أهلية يسميها كل اللبنانيين اليوم بأنها كانت حربا قذرة بكل معنى الكلمة، وليس في الإمكان أيضا تبرئة العناصر الكامنة في صميم الصيغة اللبنانية والتي ساعدت على هذا التفجير جنبا إلى جنب مع المصالح الخارجية التي أرادت أن تجعل من لبنان ساحة صراع لقوى وأيديولوجيات يراد اختبارها في الشرق الأوسط. ومهما تعددت العوامل فقد كانت الساحة مهيأة، فكما اهتزت منطقة الشرق الأوسط بحدث كبير كان لابد أن يسمع صدى هذا الحدث في لبنان. لقد نأى اللبنانيون بالدولة اللبنانية من دخول حروب العرب مع

إسرائيل في سنوات ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، فكسبوا الدولة مؤقتاً ولكنهم خسروا الوطن بعد ذلك في حرب أهلية استمرت منذ ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠ لأن اللبناني ببساطة لا يستطيع أن ينزع نفسه عن الحديث في السياسة، فهو كما يقال كان قبل الحرب الأهلية يتحدث في السياسة ست ساعات ويعمل ساعتين فقط في اليوم، هذا إذا كان له عمل، أما إذا لم يكن له عمل فإنه يتحدث في السياسة ست عشرة ساعة وينام ثمانى ساعات.

هذا المناخ اللبناني على ضوء الترتيب الطائفي الذي يفرض على المواطن ان يفصح عن هويته الطائفية جبراً وبموافقة القوانين - إن لم يكن عن رضا - سمح للبعض باستغلال المشاعر الدينية لأهداف سياسية ضيقة في مجتمع بدا أقل ترابطاً نتيجة تباين الحقوق السياسية والاجتماعية مما أضعف الشعور بالتضامن الوطنى وولد إحباطاً وكبتاً دائمين فى قلة تكافؤ الفرص وتحديد أنصبة مسبقة للطوائف تحت ظل سقوف جامدة، وانقسم هذا المجتمع - مادامت الطائفة هى الأساس - إلى سبع عشرة طائفة معترفاً بها قانوناً، ومن المصادفات المريبة أن عمر الحرب الأهلية اللبنانية هو أيضاً سبع عشرة سنة...!!

والطائفية فى لبنان فى مرحلة استقرارها أو صراعها تنبش

دائما عن تحالفات إقليمية ودولية تتلاءم مع مصالحها، وبالتالي إن كان هناك صراع فلأن هناك حليفا آخر للدعم السياسى وفى نطاق واسع.

وقد كانت شكوى كل الطوائف من الطائفية علنية. والكل يلعنها والكل يتمسك بها حتى جاء اليوم الأغبر واشتعلت شرارات الحرب فتحوّلت الطائفية إلى سيوف ماضية يطعن بها كل صديق صديقه اللدود.

.فى يوم الثالث عشر من أبريل ١٩٧٥ تعاقبت فى صبيحة واحدة من يوم الأحد وفى حى سكنى واحد هو «عين الرمانة» بضاحية بيروت الجنوبية سلسلة معقدة من الأحداث قتل فيها مقاتل مسيحي وحوالى عشرين راكبا فلسطينيا كانوا يمرون - بالمصادفة - على مقربة من المكان الذى قتل فيه المقاتل المسيحي قبل ساعات، ومنذ ذلك الحادث كرت مسبحة الحرب الأهلية متقطعة تاره أخرى، وتبدلت فيها التحالفات أكثر من مرة فدخلها الحلفاء معا، ثم دخلوها ضد بعضهم بعضا، ثم تحالفوا وتفرقوا وتصالحوا وتقاتلوا فى حروب صغيرة، ولكنها لا تتوقف. وشهدت ممارسات هذه الحرب أبشع ما يمكن أن يوقعه الإنسان على الإنسان، وأكلت الحرب جيل الوسط من السياسيين اللبنانيين فلم توفرهم ولم تحفظهم من أن يكونوا حطبا لها.

وسيكون من المبكر كتابة تحليل كامل لهذه الحرب: مسبباتها ونتائجها إلا أن العديد من اللبنانيين من كتّاب ومفكرين يكادون أن يُجمعوا اليوم على عبثية هذه الحرب التي خرج الجميع منها مغلوبين.

نتائج حروب الدمار ظاهرة في لبنان، وهي ليست فقط على الجدران وهياكل البنايات المحروقة، بل في داخل صميم الإنسان نفسه، داخل أنسجة اللبناني الذي صمد في مراحل هذه الحرب ولاحقه الرصاص، ولدى اللبناني الذي هاجر من وطنه قسرا إلى بقاع أخرى من العالم، هذا الإنسان الذي لا يريد الآن أن يتذكر أهوال هذه الحرب بل إن هناك جيلا شابا يتحسر على سبع عشرة سنة من حياته ولا يعرف كيف مرت عليه. ويتسابق الكتّاب والمفكرون اللبنانيون على نقد المرحلة برمتها وعلى الإشارة إلى (أمراء الحرب) بشكل سلبي يكاد يصل إلى حد الذم فيهم، وقد قال أحد المثقفين اللبنانيين: «يبدو أنه في لبنان لا يوجد الأقوى فعندما أطلق بيار جميل زعيم حزب الكتائب في بداية الحرب الأهلية شعاره «لنقم الحرب وليربح الأقوى» كان يعتقد أن هناك من يمكن أن يكون الأقوى في لبنان، والمطلق، والصيغة اللبنانية تجعل مثل هذا التصور في حكم المستحيل.

الجمهورية الثانية

يرى أغلب اللبنانيين أن التركيبة السياسية التي توصل اليها زعماء لبنان بعد مؤتمر الطائف في ١٩٨٩ والتي على أساسها أنهيت الحرب الأهلية اللبنانية كانت بداية الجمهورية الثانية بعد أن سقطت تركيبة الجمهورية الأولى في أحوال الحرب الأهلية، وتجد بين المثقفين والسياسيين اللبنانيين من ينتقد توليفة اتفاق الطائف، ونجد بينهم القابل بها كمرحلة في سبيل دولة أخرى شبه موحدة. ولقد غيرت اتفاقية الطائف في المعادلة السياسية اللبنانية، وأدخلت على أثرها مجموعة من الإصلاحات على الدستور اللبناني ووسعت من قاعدة التمثيل السياسي في البرلمان كما وازنت بين الطائفتين الكبيرتين: المسلمين والمسيحيين.

وقد قادت هذه الإصلاحات التي أحدثتها صيغة الطائف - والتي توصل اليها اللبنانيون بمساعدة عربية تمثلت في ثقل الملكة العربية السعودية وسوريا بشكل أساسي ودعم دولي - إلى أولويات عمل جديدة في الجمهورية الثانية، وتبدلت صيغة الرأس الواحد الذي يصدر الأحكام وهو غير مسئول أمام أيه مؤسسة دستورية وهي الصيغة التي عاشتها لبنان حتى اتفاق الطائف - تبدلت إلى مسئولية كاملة بين الرؤساء الثلاثة: رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء، رئيس مجلس

النواب، وهى الصيغة التى يطلق عليها اللبنانيون «الترويك» مع ميل واضح لدور رئيس الوزراء الذى لا يعين إلا بعد الاتفاق مع أعضاء مجلس النواب.

المراقب المحايد، الباحث فى الأدبيات السياسية اللبنانية، بعد الطائف، يلاحظ أن هناك إنجازات حقيقية، فقد انفتحت المناطق اللبنانية على بعضها البعض انفتاحا كاملا، وتستطيع اليوم أن تسير فى لبنان من أقصاه إلى أقصاه دون أن يوقفك أحد أو يدقق فى أوراقك، اللهم الا فى مناطق الجنوب. أما المناطق الأخرى فيكفى أن تخفف سيرك ليشير إليك من بالحاجز بالمرور. بجانب ذلك فإن النشاط الاقتصادى فى لبنان يستعيد قدرته، ويعود ذلك إلى سببين: الأول هو حيوية اللبنانيين أنفسهم والثانى هو عون الدول الصديقة والعربية على وجه الخصوص فى معاناة لبنان. يلاحظ القادم إلى بيروت أن النشاط فى المطار بدأ يدب ولو على استحياء، إلا أن النشاط فى شوارع بيروت فى شق الأنفاق والطرق السريعة وصولا إلى القرية الصغيرة يدل على أنها ورشة عمل. ومن يطلع على الخطة العشرية التى أطلقتها الحكومة اللبنانية سنة ١٩٩٣كى تتحقق سنة ٢٠٠٢ لابد أن يوقن بالعزم على تحقيق نهوض اقتصادى اجتماعى للبنان جديد، ومع ذلك فإن الأشجان اللبنانية عديدة ومتشعبة: منها ما هو خاص

بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمعظم اللبنانيين ومنها ما
له علاقة باحتمالات السلام مع إسرائيل ومساراتها القادمة.
الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

الحزن الذى رافق وحرك الإنسان فى كل حروبه - على مر
التاريخ - كان ولا يزال الجانب الآخر للشخصية اللبنانية،
فلقد شعرت بحزن دفين فى عيون أصدقائى اللبنانيين مهما
بدا على وجوههم من ابتسام، هذا الحزن هو فى جزء منه
حسرة على الماضى وقلق على المستقبل، فأمرء الحرب - أو
بعضهم على الأقل - بعد أن خاضوا الحروب المتعاقبة وصلوا
إلى النادى السياسى اللبنانى، بعضهم تعلم لغة المرحلة
الجديدة وأجاد التحدث بمفرداتها وبعضهم لا يزال يحن إلى
مرحلة (المليشيات) والسلطة المطلقة حتى لو كانت تفرض
سيطرتها على حى صغير. ومن فقد المجد من هؤلاء الأمراء
يحن إلى الأزمنة الشاذة السابقة، فالغياب الطويل لسلطة
القانون قد سهل للبعض انتهاكه. هذا البعض سواء كان
متسبباً فى الحرب الأهلية أو عمل على ملء الفراغ الناجم عن
غياب سلطة الدولة تعلم لغة وممارسة تمت صياغتها فى
قاموس المليشيات وما زال له حنين فى العودة إليها بل
ممارستها بأشكال أخرى.

التحدى الذى يواجهونه الآن هو أن يصبح لبنان الحرب

الأهلية هو لبنان التعايش والتنمية، وهو تحد ليس من السهل قبوله لدى بعض المنتفعين بنيران الفرقة. إن النادي السياسى الذى تشكل بعد الطائف من وجوه جديدة ووجوه قديمة لا يزال بعضها يمارس السياسة اللبنانية من زاوية الحصول على كل شىء الأمر الذى جربوه إبان الحرب الأهلية فخسروه بقوة السلاح ويريدون ربحه بواسطة بلاغة الحنجرة السياسية. والملاحظة التى قد تصدم الزائر إلى لبنان أنه لم يبق من الأحزاب اللبنانية القديمة شىء تقريبا فقد احات الحرب الأهلية الأشكال القديمة من الأحزاب اللبنانية إلى التقاعد وبعضها شيع بالفعل إلى القبر. ولقد كان الشكل التقليدى للأحزاب اللبنانية هو التحزب لزعيم أو عائلة واستولدت الطائفة الواحدة فى لبنان حزبا أو أكثر حتى قارب عدد الأحزاب اللبنانية السبعين حزبا أو أكثر. قلبت الحرب معظم الأحزاب تلك إلى مليشيات أو (مقاومات) وعرت بذلك القشور الهشة عن الطبيعة العسكرية لهذه الأحزاب التى لم يعد لها هدف سوى إرضاء الزعماء الجدد الذين ثبتوا زعامتهم فى أيام الحرب على ما تبقى من تلك الأحزاب.

لقد بدلت الحرب البيئة اللبنانية القديمة وأصبح الرهان بعد الطائف هو: هل هناك مكان تشغله الأحزاب فى العمل السياسى اللبنانى القادم أم أن هناك جيلا من اللبنانيين

يمكن أن يمارسوا السياسة بلا أحزاب، أو على الأقل دون الأحزاب التقليدية السابقة. ففي زمن الحرب الأهلية تأجلت وتبددت كثير من القيم التي كانت تسود المجتمع اللبناني وحلت بدلا منها قيم (المليشيات) القائمة على .. اضرب واخطف واهرب. قيم هي أعراض من سعار الحرب الذي لف في أتونه كل طبقات المجتمع وأصبحت المشكلة الآن هي كيفية الخروج من قيم الحرب إلى قيم الاستقرار. فهناك تركة مثقلة من المخاوف والقلق والتوتر في نفوس الشباب اللبناني وتكفي دلالة على هذه الحالة تلك المسابقة التي عقدت لكتابة القصة القصيرة عند الشباب ووجد أن التيمات والأجواء الغالبة في هذه القصص هي الموت والقلق والافتقار والرغبة في الهجرة.

في الأجواء التي أعقبت الحرب برزت قضيتان مستجدتان تبدوان متناقضتين، الأولى هي الوضع المعيشي العام الذي يواجه صعوبات تنذر بالخطر. فرجل كالدكتور سليم الخص الاقتصادي الموثوق يرى أن هناك أجواء من الثقة المتجددة في المعطيات الاقتصادية اللبنانية ومظاهرها ارتفاع معدلات الإنتاج والإيرادات الجمركية وانخفاض عجز الخزانه وارتفاع نسبي في الحد الأدنى للأجور وغيرها من مظاهر التعافي الاقتصادي، في الوقت الذي تتوافر فيه تقارير تقول إن

الغالبية من اللبنانيين ما زالوا يواجهون شظف العيش، فهناك دراسة تقول إن ثلاثين في المائة من السكان في لبنان يعيشون تحت خط الفقر، كما تتفاقم ظاهرتا البطالة في المدن والهجرة من الريف إلى المدينة أو هجرة الشباب إلى الخارج عندما يواجهون فترات طويلة من التبطّل.

الظاهرتان تعيشان جنباً إلى جنب. قلة ميسورة في إطار اقتصاد خدمي نشط وأغلبية معوزة، كما أن نسبة الأمية بين الشباب أخذت في التفاقم فقد كانت نسبتها قبل الحرب ١٢/١٠ فارتفعت بعدها لتصبح ٣٤٪ بمن فيهم من تركوا التعليم وهم في سن الثامنة. والمتفائلون في لبنان يؤكدون أن الأمور تسير في شكل أفضل والمتشائمون يرفعون عقيرتهم بصياح الشكوى، كأنه مشهد من المسرحية التي تشهدها بيروت الآن بعنوان (ابتسم أنت لبناني) وخرجت منها بانطباع أن اسمها كان يجب أن يكون (ابك أنت لبناني) وبين التفاؤل والتشاؤم يظل لبنان حيزاً جغرافياً مليئاً بالحيوية.

التسوية والتوطين

حقيقة الأمر أن المجتمع اللبناني اليوم على مفترق طرق، فلبنان الواقع لا يستطيع أن يخرج مما ارتضاه اللبنانيون لفترة طويلة سابقة وهو التعايش الحرج بين طوائفه، كما أنه على مفترق طرق في المدى القصير حيث الحديث جارٍ عن

انتخابات رئيس جمهورية قديم أو جديد - لا تتعدى مدته أكتوبر سنة ١٩٩٥ وأمام هذين المطلبين الملحين تبدو العضلة الرئيسية فى مواجهة عملية السلام فى الشرق الأوسط، وفى إطار متاهات السلام السورى/ اللبناني/ الإسرائيلى، سوف تترتب أوضاع البيت اللبناني فى المدى الطويل بطريقه مختلفة وجديدة.

لقد كانت مدينة بيروت كلها ترتجف تحت وطأة العسكر وهدير ناقلات الجنود عندما اتخذت الخطوات الأولى نحو سلام مع إسرائيل خلال اتفاقية كامب ديفيد وما تلاها ، وقد اشتد هدير الدبابات واصوات المدافع فى لبنان فى سباق مع مداخل السلام العربية/ الإسرائيلى، وكان فصل الاجتياح الإسرائيلى للبنان سنة ١٩٨٢ أحد الفصول الدامية والحزينه فى طريق ما عرف بالسلام بعد بذلك.

واليوم يقف اللبنانيون أمام التسوية السلمية والتطبيع وهم يحملون همأ آخر هو توطين الفلسطينيين فى لبنان. هذه القضايا تشغل بال السياسة اللبنانية والشارع اللبناني. وكعهد اللبنانيين يواجهونها بالانقسام فى الاجتهادات العلنية، وفى الموافقة والاختلاف مع الأطراف الخارجية. إلا أن أحد الدروس فى هذه القضية والتي يبدو أن لبنان الدولة على الأقل قد استوعبها هو أن لا حل بالاعتماد على قوة أجنبية،

فلقد خابت - فى رأى المحليين اللبنانيين الثقافات - مراهنة طائفة من اللبنانيين على الولايات المتحدة منذ كميل شمعون إلى أمين الجميل . والعلاقة مع الولايات يرى العقلاء أن تكون متوازنة، وينقل عن الرئيس صائب سلام فى هذا الصدد قوله: «إنه من غير الممكن لأى مسئول فى العالم أن يسقط ما تريده واشنطن من حساباته السياسية، ولكن من الصعب جدا الاتكال على واشنطن فى حل المشاكل الصعبة التى تعانىها بلاده» ولعل هذا القول الذى نقله الكاتب اللبنانى باسم الجسر يؤطر صعوبات لبنان السياسية تجاه التسوية المرتقبة.

وقد صك اللبنانيون فى علاقتهم بأمريكا شعارا سموه «الوعود والتخلى» كناية عن الوعود العديدة التى تقدمها واشنطن ثم تتخلى عنها . وتحظى المسألة اللبنانية فى الواقع باهتمام من واشنطن ولكنها فى الشكل تبدو ثانوية وهى حيرة يقف أمامها اللبنانيون بكل اجتهاداتهم موقف التساؤل . ومن المفارقات اللبنانية أن الجبهة اللبنانية الإسرائيلية التى ظلت باردة إبان حروب العرب مع إسرائيل هى التى أصيبت بالسخونة لفترة أطول من أية جبهة أخرى . ويشير اللبنانيون إلى السلام الآتى على أنه شر لا مفر منه، بعضهم يتخوف على دور لبنان الاقتصادى والعربى والعالمى وبعضهم يرى أن

هناك العديد من عناصر الدور اللبناني لا تستطيع دولة أخرى أن تأخذها منه، ومتى ما استقر السلام فإن لبنان مرشح إلى أن يعود لدور أفضل على الإطلاق من أى دور لعبه فى الماضى. تجربة بعض الدول العربية حتى فى السلام مع إسرائيل لا تشجع الكثيرين على توقع نمو اقتصادى خارق للعادة أو حتى معقول. فالدول العربية التى وقعت السلام لم تستفد - حتى اللحظة - بأداء دور اقتصادى عالمى، ولن يكون لبنان استثناء من ذلك إنما يراهن البعض على أن ديناميكية اللبنانيين أنفسهم وموقع بلادهم وطبيعتها قد تجعل من لبنان - إن صح العزم - أفضل مكان اقتصادى يستفيد من السلام إلا أن النقاش دائر بين الموافق المعارض والمنتظر.

وتبقى قضيتان هما: التطبيع والتوطين، والأولى أكثر سخونة من الثانية. وهناك تيار واسع لأسباب متعددة يرفض التطبيع مع إسرائيل، أما التوطين فإنه هاجس الدوائر المسئولة ولكنه ليس مطروحا للنقاش بنفس الدرجة من الحدة على الساحتين الفكرية والإعلامية.

دروس العرب من تجربة لبنان

فى لقاء تأخر طويلا مع الكاتب والمفكر اللبناني معن بشور دار الحديث حول تجربة لبنان والدروس العربية فيها قال لى: «لقد عدت توأ من زيارة قصيرة الى الرياض لحضور

مهرجان الجنادرية الثقافي السنوى، وقد كانت هذه زيارتى الأولى.

يضيف معن: إننى على قناعة الآن أن أفضل أنواع التغيير هو التغيير البطيء لأنه ثابت ومستقر، ولقد نادينا نحن المصلحين بل كل «الثوريين» العرب بالتغيير السريع فى الخمسينات والستينيات فلم نحصد سوى الريح. ولقد كانت نتائج الحرب الأهلية اللبنانية خير دليل يؤكد أهمية التغيير البطيء المركب.

وعندما نعود لنستخلص دروسا عربية من المأساة اللبنانية فأننا نجد أن لبنان لم يكن أكثر من مختبر لإنتاج جراثيم التمزق الطائفى المذهبى ولتصديرها إلى الجسم العربى، ولم يكن هذا الجسم فى بعض أجزائه محصنا فأنقلت شيطان (الحرب الأهلية) البشع فى أنحاء متعددة من هذا الجسم، بأسماء وشعارات مختلفة ولكن بنفس الآلية، وبنفس الأسباب. وإن كان ثمة دروس نستقيها من تجربة لبنان الدامية فهى سبعة:

الأول: احترام التنوع وحق الآخر فى القول والتعبير فى إطار الواحد، فالتنوع موجود فى كل بلادنا العربية ويمكن أن يكون مصدر إثراء وانفتاح حضارى إن تمت صياغته بشكل ديمقراطى سليم لأن تجاهل هذا التنوع ومحاولة إلغائه أو

القفز عليه يقود حتماً إلى حرب أهلية تبدأ كلامية ثم تنتهي بالسلاح.

الثاني: موازنه العلاقات بين الداخل والخارج لقد كشفت الحرب الأهلية خطأ تصور الأوضاع اللبنانية بعيداً عن محيطها وخروجاً عن علاقات متوازنة مع دول الجوار.

الثالث: لقد أظهرت تجربة لبنان بشكل قطعي وواضح أن لا رابع في الحرب الأهلية، فكل الأطراف خاسرة والخاسر الأكبر هو الوطن. بل أظهرت الحرب أنها تبدأ بصراع بين متناقضين وتنتهي بصراع أكثر شراسة بين متنافسين من الجماعة الواحدة، فهي تلتهم نفسها بنفسها.

الرابع: لا يوجد شيء اسمه حسم عسكري في معالجة الحروب الداخلية فالحسم وإن تم فهو مؤقت لأنه يبذر في التربة الوطنية بذور حرب أخرى.

الخامس: لقد أظهرت الحرب اللبنانية أن الحروب الأهلية هي صراع على الهوية، وكشفت بعمق أن الحروب الأهلية تبدأ في ميادين الثقافة والتربية والإعلام قبل أن تبدأ في الميدان العسكري. إن المتاريس الثقافية والتربوية والإعلامية توضع قبل المتاريس العسكرية، وثقافة الفتنة تولد قبل أن تولد الفتنة ذاتها. فالرؤية الأحادية للهوية كثيراً ما تنطلق من جهل لتقود إلى جهل أشنع.

السادس: الحروب الأهلية تولد ألياتها، فقد توقع الجميع أن تنتهى حرب لبنان الأهلية بعد عام أو عامين ولكنها امتدت إلى سبعة عشر عاما وأصبح استمرار هذه الحرب مع الوقت هو الثابت الوحيد، فإشعال حرب أهلية قد يكون سهلا نسبيا أما وقفها فإنه شبه مستحيل.

السابع: الدولة القطرية العربية تحتاج إلى تعزيز واحترام من داخلها ومن خارجها، فالتوازن بين الدولة والمجتمع مع الجوار يعزز التعاون دون تعال أو أطماع تلك هي دروس الحرب اللبنانية. وما علينا حتى نستفيد منها فى أقطارنا العربية إلا المرور على لبنان، قبل أن تندمل جراح هذه الحرب. لعل هذا الجرح الذى نزف طويلا يفيدنا فى تطبيب عشرات الجروح العربية التى تفرحت .

١٧

المعلوماتية

العربية

ننظر من حولنا فنرى أننا نعيش عصر المعلوماتية، لقد وصفت عصور تاريخية للإنسانية بأوصاف مختلفة كعصر الحديد أو عصر البخار أو حتى عصر الذرة، ولكننا نعيش فى ربع القرن الأخير على الأقل عصرا عالميا جديدا هو عصر المعلومات.

والمعلومات هى العلم بالشئ أو معرفته، إلا أن الاستفادة من هذه المعرفة وتطويرها للارتقاء بالحياة، هى نتيجة تسبقها خطوات أخرى أهم وأعظم هى تنظيم المعلومات، وللأخيرة طرق ومناهج ومؤسسات لا يمكن الاستغناء عنها أو تخطيها إن أردنا أن نصل إلى النتائج المرجوة من استخدام المعلومات.

لقد توصلت الإنسانية بعد شقاق طويل إلى حقيقة أن ما تستطيع أن تحققه بالقوة تستطيع أن تحقق أفضل منه بالمعرفة.

ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين نتحقق هذه المقولة أكثر وأكثر، خذ بلدين على سبيل المثال هما ألمانيا واليابان اللذان خاضا حربا شعواء، كان هدفهما أن يحكما العالم بالقوة وفشلت القوة فى تحقيق هذا المشروع الضخم، وبالمعرفة والعلم والصناعة والاقتصاد يكاد هذان البلدان أن يتحكما - إن أردنا ألا نستخدم تعبير يحكمان - فى العالم، فهذا هو المارك الألماني يضرب أخواته من عملات النقد

الأوروبي فيقرر هو لا غيره مستوى أسعارها، وكذلك الين الياباني ومن خلفه الصناعة والمعرفة اليابانية.

وتحقق المعرفة من جديد اتحاد أوروبا الغربية دون دماء وبلا مقابل في الوقت الذي فشلت فيه في عصر آخر كل وسائل القوة في تحقيق ذلك. المعرفة هنا قادت إلى تحديد المصالح المشتركة، والمصالح المشتركة قادت إلى شيء من الوحدة، أو هي في طريقها الأكيد إلى ذلك

وتتعدد الأمثلة على مساحة الأرض المعروفة، ويستبدل العالم المتحضر بالسلاح الحوار معتمدا على المعرفة والمعلومات. المعرفة قادت مجتمعات أخرى إلى استصلاح أراض لم تكن صالحة للزراعة فزرعتها وأطعمت أفواها جائعة، والمعرفة استنبطت أدوية لأمراض مستعصية فوضعتها في طريق الشفاء، بل إن المعرفة خلصت الإنسانية من أنواع من الأمراض كانت تحصد البشر فلا تبقى ولا تذر.

المعرفة في الغرب

المعرفة في الغرب عملية منظمة زادت بها المنتجات الحديثة تنظيما وسهولة في الحفظ والاسترجاع، فلا يوجد كتاب أو كتيب أو نشرة تصدر في بلد غربي إلا وكان لها رقم مسلسل ومكان تحفظ فيه في المكتبة ومرجع سنوي تظهر فيه مصنفة حسب موضوعها، وتتعدد هذه الموضوعات حتى تصل إلى أصغر موضوع.

وعندما يريد الباحث أن يرجع إلى معلومات ظهرت فى أى من هذه المطبوعات يستطيع أن يرجع إليها بسهولة ويسر، وكذلك ما تصدره الصحف والمجلات على كثرتها وتشعب تخصصاتها. وفى إطار المعلومات المسموعة والمرئية نجد التنظيم الدقيق نفسه، فإن احتجت أنت إلى صورة معينة لمعركة حربية أو تعثر رئيس وهو ينزل من على سلم طائرة أو أى لقطة ظهرت فى التلفاز أمامك، فإن الحصول عليها عملية سهلة تبدأ بإرسال خطاب صغير تحدد فيه المعلومة التى تريد وتنتهى بحصولك على هذه المعلومات فى البريد، بعضها مدفوع الثمن وبعضها دون ثمن.

وسهل الإنسان حفظ واسترجاع المعلومة، والتى عندما تتراكم تصبح معرفة، سهلها بوجود الآلات الإلكترونية والتى نسميها الكمبيوتر، فأنت تستطيع أن تخزن عشرات الآلاف من المعلومات فى حيز ضيق وتعيد استرجاعها فى وقت قصير، بل لقد أصبحت صناعة المعلومات هذه (التخزين والاسترجاع) صناعة قائمة بذاتها، فأنت تستطيع أن تحصل على اسطوانة فى حجم الكف محفوظ عليها موسوعة كاملة، وإذا أدخلتها فى الكمبيوتر وطلبت الفهرس وانتقيت منه ما تريد وبمجرد ضغطه واحدة على زر تخرج لك تلك المعلومات التى تريدها جاهزة ومطبوعة وحديثة أيضا.

حتى بدون هذه الأسطوانة صار ممكنا الحصول على هذه

المعلومات سواء كانت نصوصا أو صورا أو رسوما، فعلى سبيل المثال صار باستطاعة سكرتير تحرير مجلة ما أن يضغط على عدة أزرار فتأتيه على شاشة الكمبيوتر الشخصى المتصل بوكالات الأنباء المصورة عبر شبكة الهواتف الرقمية، وخلال ثوان قليلة، صور عديدة للموضوع الذى يريد نشره، وما عليه إلا أن يفاضل بينها ليختار ما يناسب العدد المراد إخراجه، كل ذلك دون أن يغادر سكرتير التحرير مقعده، حتى ربة المنزل صار بإمكانها أن تحصل على ما تريده من معلومات دون أن تغادر عتبة بيتها، فثمة جهاز يتيح الحصول فى المنزل على إجابات لأسئلة يتم إلقاؤها تليفونيا فتأتى الردود على شكل نصوص مكتوبة مرسلة من بنوك المعلومات، وتبث بواسطة الألياف البصرية لتظهر على شاشة التليفزيون التقليدية بالمنزل.

ديمقراطية المعرفة فى الغرب

وإذا كانت السمة السياسية البارزة للمجتمعات الغربية هى الديمقراطية التى تتجلى بأوضح معانيها فى الاستجابة لضرورات الاختيار وموجبات المشاركة، فإن المعرفة فى الغرب تأخذ هذا الطابع أيضا، فثورة المعلومات التى قامت على قاعدة استخدام أجهزة الكمبيوتر ارتبطت بتقنية نقل المعلومات منذ تفجراتها الأولى. وإذا كان عام ١٩٤٠ يسجل لاكتشاف «السيبرنطيقا» بواسطة العالم الأمريكى «توربير فيز» وهى علم

دراسة ميكانيكيات الاتصال والسيطرة ليس فقط بالنسبة للآلات وإنما أيضا بالنسبة للمجتمعات الإنسانية. وإذا كانت «السيبرنطيقا» هي المدخل إلى نظم تقنية المعلومات أى علم المعالجة العقلانية - بآلة أوتوماتيكية - خصوصا للمعلومات التى تعتبر دعامة للمعارف، ومن ثم فهى تتعلق بعملية تشغيل الآلات الحاسبة ومجموعة المعالجات التى ترتبط بها، فإنه فى ذلك العام نفسه ١٩٤٠ تحققت أول تجربة لنقل المعلومات من كمبيوتر إلى مكان بعيد، فقد نجحت معامل «بيل» العلمية فى هذا النقل من كمبيوتر فى نيويورك إلى نهاية مركبة فى كلية «دار تموث» فى «نيوهامبشير». وكانت هذه هى الخطوة الأولى لنجاح الاستغلال الأتوماتى لأنظمة نقل المعلومات التى تستخدم شبكات المواصلات السلكية واللاسلكية، والتى تجعل من المعرفة حقلا متاحا للنهل منه تبعا لتنظيم دقيق يشبه الأنظمة الديمقراطية التى ترعرع فى بيئتها هذا الشكل المعرفى.

ومع التطور الهائل الذى يلحق بنظم الاتصال متمثلة فى الهاتف سواء كان السلكى أو اللاسلكى صارت قنوات تبادل المعلومات مفتوحة على مصاريعها متمثلة فى نقل المعلومات المخزنة فى قاعدة مركزية وعرضها على الشاشات الطرفية، وهى ما يعرف بالمعطيات المنظورة View Data، كما أن نقل المعلومات من كمبيوتر إلى كمبيوتر صار ميسورا عبر أجهزة

«المودم» Modem التى تحول العلامات الرقمية المخزنة فى كمبيوترها إلى شكل يمكن نقله بالهاتف (السلكى أو اللاسلكى) إلى كمبيوتر آخر يتحول عنده هذا الشكل إلى علامات رقمية من جديد تخزنها ذاكرة الكمبيوتر المنقول إليه المعلومات وتعرضها شاشته.

والمعرفة عندنا

بيت القصيد أن المعرفة عندنا متأخرة وغير منظمة، والأسوأ من ذلك أن ليس لها بين اهتماماتنا أولوية، فهى آخر ما نهتم به بعد أن نتحدث عن السياسة والاجتماع والبيئة والاقتصاد، قد نتحدث عن المعرفة وقد نتجاهلها، وليس لأنها غير ذات بال، بل لجهلنا العظيم بأهميتها خذ مثلاً: كم من الكتب تصدر فى العام فى بلادنا العربية فى المغرب وتونس والجزائر ومصر وليبيا واليمن والمملكة العربية السعودية وكل البلاد العربية ؟ هل هى بالآلاف أم بعشرات الآلاف؟، لا أحد يعرف على وجه الدقة، ليس عددها فقط ولكن حتى موضوعاتها، أما الأسوأ من ذلك فهو أن البحوث العلمية والأدبية وحتى مشروعات بحوث الدكتوراه لا يعرف جامعى فى بلد عربى ما تقدم به جامعى فى بلد عربى آخر فى نفس الموضوع . بل أتجاوز ذلك فأقول ما لا تعرفه جامعة عن بحوث جامعة أخرى فى نفس البلد .

ومن المفارقات الغريبة أن طبيباً عربياً يريد تسجيل موضوع

لدراسة الدكتوراه على سبيل المثال، يمكنه أن يعرف أين، ومتى وأى الجوانب من موضوع بحثه تم تسجيله فى كليات الطب الغربية حتى عشر سنوات مضت، كل ذلك خلال دقائق يلقم فيها جهاز كمبيوتر متصلا بشبكة معلومات طبية فى الغرب برؤوس عناوين قليلة تلخص اتجاه بحثه، أما إذا أراد هذا الطبيب نفسه الوقوف على ما تم تسجيله من بحوث فى موضوع دراسته فى كليات الطب ببلده فى سنتين مضتا - فقط - فإنه سينفق شهورا فى مطالعة أضاير الأرشيف وتقليب عناوين صفوف الرسائل المكسدة فى المخازن.

وليسمح لى القارىء أن أشاركه فى قصة مثيرة للعجب، منذ فترة وقع فى يدى نص لأطروحة دكتوراه فى إحدى الجامعات العربية وكان موضوعها «مجلة العربى»، وعندما قرأت تلك الأطروحة تبين لى إخفاق الباحث فى بعض المعلومات الأساسية وقد حصل على الدكتوراه بالطبع، ولم يكن استكمال تلك المعلومات يحتاج إلى سفر أو مشقة أو بحث فى مناطق بعيدة، كان يكفى فقط خطاب محول من الباحث يظهر فيه قصده والمعلومات التى يحتاجها ويرسله فى البريد العادى إلى إدارة مجلة العربى، وكان بذلك قد يصل إلى معلومات أدق وأشمل يعتمد عليها باحثون آخرون بدلا من أن يأتى بحثه مفضوحا وفى بعض الفقرات مشوها

ضربت المثال السابق حتى أدلل على أن القضية فى جزء

منها اتباع منهج والتعود على مستوى تفكير، دون إنكار بالطبع أن القضية فى جزء منها هى تمويل وإقامة مؤسسات. نعتنى نحن العرب بالكتاب ونعتنى به على أنه خير جليس ويحتفظ بعضنا بأمهات الكتب - على مستوى الدولة والأفراد - ولكن ذلك التغنى هو ديكور لا أكثر، فالباحث العربى عندما يعن له البحث فى موضوع ويكون جادا فيه، فإنه يرجع إلى الكتب الصادرة فى الغرب والبحوث التى تمت هناك، وقد يكون الموضوع ذا صلة وخصوصية بوطن عربى وبموضوع عربى، وقد يكون كتب فيه عرب آخرون وتأتى الاستعانة بمعلومات المصدر الغربى تعويضا حضاريا لمن يتناول الموضوع على أساس أن مصدر المعرفة الحديثة هو الغرب.

وتزخر الكتب الأكاديمية باستشهادات فى مقدماتها بما قاله فلان الأجنبى عن الموضوع، ولو بحثنا فى كتب بعض كتابنا العرب لوجدناها أكثر عمقا مما يحصل عليه المستشهدون من الغرب، ولا أريد أن أدفع بهذه المناقشة إلى شكلها السلبى بمعنى أن كل ما جاء من الغرب هو غث غير سمين، ولكن ما أريد الإشارة إليه هو نقص فى تبادل المعرفة بيننا كعرب وعلى أرفع مستوياتها، وهم النخبة المثقفة.

وتجرى اليوم حركة تأصيل ثقافية فى أجزاء من الوطن العربى بمعنى إمعان النظر فى المهم والعاجل من قضاياها ومشكلاتنا - إلا أن نقص الحصول على المعلومات - أو قل

معظمها - يشكل عائقا حقيقيا لنمو المعرفة فى أى فرع من فروعها العديدة، فلا أبحاثنا الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية فى العلوم الحية والتطبيقية واجدة لها مسارات وقدرات للاستقبال الأفقى بين العربى والعربى، أو متوافرة لقارئ العربى، وقد يجد بعضها استقبالا رأسيا إلى لغة أجنبية - فى الغالب الإنجليزية وإلى حد أقل الفرنسية - ثم تعود إلينا من جديد وهى لابسة حلة قشبية، وكم من نقاد فى المشرق العربى عرفوا بكاتب من المغرب العربى الكبير نتيجة كتابته بالفرنسية لكتاب أو بحث علمى أو رواية أو قصة، ونحتفل بذلك الكاتب احتفالا يليق به، وكم من الكتاب والمؤلفين فى بلد عربى ذهبت إبداعاتهم دون أن يشير إليها أحد، وطويت فى صفحات النسيان. والعكس صحيح فكم من موضوع مشرقى كتبه أحد الكتاب من خارج البلاد العربية احتفلنا به وجعله البعض المرجع الرئيسى فى موضوعه.

أسباب ذلك بالطبع مركبة، فهى من جانب نقص فى الثقة بالإنتاج الفكرى العربى، ومن جانب آخر عدم وصول المعلومات بشكل كاف وواضح. ويواكب ذلك كله التقصير فى استخدام الأجهزة الحديثة والمتطورة لمواكبة تدفق واتساع المعرفة فى العالم وفى البلاد العربية وحسن تبادلها.

وإن تحدثنا عن المؤسسات التى يناط بها تبادل المعرفة - دعك من إنتاجها - فإننا نتلفت حولنا فلا نجد تلك المؤسسات

التي تأخذ على عاتقها ذلك التبادل

وحديث تبادل المعرفة هذا ينطوى على مفارقات ذات شجون، ومن أمثلته التي تسطع في الذاكرة أن بلدا عربياً هزه زلزال قريب، اكتشف أهله أن منطقة إسكان جديدة جرى إقامة عمائرهما على فالق من الفوالق الأرضية التي تسهل زلزلتها، والسبب أن البناء لم يتبادلوا المعارف مع أهل الجيولوجيا في هذا البلد ومثال آخر في بلد عربي به مركز متقدم لتحليل الصور الفضائية (الاستشعار عن بعد) أقيم في صحرائه طريق لا يكمل عاما حتى تقصم ظهره السيول فيعاد تعميره سنويا، والسبب أن من شقوا الطريق لم يأخذوا رأي هذا المركز الذي لو سألوه لنصحهم بشق الطريق في مكان آخر بعيدا عن مجرى السيول الذي تكشفه بوضوح الصور الفضائية لمركز الاستشعار عن بعد.

وحتى معارض الكتب التي بدأت في الظهور منذ بضعة عقود هنا وهناك في عواصمنا أخذت الشكل دون المعنى، والمظهر دون المخبر، فقد تحولت في معظمها إلى مهرجانات يعتنى بكل شيء ترفيهي فيها إلا الكتاب، وأصبحت أسواق بيع كتب بدلا من الفكرة الرائدة لها وهي توفير الكتاب، وبالتالي المعلومة لمن يريد لها.

تذهب إلى معرض كتاب من تلك المعارض فتسمع الضجيج بالأغاني السيارة والزحام على بيع منتجات أخرى غير الكتب،

ويتحول الأمر كله إلى سوق شرقي يعلو ضجيجُه وتقل
فائدته

من الحواضر الإسلامية إلى أقيية الكنائس

لقد فطن أجدادنا - غفر الله لهم ولنا - إلى أهمية تصنيف
المعلومات وجمعها، ولعل كتاب «الفهرست» لابن النديم يوضح
البذور الأولى لعلم الببلوجرافيا الحديث أو ما يطلق عليه علم
ترتيب المكتبات. ويكشف هذا الكتاب عن عمق المأساة التي
لحقت بثمار العقل العربي، فمعظم المؤلفات والتصنيفات التي
يتحدث عنها ابن النديم لم تعد موجودة، ذهبت ضحية سنوات
الاندحار والهزائم المتوالية، تحولت الكتب إلى جسور يعبر
عليها الغزاة، وإلى وقود لنيران الفتنة بين أتباع المذاهب
المختلفة، وإلى ضحية تتسلط عليها أهواء الحكام فتطمس
سطورها وتمزق أوراقها، تراث زاخر تعرض للاغتيال أكثر
من مرة على أكثر من يد، آخرها عندما تدفأ جنود الغزو
العراقي على أحدث الكتب في مكتبات الكويت!!

ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على هذا التراث العربي الضائع
حتى نصاب بالأسى والحزن، ففي بغداد كانت هناك مكتبة
«بيت الحكمة» التي أنشأها الرشيد ونماها المؤمن وبلغ
مجموع ما فيها من مخطوطات مائتين وخمسين ألف مجلد،
وكانت تضم جيشاً من المترجمين والنساخ والوراقين. كذلك
كانت هناك «دار المعرفة» في مصر، تلك التي تحدث عنها ابن

خلدون، أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي وأوقف عليها أوقافا كبيرة، وقد ضمت مائة ألف مجلد فى العلوم الدخيلة، أى غير الدينية، وحدها، كما اشتملت على أدوات القياس والفلك وخرائط العالم كما رسمها بطليموس. وكذلك الأمر فى «دار الكتب» التى أنشأها الحاكم بن الناصر فى قرطبة وكانت تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد. وقد حاول أحد ملوك فرنسا بعد ذلك بأربعمائة عام وهو الملك العالم «شارل الخامس» أن يكون أول مكتبة وطنية فرنسية ولم يستطع على مدى سنوات طويلة أن يجمع أكثر من ألف مجلد.

ولم تكن المكتبة بالنسبة للعقل العربى مجرد حلية ترفيحية، ولكنها كانت جزءا من طبيعة النشاط العقلى الجارف الذى صاحب صعود هذه الحضارة. ويقدر انتشار المكتبات الجماعية انتشرت المكتبات الفردية. وتقول إحدى الروايات أن سلطان بخارى استدعى إلى بلاطه طبيبا عربيا فاعتذر الأخير بحجة أن كتبه تحتاج فى نقلها إلى أربعمائة جمل، وكان الصاحب بن عباد يفخر بأن كتبه تملأ ستمائة صندوق.

ولكن هذه المكتبات تعرضت لنفس النكسات التى تعرضت لها الحواضر العربية والإسلامية، تحول رفاتها إلى مرثية طويلة تبكى هذه الحضارة الغازية.

وفى الوقت الذى بدأت فيه النهضة الأوروبية ووجدت أقبية الكنائس والأديرة محتشدة بكل التراث العقلى محفوظا

ومرتبا، لم يجد التراث العربى اليتيم أهلا يحفظونه، ففى الرواية الشهيرة التى كتبها عالم الإنسانيات الإيطالى «امبرتو ايكو» تحت عنوان «اسم الورد» والتى تحولت بعد ذلك إلى فيلم مشهور عن أحوال الكنائس والأديرة فى القرون الوسطى، يصف المكتبات المحفوظة بداخلها وكيف أنها تحتوى على نفائس التراث العربى وعلى رأسها كتاب «الجبر» للخوارزمى. لقد أخذت كل هذه المخطوطات وحفظت وفهرست وخبئت إلى أن تحين فرصة الاستفادة منها

قامت الكنائس الغربية هنا بدور مزدوج، ففى الوقت الذى كانت تحشد فيه كل قوتها وعنفوانها من أجل خروج الحملات الصليبية «لتخليص الأراضى المقدسة من المسلمين الكفار» كانت تجمع تراثهم العقلى والروحى، كانت تريد القضاء المبرم على الجانب المادى من هذه الحضارة، وتريد الاحتفاظ بالجانب العقلى منها. اختيار يحكمه منطق صارم ربما لايزال يحكم الحضارة الغربية حتى الآن.

وهكذا نرى أن الكنيسة كانت متعصبة حقا، ولكنها لم تكن عمياء، ولعل هذا الاتجاه يقدم إجابة لكل الذين يرفضون مظاهر الحياة الغربية المادية بما فيها من تحلل، ويقفون حائرين أمام مظاهر نشاطها العقلى والحضارى بما فيه من ازدهار.

هل يمكن أن ندرك أن هذا النشاط العقلى يجب ألا يخضع

لعوامل التعصب أو النظرة الضيقة؟

يجب أن نعترف بذلك، فالاعتراف هو الذى سوف يخلصنا من غرور الجهل ويقودنا إلى تواضع الرغبة فى التعلم والمعرفة، فالإصرار على الجهل هو نوع من الضلالة. وقدima قالوا «من قال لا أدري فقد أفتى» ولا يعنى هذا الاعتزاز بالجهل بقدر ما يعنى التحذير من مغبة التضليل، فالاعتراف بعدم المعرفة يمكن أن يمثل عنصرا إيجابيا بدلا من الافتقار إلى أمور يمكن أن يؤدى الجهل بتفصيلاتها إلى كارثة جديدة. ولأن المعرفة مطلب عقلى إنسانى فهى ليست إلا وسيلة جيدة تعرفنا بمدى اتساع دائرة ما نجهل، كما يعرف إسحاق نيوتن العلم.

المعلومة والمعرفة

كثير منا لا يفرق بين المعلومة والمعرفة التى تتحول إلى سياسة بمعنى اتخاذ القرارات، والذى قلنا فى صدر هذا الحديث إنه يفرض القوة.

المعلومة قد تكون صحيحة وقد لا تكون، ولا تنتج المعرفة من المعلومة فقط، وإنما تنتج من عملية تراكم المعلومات ومقارنتها ببعضها وتدقيقها، من هاتين العمليتين تنتج المعرفة، وإن حصولنا على معرفة دقيقة فى موضوع ما يقودنا بسلامة أكثر إلى تبني سياسة واتخاذ قرارات تصب فى نهايتها لتحقيق الصالح العام.

هذه العملية من معلومة إلى معرفة إلى سياسة يمكن أن تطبق فى أى مجال سواء كان مجالا اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو علما تطبيقيا، ويختصرها البعض فى الحديث عن مجالات البحث والتطوير ويرمز لها بالإنجليزية بالحرفين R.D بمعنى Research & Development.

وقد تجاوزت هذه الفكرة الكثير من الأيديولوجيات القطاعية والتي تخضع لتصور مسبق لما يجب أن تكون عليه حلول المشكلات التى تواجه الإنسان، فالبحث هو ما اصطلاحنا عليه بأنه مقارنة المعلومات وتدقيقها (المعرفة) وإن عرفنا حلولاً لمشكلات تواجهنا استطعنا تطوير مسئولياتها لتحقيق الصالح العام أو ما نرغب فيه، وأساس كل ذلك المعلومة المنظمة والدقيقة، ومادام هناك شبه اتفاق أن المعلومة فى بلادنا غير دقيقة ولا منظمة فى مؤسسات فبالثالى يصعب مقارنتها وتدقيقها والخروج منها بنتائج بحثية تقودنا إلى التطور.

وليس سرا اليوم أن البلاد الأخرى تقيس مستواها فى التطور والتقدم بحجم إنفاقها من ميزانياتها العامة على البحث والتطوير. وتذهب الشركات الكبرى والمؤسسات الخاصة مذهب المجتمع والدولة فى ذلك، فكلما كانت الشركة أو المصنع قد صرف جزءا كبيرا من ميزانيته على البحث والتطوير، تقدم إنتاجه واستطاع المنافسة فى السوق. وما هذا

الزخم من التطور التقنى إلا نتيجة البحوث والتطوير، وما هذا التقدم فى المجال الطبى إلا نتيجة ذلك أيضا. وكان قد أعلن فى بريطانيا وأنا أكتب لك هذا الحديث - عزيزى القارىء - عن اكتشاف (الجينات) التى تسبب مرض باركسون (الارتعاش اللاإرادى) بعد بحوث استمرت عشر سنوات. ويستطيع أى إنسان اليوم أن يعرف على وجه كبير من الدقة ما إذا كان سوف يصاب بهذا المرض فى المستقبل ويكون انتقاله إلى الآخرة بسببه بطريقة بسيطة وهو كشف بسيط على الجينات عن طريق عينة من الدم.

لم يصل العلم إلى ما وصل إليه اليوم دون البحث والتطوير، ولم يصل إلا بعد أن نظم المعلومات، وقد يكون مفاجئا لبعض القراء أن العالم الإنجليزى المشهور والمقعد «ستيفن هوكنج» والذى نشر الكتاب الأكثر مبيعا فى العالم فى السنوات الخمس الأخيرة وهو بعنوان «موجز تاريخ الزمان من الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء» وترجم إلى أكثر من عشر لغات حتى الآن من بينها العربية، قد يكون مفاجئا أن يقول فى مقابلة تلفزيونية أجريت معه فى العام الماضى إن العالم سوف يكتشف كل أسرار الكون فى الخمس عشرة سنة القادمة، ولن يبقى بعدها شىء لم يكتشف، قد تكون مبالغة من عالم ولكنها مبالغة العارف ببواطن الأمور والمطلع على البحوث الجديدة.

المعلومات وسرعة تراكمها

إننا نعيش فى عصر تتفجر فيه المعرفة وتتراكم فيه المعلومات بوتيرة متلاحقة. وعلى سبيل المثال فقد تضاعفت المعلومات فى الفترة من ١٨٥٠ إلى ١٩٢٥ إلى ١٩٥٠ - أى على مدى ٢٥ عاما - مرة ثانية. تضاعلت هذه المدة إلى ٢٠ عاما فقط فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن فقد تضاعفت بينما تتناقص الفترات الزمنية وهكذا نجد أن طرق الحفظ فى المكتبات التقليدية لم تعد كافية، والمكتبة التى كانت تضم آلاف الكتب أصبحت تضم الملايين منها. وفى الوقت نفسه فإن طرق الحفظ غير التقليدية مثل أجهزة الكمبيوتر هى التى تساهم أيضا فى تضاعف المعلومات، وبذلك فإن سيل المعلومات لن يكف عن التدفق فى مستقبل السنوات القادمة.

لقد انتهى الاعتقاد الذى كان سائدا بأن معرفة القراءة والكتابة تكفى حتى يكون الإنسان متعلما، كذلك لم يعد كافيا أن يكون الشخص على درجة معقولة من فهم اللغة حتى يستطيع استخدامها كوسيلة اتصال بينه وبين الآخرين، ولكن المختصين يؤكدون الآن على وجوب ما يسمى بـ «المعرفة الوظيفية» وهو اصطلاح يصف بعض المهارات ذات المستوى الرفيع التى تؤهل الفرد للتعامل مع آلية الكمبيوتر، كيف يقوم بتشغيله أو برمجته، وكذلك كيفية التعامل مع أرقامه وبياناته،

كما يتضمن أيضا الدوافع والاستعداد للتعامل مع هذه الآلة وتنمية هذه المعرفة الوظيفية يجب أن تبدأ فى نفوس الأطفال مع سنوات التعلم الأولى، لأن تدريب الأطفال على استخدام هذه الآلات الإلكترونية يعطيهم الثقة فى أنفسهم ويعزز من قدراتهم النفسية والعقلية معا.

ولا يتوقف الأمر على هذا النحو المطرد فى المعلومات، ولكن هذا النمو يأتى وسط عالم قلق ملىء بالمتغيرات، فهناك متغيرات مستمرة فى عالم الاقتصاد والتجارة، ومخاوف من تناقص الطاقة، ومتغيرات مفاجئة فى الأبنية والنظم السياسية. كذلك هناك اختلال فى المفاهيم والأنماط الثقافية والاجتماعية، ويجب أن تمتلك المؤسسات الوسائل التى تتيح لها القدرة على التنبؤ بتأثير كل هذه المتغيرات. وبطبيعة الحال فإن تخزين معلومات وبكل هذا الكم من المتغيرات يحتاج إلى بحوث مضمينة فى البحث والتطوير وتوفير الوقت المناسب لتعديل البرامج العلمية فى ضوء الاحتياجات المستقبلية. وهكذا نرى أن معظم المؤسسات التى تفشل فى استمرارية استخدام الكمبيوتر إنما تفتقر بالدرجة الأولى إلى التخطيط للمستقبل. ولعل العبء الأكبر فى التخطيط لهذا المستقبل يقع على الجامعات العربية، فهى المؤسسات الوحيدة القادرة على إعداد خريجين يمكنهم أن يتفهموا أبعاد هذه التقنية الحديثة والطرق المختلفة لتطبيقها. كما أن تزويدها الطلاب بكل هذه

المعلومات المطلوبة يساعدهم على التعامل مع الثورة القادمة
فى عالم الكمبيوتر، وهى التى يطلق ليها ثورة «الصفائح
المصغرة» أى الكمبيوتر البالغ الصغر.

أين نحن من كل ذلك ؟

فاتنا عصر البخار، وفاتنا عصر الذرة، فهل يفوتنا أيضا
عصر المعلومات؟ الأقرب - واغفروا لى هذا التشاؤم - أنه قد
فاتنا الكثير منه، وإذا كانت الأمثلة تدلل على ذلك، فلنضرب
الأمثلة، فمعظم أمم الأرض لديها اليوم موسوعة، وأشهر هذه
الموسوعات الموسوعة البريطانية والموسوعة الأمريكية. ونحن
رغم ما توافر لدينا من مال وما لدينا من عقول وعديد من
الجامعات ومؤسسات البحث العلمى، فإن الموسوعة العربية
الشاملة لم تر النور بعد. لدينا موسوعات موجزة ومحدودة
قامت على إنجازها مؤسسة خاصة ولكنها موجزة فقط، وظل
مشروع الموسوعة حبيس أضاير البيروقراطية والعصبيات
السياسية فى المنظمة العربية للثقافة والفنون (اليكسو) التابعة
للجامعة العربية. يوجد فى الغرب مؤسسات متكاملة بعضها
متخصص فى المشكلات التى تواجهنا وتدرس مجتمعاتنا
وليس لدينا مؤسسات ندرس نحن من خلالها مجتمعاتنا.
مازلنا نعتمد فى اتخاذ قراراتنا على ما يتوفر لدينا فى التو
واللحظة من معلومات ناقصة.

واكتشف بعضنا أهمية المعلومات فبدأ فى مراكمتها،
واهتمت بعض أجهزتنا بتكديس المعلومات وكأن الهدف
الأساسى هو التكديس، فتراكمت معلومات صحيحة وأخرى
خاطئة قادت بعضنا فى الغالب إلى اتخاذ قرارات عشوائية
مميّنة، ولم ينتبه أحد إلى أن تكديس المعلومات دون تدقيقها
وغربلتها ومقارنتها أشبه بابتلاع الأكل فوق الأكل بين
الوجبات.. يضر أكثر مما ينفع.



إريتريا من الثورة
إلى الدولة

**مشكلات الماضي
وصعوبات المستقبل**

إريتريا ليست مجرد دولة جديدة، تنهض فى مقدمة القرن الإفريقى المضطرب، ولكنها معضلة، تثير من الأسئلة أكثر مما تطرح من الإجابات. ويأتى الإعلان عن استقلالها فى الرابع والعشرين من مايو الماضى، لي طرح من جديد قضايا الهوية والأمن والتجانس بين الجماعات العرقية، والتعايش بين الأديان، كأنها تعيد طرح كل قضايا العالم الثالث الهاجعة، وتدفع ثمننا غاليا من الكفاح ضد القمع وحرب الإبادة التى مارسها إثيوبيا ضد شعبها على مدى ثلاثين عاما، من أجل أن تظفر أخيرا بعلم ونشيد ومقعد فى الأمم المتحدة.

إذا تأملنا حدودها على الخارطة، فإنها تشبه المطرقة، مطرقة ظلت تضرب عبر ثلاثة عقود رأس إثيوبيا، فأسقطت أولا إمبراطورية الأسد العجوز «هيلا سيلاسى» عام ١٩٧٤، ثم النظام الأحمر للعقيد منجستو هايلي ماريام عام ١٩٩١. ثم لم يجد النظام الإثيوبى الحالى بدا من الاعتراف بحقها فى الاستقلال وحرية تقرير المصير. وما زالت الدولة - المطرقة تضرب رأس الكثير من الأسئلة، عن هوية هذه الدولة: هل ستكون عربية أم لا؟ وعن تأثيرها: هل ستكون الدولة الأقوى أم الأضعف فى القرن الإفريقى؟. وعن استقرارها: هل ستلقى الفصائل المختلفة السلاح وتتجه للبناء أم تبقى على السلاح استعدادا لتصفية الحسابات القديمة؟ وعن توجهاتها: هل

تحول البحر الأحمر إلى بحيرة عربية حقا، أم أنها ستفتح فيه
ثغرة هائلة تتسلل منها إسرائيل فتحول أسطورة الأمن إلى
كابوس من المخاوف؟

جغرافية الدولة الجديدة تقودنا إلى جغرافيا التاريخ،
ومحاولة فك تشابك خيوط القضية الإريترية المعقدة ربما تلقى
الضوء على هذه الأسئلة، ولكن أخشى ما يخشاه المرء أن
الوقت لم يحن بعد لإعطاء إجابات شافية.

ضريبة الموقع

تأخذ إريتريا اسمها من اسم لاتيني قديم اختارته لها روما،
وهو مشتق من اسم إحدى الزهور التي تنمو على شواطئها
الدافئة «ميرا إريثريوم» Mera Erythraeum ويبدو أن
خيالات الإيطاليين الذين احتلوا إثيوبيا والمنطقة المحيطة بها
عام ١٨٨٠ كانت تحاول إعادة تجسيد البعث الجديد
للإمبراطورية الرومانية في قلب إفريقيا السوداء.

لقد دفعت هذه البقعة من الأرض الثمن الذي فرضه عليها
موقعها الاستراتيجي المهم. فقد كانت دائما عرضة للغزوات
الخارجية، والقناحر الداخلي، وطمع الجيران المتواصل في
الاستحواذ عليها. وهي بالنسبة لإثيوبيا كانت منفذها الوحيد
إلى البحر، لذلك فقد اتسم الصراع بينهما بقدر كبير من
الضراوة

تقع إريتريا فى الشمال الشرقى من القارة الإفريقية على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر وهى كما قلنا من قبل على مطرقة مثثة، قاعدتها فى السودان من الشمال والغرب، وإثيوبيا فى الجنوب، وجيبوتى فى الجنوب الغربى. تبلغ مساحتها ١٤٢,٣٢٠ من الكيلومترات المربعة، وتملك ١٢٦ جزيرة تقع فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وتتحكم مباشرة فى باب المندب.

ولا يوجد إحصاء سكانى دقيق لشعب إريتريا، فالأرقام الإيطالية والإنجليزية والإثيوبية متضاربة فى هذا الشأن، ولكنها تعتمد المغالطة والتشويه من أجل أغراضها السياسية غير أن المؤتمر الوطنى الأولى لجبهة التحرير سجل رقما تقريبا هو أربعة ملايين مواطن، ويبدو أن الرقم الحقيقى يتراوح بين ٣ و ٤ ملايين.

وفى هذه البقعة تجمع العديد من الأجناس البشرية، جاءت إليها القبائل النيلية ذات الأصل الحامى، ثم جاء الزنوج من قلب إفريقيا. واكتسبت المنطقة طابعها الخاص عندما هاجرت إليها القبائل العربية فى الفترة من سنة ١٠٠٠ إلى ٧٠٠ قبل الميلاد. لقد تواصلت هذه الهجرات على مدى مئات السنين عبر باب المندب وجزيرة «دهلك» التى لا يفصلها عن الشواطئ اليمنية إلا أميال قليلة.

ولعل أقدم القبائل التي هاجرت إلى إريتريا هي «الأجاز» و«حبشات» اللتان فقدتا ديارهما وأراضيهما بعد انهيار سد مأرب. وقد حملت هذه القبائل إلى إريتريا أولى مقومات الحضارة: المحراث الذي قادهما إلى احتراف الزراعة والأبجدية الحميرية التي فتحت أمامها أبواب اللغة والكتابة. وهكذا نشأت في الهضبة الإريترية مجتمعات زراعية مستقرة مما مهد فيما بعد لظهور مملكة «أكسوم» التي ظهرت في إثيوبيا وامتدت إلى أجزاء من إريتريا . وبطريقة التفاعل نفسها التي تم بها انتقال الأجناس انتقل الدين الإسلامي من أرض الجزيرة ليجد في إريتريا بيئة ثقافية ملائمة لتعاليمه. ولم ينتشر الإسلام عن طريق السيف ولكن عن طريق التجار المسلمين، وانبعثت بسبب ذلك العديد من الإمارات والسلطنات الإسلامية على الساحل، وارتبط أرخبيل «دهلك» و«مصوع» بالخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية من بعدها

من الاستعمار الأوروبى.. إلى الاستعمار الإفريقى

عرفت أوروبا الحديثة طريقها إلى سواحل إريتريا في مستهل القرن السادس عشر. فقد هبطت السفن البرتغالية بقيادة ديجو لوبيز وقضت على الممالك الصغيرة التي صادفتها ثم توغلت داخل البلاد. كان البرتغاليون يريدون موطئ قدم يحاصرون منه باب المندب ويؤمنون التجارة عن

طريق رأس الرجاء الصالح. وظلوا متشبثين بهذا الموقع حتى تقدم الأسطول التركي العثماني ودمر الأسطول البرتغالي في عام ١٥٥٧.

بعد ذلك بثلاثين عاما انتقلت السلطة إلى مصر الخديوية. وظهرت الطرايش الحمراء في ميناء «مصوع» وتقدمت القوات المصرية حتى أحاطت بالعاصمة أسمره فأصيب حاكم الحبشة بالفرع واستنجد بالإنجليز الذين أمدوه بالسلاح والرجال حتى استطاع أن يرد المصريين ويبقيهم على الشواطئ. ثم ما لبثت أن اضطرت القوات المصرية للجلاء الكامل بعد قيام الثورة المهدية في السودان .

دخلت إريتريا بعد ذلك في منطقة النفوذ والصراع بين إنجلترا وفرنسا. ولما كانت الأولى غير راغبة في أن تسبقها فرنسا إلى هذا الساحل فقد شجعت إيطاليا على التقدم. وبدأ الأمر بالصورة الاستعمارية التقليدية نفسها: جاء المبشر الإيطالي سابيتينو يحمل الإنجيل، واشترى قطعة من الأرض يقيم عليها إرساليته، وتحولت قطعة الأرض إلى محطة تستخدمها السفن الإيطالية في ميناء عصب، ثم جاء الجنود كي يحموا المبشر والإنجيل وليلتهموا بقية الأرض.

في عام ١٨٩٠ أصدر ملك إيطاليا مرسوما بتأسيس مستعمرة إريتريا بحدودها الحالية قبل أن تنشأ مملكة إثيوبيا

نفسها التي كانت تتنازعها العديد من الممالك الصغيرة. ونظر الإيطاليون إلى إريتريا باعتبارها المستعمرة النموذجية أو بالأحرى إيطاليا الإفريقية في مقابل إيطاليا الأوروبية. وهكذا نشأت المدن الحديثة بما فيها من بنوك ومستشفيات وطرق، ودخلت السكك الحديدية إلى البلاد عام ١٩٠٩، بل إن أسمرّة العاصمة ضمت داراً للأوبرا ومكتبة عامة والعديد من المطاعم الأوروبية الفاخرة.

ثم جاءت المرحلة الثالثة في حلقة الاستعمار الأوروبي مع نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة إيطاليا أمام جيوش الحلفاء ودخلت إريتريا بذلك في ميراث الإمبراطورية البريطانية العجوز. كانت فترة الاحتلال البريطاني قصيرة نسبياً (١٩٤١ - ١٩٥٢) ولكنها استطاعت أن تحدث فيها تغييرات درامية كبيرة، وضعت فيها بذور ما أصبح يطلق عليه فيما بعد القضية الإريترية التي امتدت آثارها حتى الآن..

لقد أعادت بريطانيا الإمبراطور هيلاسيلاسى إلى عرش إثيوبيا بعد أن كان منفيًا على أيدي الإيطاليين. ثم وضعوا خطة محددة لتقسيم إريتريا بين السودان وإثيوبيا، بدعوى أن الطائفتين الرئيسيتين في البلاد - وهما المسلمون والمسيحيون - لن تستطيعا العيش معاً في دولة مستقلة. وبذلوا محاولات شتى لحمل السكان على قبول هذا المشروع، وإقناع الأمم

المتحدة بأن التقسيم هو الحل المثالى، ولما لم يستطيعوا إثبات ذلك بذلوا جهودهم للشقاق بين الطائفتين. ثم قدموا إريتريا على طبق من ذهب إلى الإمبراطور الحبشى كى يوسع بها حدود مملكته. ومثلما حدث فى فلسطين حين أعطت بريطانيا أرضا لا تملكها إلى من لا يستحقها، فعلت فى إريتريا حين أرغمت الإرادة الوطنية على القبول بالدخول فى اتحاد كونفدرالى مع إثيوبيا فى عام ١٩٥٢ مالبث أن تحول إلى نوع جديد من الاستعمار.. ولكنه استعمار إفريقى هذه المرة

ويعبر الإريتريون عن هذه المراحل الاستعمارية المختلفة فى سخرية مريرة حين يقولون: كان الإيطاليون يقولون لنا : كلوا واشربوا وتكلموا . ثم جاء البريطانيون ليقولوا : كلوا واشربوا ولكن لا تتكلموا. وأخير جاء الإثيوبيون ليقولوا: لا تأكلوا ولا تتكلموا.

ملحمة بحفنة مقاتلين وبضع بنادق

لعل بعض من عاصروا بدايات الستينيات فى مصر يتذكرون تلك الوجوه السمراء الرقيقة لهؤلاء الفتية الذين راحوا يظهرون فى أماكن تجمعات المثقفين. كانوا مجموعة صغيرة حاملة من الطلاب الإريتيريين الدارسين بالقاهرة. تراودهم أمانى أمه تجاهلت مشاعرها كل الأمم، وضاع وضوح حقها فى الاستقلال بين تقاطعات خطوط الصفقات

الدولية، والتوازنات الإقليمية، والأساطير التي تتناسج من جروح قارة منهوبة حتى النخاع.

من هذه الوجوه تكونت الملامح الأولى للمحنة تحرير يكاد من يعرف بداياتها لا يصدق أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من انتصار، باتجاه هدفها الذي حددته من البداية وهو «الاستقلال الوطنى الكامل ووحدة شعب وتراب إريتريا»، وتدشين ميلاد دولة بدأت كفاحها بتنظيم صغير هو «جبهة التحرير الإريترية»، الذى أعلن عن تكوينه فى القاهرة عام ١٩٦٠.

وثمة من يؤرخ لحركة التحرير الإريترية بهذه البداية، لكن الأمر أعمق وأبعد من ذلك. فالمحنة تأخذ تاريخ بدايتها من بدايات المحنة التى بدأت بالزواج الباطل الذى عقد بالإكراه بين إثيوبيا وإريتريا، وباركته الأمم المتحدة، فكأنها باركت استبدال استعمار أبيض جثم على صدر هذا الجزء من القرن الإفريقى لأكثر من نصف قرن، باستعمار آخر له لون البشرة السوداء ذاتها وملامحه تقارب ملامح الإريترين الرقيقة نفسها. فبعد ٥١ عاما من الاحتلال الإيطالى لإريتريا، ومع هزيمة إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية، جاءت بريطانيا لتحل محلها ودخل الأسد البريطانى ملتفا بوشاح الحلفاء المنتصرين ليلتهم ما شاء من لحم الإريترين النحاف. ولعل

الأسد البريطاني اكتفى بوجبة صغيرة ليفسح مجالا للنسر الأمريكي الذي بدأ الانقضاض بعد ارتفاعه في سماء ما بعد الحرب العالمية الثانية. ففي واقع الأمر كان قرار الأمم المتحدة رقم ٣٩٠/١/٥ الصادر في ١٢/٢/١٩٥٠ والذي نص على أن «تصبح إريتريا وحدة سياسية تتمتع بالحكم الذاتي في إطار اتحاد مع إثيوبيا تحت سيادة التاج الإثيوبي»، كان هذا القرار بداية صفقة دولية اكتملت أركانها بمعاهدة بين إثيوبيا والولايات المتحدة وقعت في ٢٢/٥/١٩٥٣ لتستمر ربع قرن ويموجبها تمنح إثيوبيا قواعد عسكرية برية وجوية وبحرية للولايات المتحدة على الأرض الإريترية ثمنا للقرار الدولي سالف الذكر. وثمنا للسكوت على قرار هيلاسيلاسي فيما بعد بضم إريتريا إلى إثيوبيا في ١٥/١١/١٩٦٢، حيث لم تحرك الأمم المتحدة ساكنا، ولم يصنع لشكوى الضحية أحد.

فماذا تتوقع من مظلوم تتجاهله العيون والأسماع غير أن ينتفض ثارا لذاته؟ هذا ما كان، ومن هنا بدأ دوى الرصاصات الأولى الفقيرة لحركة التحرير الإريترية بين ذرى الجبال الصلدة والصعبة في مواجهة الاستعمار الحبشي بداية لا تصدق، وتكاد تثير الشفقة، ولا توحى أبدا بمسار الملحمة وخاتمها المنتصرة. ولعلنا نشير إلى الإرهاصات المبكر قبل أن يأخذ مقاتلو جبهة التحرير الإريترية وضع

الهجوم فى بداية الستينيات. فقد بدأ الهجوم بالدفاع بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥٠ عندما كان الإريتري حامد إدريس عوانى «الذى استشهد فيما بعد» يقود عمليات دفاع إريتريّة تلقائيّة فى مواجهة هجمات العصابات الإثيوبية المسلحة. ثم بدأ الهجوم برصاصات متناثرة لسبعة مقاتلين - نعم سبعة لا غير!! - بقيادة عوانى نفسه. وفى عام ١٩٦٢ اشتد ساعد الحركة بتسعة من ضباط الصف المستقلين من الجيش السودانى وعشر بنادق تم شراؤها بتبرعات بعض العمال الإريتريين العاملين فى المملكة العربية السعودية. وبعد عام واحد صار المقاتلون مائة وصار عدد البنادق ستين بعملية قنص بارعة. إذ تنكر المقاتلون الإريتريون فى هيئة سياح من السودان وباغتوا مركزا سوريا إثيوبيا واستولوا على ٥١ بندقية. ووجدت حركة التحرير الإريتريّة فى نجاح هذه العملية تكتيكا مبتكرا لتزود نفسها بالسلاح، حتى تصير فى غنى عن عالم بدا وكأنه استغنى عنها ونفاها من ذاكرته. فالراصد لخطوط التماس مع المشكلة الإريتريّة يجد كومة من علامات التعجب تتناثر بوفرة عند تقاطعات هذه الخطوط، وتعلق بالدهشة على مواقف الأقارب والأبعد، الجيران وساكنى أقصى أطراف المعمورة!.. عربيا، وإفريقيا ودوليا، لم تنج القضية الإريتريّة من حكم الهوى واعتبارات المصالح الأثانية

والتخطيطات المرتبكة.

لا وضوح عند القرن الإفريقي

رغم أن طبيعة الأرض الإريتيرية تجعل من مناخها ربيعاً دائماً بطول الفصول الأربعة نتيجة لتكونها من هضبة تشرئب فيها مرتفعات لا تقل عن ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، إلا أن هذا الربيع الدائم لم يجد من يقدر صفاءه بصفاء مقابل. فعلى المستوى العربى كان طبيعياً أن تكون السودان بحكم الجوار أول يد تمتد لدعم الثورة الإريتيرية. لكن هذا العون ظل محكوماً بتقلبات الأحوال لموازنة الصراع حول قضية الجنوب فى السودان ذاته. أما مصر فقد أيدت الثورة ثم سحبت تأييدها لصالح فكرة إثيوبيا الموحدة ثم عادت إلى قبول فكرة الحكم الذاتى لدى الإريتيريين. وبشكل عام كان العون العربى - رغم أنه ظل فى كثير من الأحيان العون الوحيد فى قضية لم تجد من يعينها غير ذاتها - كان العون العربى غير محكوم بمنطق علمى، يتخبط فى دائرة ردود الأفعال فى مواجهة الفعل الإسرائيلى، ويخضع لاعتبارات ما يدور بين الدول العربية ذاتها. كما أن هذا العون العربى، نتيجة لغياب المنطق الواضح والإعلام الجيد، ظل مثيراً للريبة وموضوعاً للخلاف داخل حركة التحرير الإريتيرية وحركة التحرر الوطنى الإفريقى، حتى أن الفصيل الذى قاد المرحلة الأخيرة من

الثورة الإريترية - الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا - رأى أن هذا العون العربى موجه لفصل بعينه داخل الحركة وبغية تأكيد التوجهات العروبية والإسلامية لإريتريا فى المستقبل. ربما كانت إسرائيل غير بعيدة عن هذا الخلط، وربما أن الصورة تغيرت بعد أن كان العربى «سمير صنبر» ممثل الأمم المتحدة هو مراقب انتخابات تقرير المصير التى أسفرت عن إعلان استقلال إريتريا. لكن مما لا شك فيه أن غياب الوضوح العربى فى رؤية المسألة الإفريقية يظل المسئول عن كل هذه التخططات.

وعلى المستوى الإفريقى كان عجيبا أن تقف إفريقيا السوداء طويلا فى خندق واحد مع التقسيم الاستعمارى لإفريقيا، ومن ثم إهدار الحق الإريتري فى تقرير المصير بدعوى أن «تمزيق إثيوبيا يتعارض مع فكرة الجامعة الإفريقية» و«توحيد القارة». وكان هذا الموقف البرخيمايى يخفى وراءه تملقا لإثيوبيا - هيلاسيلاسى - التى بدت صاحبة دور رائد فى إفريقيا، بتبنيها لمنظمة الوحدة الإفريقية وجعل أديس أبابا مقرا لها، ولعارضتها سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا، والوقوف فى وجه التجارب النووية الفرنسية فى الصحراء الإفريقية. أما منجستو الذى خلف هيلاسيلاسى فإنه حصل على نتائج مشابهة برفعه لفزاعة

الطيور وتخويفه للأقارقة من «تجار الرقيق العرب» و«التوسع العربى فى إفريقيا» و«تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة عربية» وغير ذلك من التصريحات التى هدف بها إلى الإيحاء بأن القضية الإريترية مجرد صناعة عربية.

لكن ديماجوجية الشعار السياسى وتجنى تصريحات منجستو، لم تكن وحدها مسئولة عن غرابة الموقف الإفريقى من الثورة الإريترية. فثمة بعد عجيب تخلل هذا الموقف، هو البعد الأسطورى فى قارة مازالت تعيش على الأساطير. فإثيوبيا المسيحية المستقلة ظلت مصدر إلهام سياسى ودينى لكثير من الأفارقة، وعلى حد تعبير السياسى النيجيرى «أزيكوى»: «إثيوبيا هى النظام الذى أسسه أبائنا الأفارقة على هذه القارة». وبلغ البعد الأسطورى ذراه عندما قام قادة الكنيسة البانتوية «نسبة إلى القبائل الإفريقية المتحدة بلغات البانتو» فى جنوب إفريقيا بتشكيل كنيستهم المفضلة فى صورة «الكنيسة الإثيوبية».

صار العرش الإثيوبى المسيحى رمزاً للقوة السوداء فى كثير من أركان القارة الإفريقية. فضاعت بين جحافل الأقدام السوداء المهرولة على طريق الخلاص الإثيوبى قضية الشعب الإريتري الأسود، ولو إلى حين.

أما على المستوى الدولى فكانت إريتريا بحق، هى كبش

فداء لعبة الأمم، والكرة التي تتلقى الركلات كلما أراد هذا الطرف أو ذاك تسجيل هدف في مرمى الفريق الآخر في زمن القطبين على أيام الحرب الباردة. فحتى منتصف السبعينيات ظلت الثورة الإريتيرية تواجه نظاما إثيوبيا يضربها بأدوات الدعم الأمريكي والإسرائيلي. ومع استيلاء عسكر منجستو على السلطة عام ١٩٧٤ تغيرت المواقع وصارت الثورة الإريتيرية تتلقى الضربات مدعومة بأدوات حلفاء الأمم السوفييت الذين غيروا شعارهم إلى الحفاظ على السلامة الإقليمية لإفريقيا.

ومن المفارقات في هذه اللعبة الدولية التي عصفت بالحق الإريتري عصفا من هنا وهناك، أن موسكو الشيوعية كانت تقوم بدور الوسيط بين جبهة التحرير الإريتيرية ذات التوجهات العربية الإسلامية ونظام العسكر الإثيوبي. بينما كانت واشنطن تقوم بدور الوسيط بين الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا - ذات التوجهات اليسارية - ونظام العسكر.

لكن لعبة القطبين لم تدم، فقد انهار الاتحاد السوفييتي، وسقط نظام منجستو، وكان طبيعيا أن تتحول الولايات المتحدة إلى جانب تأييد الاستقلال الإريتري، خاصة أن حركة التحرير الإريتيرية كانت قد قطعت على الأرض المحررة شوطا يصعب تجاهله أو الرجوع عنه. فلقد تحرر كامل التراب

الإريتري وصار الثوار جيشاً أو شبه جيش، وكان الجيش لا يكتفى بالقتال، بل يزرع الأرض ويشق الطرق ويشارك في مواسم الحصاد. صارت الثورة دولة، قبل الاستفتاء، وقبل الإعلان عن ميلاد الدولة الإريترية المستقلة. وهي ماثرة تستحق التأمل.

من : اضرب واهرب ، إلى : حرر وعمر

إزاء تلاعب العالم بقضية الشعب الإريتري ابتكر الثوار الإريتريون تكتيكات تضمن نجاحهم بالاعتماد على قواهم الذاتية.

فمن التبرعات ودعم الأهالي كان الثوار يجدون ثمن الرصاصات واللقمة التي تقيم الأود. ومن الهجمات يستولى الثوار على مزيد من السلاح من ثكنات أعدائهم. وبالسلاح يحررون أرضاً. وعلى الأرض المحررة يتنامى جيش شبه نظامي وميليشيات منضبطة ومنظمات جماهيرية تنظم شؤون الحياة وتغذي الجيش بما يطلب من جنود، صارت الثورة تستوعب شعباً والشعب يحتضن ثورة حتى تحرر كامل التراب الإريتري في مايو ١٩٩١. وإذا كان تكتيك القتال الإريتري قد بدأ بشكل: «اضرب واهرب ثم اختف كالدخان»، فإنه غداً بعد عام ١٩٧٥ هجوماً يصل إلى أهدافه حتى داخل الأراضي الإثيوبية، أما على أرضه فقد سعى إلى التمركز

والسيطرة على مناطق شاسعة ثم تأكيد حمايتها .
كان التجنيد إجباريا والتدريب لا يتجاوز ستة أشهر . وكانت
المرأة تلتحق بجيش الثورة شأنها شأن الرجل . وحتى لا يعوق
الزواج مهام القتال ، فقد منع الزواج في الجيش . وحتى لا
يتفشى الفساد في هذا الجيش الذي عرف الاختلاط ، فإن
الزنا كانت عقوبته الإعدام للطرفين .

لم يكن هناك وقت للعبث ، حتى في أوقات الفراغ من مهام
القتال ، فإن الجيش كان يزرع ويحصد ويشق الطرق ويصنع
للأهالي أدوات منزلية من حطام الطائرات الإثيوبية التي
أسقطها وبلغ عددها حتى مايو ١٩٧٧ اثنتين وثلاثين طائرة .
أما قماش المظلات فقد كان نسيجا للقمصان وستائر لنوافذ
البيوت المتواضعة !

ثلاثون عاما من الدأب أثمرت ميلاد دولة مستقلة ، وقدمت
للعالم حركة تحرير مميزة السمات تبدو وكأنها كائن حي لا
يكف عن النمو . تحدث انشقاقات لكن الفصيل المنشق ما يلبث
حتى يسيطر على الساحة ويذوب التنظيم الأصيل . وإن وجد
تنظيم ذو طابع عرقي أو ديني محدد . فإنه لم يوصد أبوابه
أمام الآخرين .

وثوار لم يلقوا سلاحهم لثلاثة عقود كاملة دون انتظار
لاعتراف من أحد . ولم يكن هناك تنظيم يدعى أنه الممثل

الوحيد لحركة الشعب الإريتري.

بكل هذه المآثر كانت حركة التحرير الإريتري هي الحركة الإفريقية الوحيدة التي تمكنت من إسقاط عدوها مرتين: هيلاسيلاسى فى أول الأمر ثم منجستو من بعده. وكانت هي الحركة الوحيدة التي تمكنت من تحرير كامل ترابها قبل أن تبدأ التفاوض، وقبل أن يجرى استفتاء تقرير المصير الذي كان قد تقرر بالفعل على الأرض الإيترية المحررة.

هل يتحول الرفاق إلى إخوة أعداء؟

والآن بعد أن انتصرت الثورة على عدوها الواضح والأساسى «إثيوبيا» فإن الرفاق القدامى لم يلقوا السلاح. ويبدو أن الحساب الختامى لم يحسم بعد وربما دعم هذا من ظهور التناقضات التي كانت مؤجلة بين الفصائل المختلفة. لقد شهدت سنوات النضال الطويلة انقسام الجبهات إلى فصائل، والفصائل إلى مجموعات. وهذه هي أحد أمراض الكفاح المسلح فى العالم الثالث بشكل عام.

لقد تغير وجه الثورة التي أطلقت رصاصتها الأولى فى الستينيات، كانت قيادتها أولا فى أيدي العناصر المسلمة الأكثر فقرا والتي تحملت الاضطهاد الإثيوبى بصورة أساسية. وكانت امتداداً لتيار حزب الرابطة الإسلامية الذي كان يدعو إلى استقلال إريتريا وعروبتها معا. ثم دخلت الثورة

إلى السبعينيات وقد انقسمت إلى تنظيمين رئيسيين هما جبهة التحرير الإريترية، وقوات التحرير الشعبية. واستطاعت الأخيرة أن تجذب مسيحيي الهضبة وكذلك العناصر المصوغة والحضرية. ثم حدث انشقاق آخر بقيادة أسياى أفورقى، وتحت قيادته بدأت الجبهة الشعبية تحقق انتصارات متوالية على النظام الإثيوبي المنهار، مستعينة على ذلك بالعناصر المسيحية التي كانت على درجة عالية من الثقافة، فى الوقت الذى أخذت فيه العناصر الإسلامية فى التراجع بعد أن سقطت فى هوة التناحر فيما بينها.

ومعضلة الجبهة الشعبية الآن بقيادة أفورقى أنها ترفض الاعتراف بمساهمة الأطراف الأخرى فى عملية التحرير، وتتنظر إلى شخصيات الثورة الرئيسية من منظور تاريخى ورمزى أكثر منه واقعياً. وبذلك فهى تهىء نفسها للانفراد بالسلطة دون أن تتيح الفرصة لبقية الأطراف (المسلمة).

ولعل صلة الرئيس الجديد بإسرائيل تلقى المزيد من الظلال على توجهاته. فقد ذهب إلى إسرائيل مرتين فى مدة وجيزة: الأولى للعلاج من الملاريا، والثانية للتفاهم حول مستقبل العلاقات الآخذة فى التنامى. وتحدث الأنبا عن مساهمة إسرائيل فى المشروعات الزراعية والآبار الجوفية وبناء مطار حديث ووجود خبراء عسكريين من الموساد لتدريب الجيش

الإريتري، الذي أصبح واحدا من أقوى الجيوش فى القرن الإفريقى.

بقية الفصائل المعارضة ساخطة لأنها لم تدع للاشتراك فى الاستفتاء. وبدأت المشاكل بين الإخوة المتناحرين حين أدلى أفورقى بالتصريح العنيف ضد ما أسماه بالتدخل العربى فى شئون إريتريا الداخلية. وردت عليه بقية التنظيمات الأخرى بأنها لم تنهض للكفاح إلا دفاعا عن تراثها الإسلامى ولغتها وثقافتها العربية. وتنتقد حركة الجهاد الإسلامى الرئيس أفورقى بعنف لأنه قرر الأحد عطلة رسمية بدلا من الجمعة وأقصى اللغة العربية عن الدواوين والمدارس وفرض اللغة التيغرية بدلا منها، كما أنه تجاهل قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، إضافة إلى حملات الاعتقال والقمع.

وهكذا بدأت بوادر التحلل بين الفصائل التى قادت النضال وإذا استمر الأمر على هذا النحو، فربما أدى إلى الانفجار الداخلى الذى يعود بالبلاد إلى نقطة الصفر مرة أخرى.

الموقف الكويتى والعربى

إن أفورقى يدرك جيدا معنى وقوع إريتريا بين استقطابين رئيسيين: إثيوبيا المسيحية (العدو السابق) والسودان العربى (الحليف الدائم)، ومع التقسيم الدينية فى البلاد فإن الانحياز إلى أى جانب يمكن أن يؤثر بالسلب على الجانب

الآخر. ولن يكون الحل طبعاً - كما تظهر بعض البوادر - أن يرتقى في أحضان إسرائيل وخلفها الولايات المتحدة. فهو يدرك جيداً أن هاجس الأمن العربى لن يسمح له باختراق البحر الأحمر، ولن يسمح لإسرائيل أن يكون لها موطئ قدم فى الجزر التى تتحكم فى باب المندب. ومثل هذا التوازن الدقيق يجب أن يكون قائماً فى باله، خاصة أن البلاد العربية - بعد أن أعطته الدعم والتأييد طوال السنوات الماضية - لاتزال ترقب خطوته القادمة.

ورغم كل علامات الاستفهام فإن الدول العربية لم تتأخر ولم تقف ساكنة. لقد تعاملت من منطلق ثابت وصلب مع إريتريا ككيان عربى، بغض النظر عن حيرة النظام وعدم تحديده لهويته.

لقد طلبت إريتريا الانضمام إلى الأمم المتحدة، وإلى منظمة الوحدة الإفريقية، ولكنها حتى الآن مازالت تؤجل طلبها الانضمام إلى الجامعة العربية. إلا أن المنطق العربى - بعد التجربة - قد تعامل مع هذا الوضع بذهن متفتح، فهو لا يريد أن يتدخل فى الشؤون الداخلية لإريتريا، وهو يدرك أن النظام يحتاج لوقت كى يحل تناقضاته الداخلية ويحدد هويته الذاتية. وبالتالي فقد أعطته الدول العربية الدعم السياسى حين بادرت بالاعتراف بالدولة الوليدة. وكانت الكويت فى مقدمة من

باركوا هذا الاستقلال. كذلك الأمر بالنسبة للسعودية ومصر
والسودان واليمن. وهى الدول التى كان لها صلة باحتضان
فصائل الثورة المختلفة، كما قدمت الدعم المادى ممثلاً فى
المعونات المختلفة. وعندما دمرت الأعاصير والسيول مدينة
أسمره أسرعت الكويت بإرسال طائرات النقل العملاقة
هيركيولز التابعة للقوات المسلحة الكويتية وأقامت جسراً جويًا
تم من خلاله نقل مواد الإغاثة والمعونات الإنسانية. كذلك فعلت
السعودية وبقية دول الخليج.

الدولة الأضعف.. أم الأقوى ؟

ولكن.. ماذا عن احتمالات المستقبل؟

انتهت معركة التحرير وبدأت معركة البناء.. فكيف يكون
مصير هذه الدولة الوليدة؟

البعض يقول إنها سوف تكون الدولة الأضعف فى القرن
الإفريقى. فهى قد فقدت بنيتها الأساسية تقريباً.. لا طرق
صالحة، لا تملك خطوطها الجوية إلا طائرة واحدة، ٦٠٪ من
أراضيها محروقة و ٧٠٪ من ماشيتها قد نفقت، هناك نقص
حاد فى مصادر الطاقة، ولا توجد لديها عملات صعبة. أضف
إلى ذلك مشكلة اللاجئين وأعدادهم الغفيرة فى معسكرات
السودان والتى تترقب عودتهم.. كل هذه المشاكل تبحث عن
حل لها وسط انقسام حاد بين الأخوة الأعداء الذين لم يلقوا

بأسلحتهم بعد.

والبعض الآخر يقول إنها سوف تكون الدولة الأقوى فى القرن الإفريقى. فهى تملك جيشا قويا متمرسا بفنون القتال، اكتسب هذه الخبرة على مدى ثلاثين عاما. كما أنها تحتل موقعا استراتيجيا مهما على البحر الأحمر يؤهلها لأن تكون بوابة إفريقيا المفتوحة على البلاد العربية من خلال ميناءى مصوع وعصب. كما أنها تعتبر أكثر الدول استقرارا فى القرن الإفريقى فلا توجد فيها الحروب الأهلية أو المجاعات التى تعصف بجاراتها إثيوبيا والسودان وجيبوتى.

إنها تطرح تجربة جديدة تقترح نظاما ديمقراطيا يقوم على تعدد الأحزاب، وقد وضعت فى وسط علمها الرسمى إشارة إلى غصن الزيتون تعبيرا عن رغبتها فى الحياة بسلام.. فهل تنجح فى ذلك، وهل تجتاز كل هذه العقبات؟

هذا هو السؤال الذى يطرح نفسه على الثورة التى أصبحت الآن دولة..

د . محمد الرميحي

- دكتوراه في العلوم الاجتماعية من جامعة درهام بالإنجلترا عام ١٩٧٣
- مؤسس ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في الفترة من عام ١٩٧٤ - ١٩٧٨
- استاذ في قسم الاجتماع بجامعة الكويت في الفترة من ١٩٧٥ - ١٩٨٢
- رئيس تحرير مجلة العربي منذ عام ١٩٨٢
- من الجوائز التي حصل عليها :
 - الجائزة التذكيرية لمؤسسة الكويت للتقدم العلمي في العلوم الاجتماعية والاقتصادية عام ١٩٨٠
 - جائزة ابن سينا (جائزة الابداع الثقافي الدولي) موسكو عام ١٩٩٠
 - جائزة العويس في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٦
 - من اهم الكتب التي اصدرها :
 - الكويت قبل النفط - دار حوافر عام ١٩٧٥
 - البترول والتغيير الاجتماعي - دار الجديد الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
 - معوقات التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلدان الخليج - دار الجديد الطبعة الثالثة بيروت عام ١٩٩٥
 - ١
 - البحرين مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي - دار الجديد الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
 - العرب في عالم متغير . الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام عام ١٩٩١
 - ازالة للحوادث - الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام ١٩٩١
 - هموم البيت العربي . الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام ١٩٩١
 - الجذور الاجتماعية للديموقراطية في مجتمعات الخليج العربي - دار الجديد بيروت . الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
 - اصدااء حرب الكويت ردود الفعل العربية . الناشر دار الساقي عام ١٩٩٤ - لندن .
 - الكويت .. كلمات في زمن النكبة : الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام عام ١٩٩١

فهرس

١١	سقوط الأوهام
٢٧	الطريق إلى الإسلام
٤٣	سنة التحرير وسنة البناء
٥٩	نتسامح ولا ننسى
٨١	أربع سنوات مريرة
١٠٤	تأملات في أغوار كارثة الغزو
١٢٧	حتى لا تموت فاطمة
١٥١	الكويت والإحتفاء بالثقافة العربية
١٧٣	ملف مشاكل العرب والمسلمين
١٩١	هل يخاف الغرب المسلمين
٢١٦	العرب من منظور غربي
٢٣٥	البحث في التوازن العربي
٢٥٧	الخيار الذي يواجهه المسلمون
٢٧٨	الميراث المر
٣٠٣	لا عن غزة ولا عن أريحا
٣٢٧	زيارة الوطن والكلمة لبنان
٣٥١	المعلوماتية العربية
٣٧٣	أريتريا من الثورة

رقم الإيداع:

سقوط الأوامر ٩٧/٤١٠١ : (977 - 286 - 02 - X)

الحرية والوطن

وكرر المؤلف على أن عدم ممارسة الشعوب لحريةها
وأن يكون عليها غمة تحت أقدام الديكتاتورية أخطأ كمة وحصلت عنها
الأمم من حكم السطط الفردي يعرضها للسقوط والعمالة ويعرض
الأخرين للخراب والدمار.

ومن المؤلف بالقومية العربية وما أدى بنا على الضيقت من
أجلها . ولكنه عفاى والأخرين الأمر من من مأساة الشعارات
القومية للقومية العربية الرائعة والموهبة . ونتائج التطبيق
الديكتاتوري للشعارات الخرفاء للقومية العربية كما يصورها
هذه الشعارات التي أفرغت من محتواها الأصل فصارت أداة
لتحقيل أطماع وطمر حبات فردية صيفة لا علاقة للشعوب العربية
بها ولا مصلحة.

كتب المؤلف كلمات هذا الكتاب بمداد الدم العربي الذي
أرضى فوق أرض العرب في الخليج العربي بأيد عربية ، فكانت
وبالا على أصحاب الأطماع وقد ميسر الشرائع العرب المظلمة
والسورية عامة . وتكفروا بالقومية العربية ووجدوا مصر العرب
هل يسقط القومية العربية . أو يسقط الديكتاتورية ذاتها ؟